عجائب وأساطير

د. شوقي ضيف



دار الهلال

عجائب وأساطير

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

الغلاف للفنان
جمال قطب

مقدمة

هذه طائفة طريفة من العجائب والاساطير ، دونها العرب في العصور الوسطى لغرض اللهو والتسلية وملء أوقات الفارغين نهارا والسامرين ليلا عنيت باستخراجها من بطون الكتب العربية وتصنيفها ، لما وجدت فيها من مادة قصصية خيالية جديرة بأن تكون جماما للقارىء ومتاعا ، فان من كتبوها تحولوا بكثير منها الى حكايات أحسنوا رصفها وسردها . وهى تدل دلالة بينة على أن من ألفوها كانوا بارعين في النسج القصصى ، براعة من زادوا من خواطرهم وأخيلتهم في قصص كتاب الف ليلة وليلة على مر العصور العربية الوسيطة

ومعروف أن هذا الكتاب الاخير تكون حول أصل فارسى استمد من أصول هندية ، وأن قصاص العرب من بغداديين ودمشقيين ومصريين أدخلوا عليه اضافات كثيرة . ولا نرتاب في أن من نهضوا بهذا الصنيع كانوا يستمدون من هذه العجائب والاساطير التى جمعنا أمشاجا وأطرافا منها ، فوشائج القربى وثيقة بينها وبين كثير من قصص ألف ليلة وليلة

واقرأ فى الصحف التالية من هذه المجموعة ، ثم اقرأ فى ألف ليلة وليلة موازنا مقارنا ، فستجد نفسك أمام عجائب وخرافات وأساطير مشتركة ، فهنا وهناك الرخ الذى يطير ببعض الناس من موضع الى موضع ، والافاعى الخيرة والشريرة، والتنين الذى يسقط من السحاب فيحرق كل ما يمر به من سفن أو حيوانات أو يلتهمها التهاما ، والآدميون الذين يطيرون من شجرة الى شجرة وآخرون من نسل قوم عاد ، وجزر القرود ، وكائنات بحرية آدمية أو نصف آدمية ، وأخرى تعظم جثتها حتى تصبح جزيرة قائمة فى عرض البحر ، تنبت عليها الحشائش وترسو المراكب • وفى البحار البعيدة جزر النساء اللائى يعشن فى عزلة عن الرجال ، وبنات الماء ذوات الاجنحة ، وجزر واق الواق وهى أشجار لا تثمر ثمارا ، وانما تثمر آدميات معلقات من شعورهن يصحن على الفروع والاغصان «واق واق ، تبارك الله الخلاق »

وهنا وهناك كثير من الكهانة والعرافة والسحر ، ولا يوجد تمثال فى مدينة ، ولا حفر فى صخور ، ولا نقش فى حجارة ، الا وهو طلسم كبير يصد الاعداء والآفات • وهنا وهناك كثير من الملوك الاسطوريين ، أو من ملوك الفرس الاولين ، أو ممن يفهمون منطق الطير والحيوان

وحدث ولا حرج عن الجن والعفاريت والمردة ، والخضر، والاسم الاعظم، وقماقم سليمان ، والحوت الذى يحمل الارض ومن عليها، والمدن المفقودة ، والاخرى التى بنيت بلبنات الذهب والفضة ، ومدينة النحاس المطلسمة التى تسحر كل من علا سورها ، فيرى من بعيد ضاحكا ، ويهوى فيها ولا يعود أبدا

ولم أقصد بهذه المجموعة من العجائب والاساطير وما ارتبط

بها من أقاصيص غريبة أن أبحث بحثا مقارنا بينها وبين مادة ألف ليلة وليلة ، انما قصدت الى نفس الغاية التى قصد اليها من دونوها ، وهى أن تكون تسلية ومتاعا لقارئها • ومن المحقق أن كثيرا من عناصرها رسب فى حكاياتنا الشعبية المتوارثة ، ومرجع ذلك أنها كانت جزءا لا يتجزأ من تراثنا الادبى ، فظلت الاجيال تتناقلها وتتداولها جيلا بعد جيل

واذا كان قصاصنا فى العصور الوسطى استطاعوا أن يستغلوها فى حكاياتهم ، وفيما أضافوه الى كتاب ألف ليلة وليلة من قصص تقوم على الحوادث والمغامرات الخيالية ، لا على رسم شخصيات نابضة بالحياة محددة المعالم والابعاد واضحة الملامح والقسمات ، فأولى بقصاصنا البارعين فى هذا العصر الذى انبعثنا فيه لاحداث نهضة قومية حقة أن يكون استغلالهم لهذه العناصر وما اجتمع فيها من مواد قصصية أتم تصرفا وأكمل مجتنى وأطيب ثمرة • ولنا مثل فى النهضة الادبية الغربية ، فان الغربيين استعانوا منذ نشأتها بأساطير الاغريق والرومان ، واستوحوها فى آدابهم القومية على اختلافها ، ولا يزالون يستوحونها الى اليوم

وما أشك فى أن هذا العتاد الاسطورى الذى جمعته مما كتبه أسلافنا سيدفع غير قاص بيننا الى الافادة من عناصره الخيالية فى بناء بعض قصصه ،فيتصل شاهدنا بغائبنا وحاضرنا بماضينا ، ومن يدرى لعل من قصاصنا من يبنى منه بناء لا يقل جمالا وروعة عن بناء ألف ليلة وليلة التى طارت شهرتها فى الشرق والغرب • والله ولى الهدى والتوفيق

شوقى ضيف

في عالم البحر



البحر المحيط

كان العرب يتصورون ــ كما تصور اليونان ــ أن الارض المعمورة يحيط بها بحر واسع لاحد له وهو يستدير حولها على نحو ما تستدير المياه حول بيضة مغمورة بها في كأس ، ويحيط بالماء محيط الهواء ، وفوقه محيط من النار ، وكل ذلك تحت التجويف الممدود في فلك القمر

وهذا المحيط أو البحر الواسع تخرج منه سائر البحار ، وله في كل جهة من الارض اسم ، سماه به اليونانيون والفينيقيون ومن قبلهما ، فهو في الجهة الغربية يسمى البحر الاخضر وبحر الروم (البحر الابيض المتوسط) ويتصل هذا البحر بالاوقيانوس أو بحر الظلمات (المحيط الاطلسى) عن طريق أعمدة هرقل (بوغاز جبل طارق) . ويسمى المحيط في الجهة الجنوبية بحر القلزم (البحر الاحمر) وبحر الهند (المحيطين الهندى والهادى) . وتخرج من المحيط خلجان متصلة به ، مثل البحر الاسود ، وكان العرب يظنون أن بحر الخزر (بحر قزوين) متصل به ، وكذلك بحيرة خوارزم (بحر أورال) . وكأنهم لم يتصوروا بحرا ينقطع عن هذا المحيط ، فكل البحار متصلة به وتستمد منه ، فهي جميعها بحر واحد مالح محيط بكرة الارض

وكان العرب ــ كغيرهم من الامم القديمة ــ يعتقدون أن من

توغل فى هذا البحر المحيط غربا فى المحيط الاطلسى ، وجنوبا فى بحر الهند ، دخل فى ظلام شامل ، وألفى نفسه فى دوامات ومهاو لا يستطيع الرجوع منها ، وكانوا يعتقدون أن به قارات وجزائر مجهولة كقارة أطلنطس ، كما كانوا يعتقـدون أن به كثيرا من الحيوانات المائية والطيور البحرية العجيبة ، والامم الغريبة التى تشبه الانسان ، وهى وسط بينه وبين أنواع من الحيوان والطير ، فمنها ذوات الاجنحة التى تطير ، ومنها ما لا يتجاوز طوله أربعة أشبار ، ومنها ذوات الخراطيم ، ومنهـا ما يزحف ، ومنها ما يمشى على رجلين ، ومنها ما يشبه رأسه رأس الكلاب ، ومنها العور ، ومنها ماله آذان كآذان الفيلة

وسنرى كثيرا من أساطيرهم عن البحار ، وليس معنى ذلك أن العرب ومن سبقهم من الامم القديمة وقفوا منهـا موقف دهشة ولم يتوغلوا فيها ، فقد اقتحموا كثيرا منها اقتحـاما ، وكان الفينيقيون من أسبقهم الى ذلك ، فقد تجولت سفنهم فى سواحل أوربا وأفريقا وآسيا ، باحثة عن الذهب والفضـة والتوابل والكهرمان وغيره من الحجارة النفيسة ، وتبعهـم اليونان يلججون فى البحار ومن جاء بعدهم من الرومـان ، وجميعهم كانوا يتحدثون عنها أحاديث تختلط فيها الحقيقـة بالاسطورة • وخلفهم العرب ، فخرجوا بسفنهم الى المحيـط الاطلسى ، ولكنهم لم يبعدوا فيه ، انما أبعدوا فى المحيطـين الهندى والهادى على سواحل آسيا وأفريقا ، ولم يتركوا جزيرة فى المحيط الاول الا زاروها وعرفوها ، ومن هنا وهناك كانوا يجمعون الحقائق ، وينسجون الاساطير ، وقد سـجلوا ما شاهدوه وتخيلوه فى كتبهم الجغرافية وفى رحلاتهـم ، ولم يلبثوا أن أفردوا للعجائب والغرائب فى الكون كتبا مستقلة

ومن أطرف الاشياء حقا أن نقرأ هذه الكتب ، لا لنفيد منها معرفة بعالم البحر ، فقد كشف عصرنا الحديث هذا العالم وما فيه من جوانب وقرارات وتيارات وأسماك وحيوانات وثروات ، وانما لنفيد منها اللذة الفنية الخالصة التى نفيدها من الاساطير والاقاصيص الخيالية ، تلك التى تصور لنا نحوامن أنحاء الحياة الانسانية

☐

وطبيعى أن تكثر الاقاصيص والاساطير عن البحر عند العرب وغيرهم ممن سبقوهم ، وهم يضربون على لججه ، وهو يمتد أمامهم امتدادا تحيطه الظلمات من كل جانب ، ونجوم تظهر لهم فى بعض الليالى وتختفى فى أخرى ، وسحب تملأ السماء وأخرى تقترب أو تبتعد ، وأحياء مائية لا تحصى تتراءى لهم والتيارات والعواصف تتجاذبهم ، وهم فى يد القدر اما أن يصلوا الى غايتهم أو يبتلعهم البحر ابتلاعا • وكم من سفن ابتلعها ، وكم من ملاحين لم يعودوا منه • ان الخيال لابد أن يلعب بعقولهم ، ولابد أن يدفعهم دفعا الى تصورات غريبة يتسجون منها خرافات وأساطير ،كانت يوما معتقدات لشعوب وأمم

ومن غير شك عرف العرب كثيرا من جوانب البحار والمحيطات معرفة حقيقية ، بل من المحقق أنهم عرفوا اتصال المحيطين الاطلسى والهندى ، ولذلك لانعجب اذا عرفنا أن فاسكو دى جاما البرتغالى المشهور لم يصل الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح الا بواسطة دليله العربى « ابن‌ماجد » الذى قاده أوقاد بعثته من البرتغاليين الى الهند ، غير مدرك خطورة عمله وأنه يجنى به على الملاحة العربية فى المحيط الهندى جناية آثمة

بما أوجد لها من منافسين برتغاليين وغير برتغاليين ممن تبعهم من الاوربيين والانجليز المستعمرين الغاشمين

وقد وصفت الكتب الجغرافية العربية كثيرا من البحار المحيطة بالعرب فى العصر الوسيط وصفا دقيقا ، غير أنا لسنا بصدد البحث العلمي فى تصورات العرب عن عالم البحر ، وانما نحن بصدد الوصف الاسطورى ، ولندع ابن الوردى المتوفى فى القرن الثامن الهجرى يعرفنا بالبحر المحيط فى كتابه « خريدة العجائب » يقول :

« المحيط هو البحر الاعظم الذى منه مادة سائر البحار المتصلة والمنقطعة ، وهو بحر لا يعرف له ساحل ولا يعلم عمقه وفى هذا البحر عرش ابليس ، لعنه الله ، وفيه مدائن تطفو على وجه الماء وفيها أهلها من الجن فى مقابلة الربع الخراب من الارض ، وفيه حصون ، وفيه قصور على وجه الماء طافية ، ثم تغيب ، وتظهر فيه الصورالعجيبة والاشكال الغريبة ثم تغيب فى الماء . وفيه الاصنام التى وضعها أبرهة تبع الحميرى قائمة على وجه البحر ، وهى ثلاثة أصنام ، أحدها أخضر ، وهو يومىء بيده كأنه يخاطب من ركب البحر يأمره بالرجوع . والصنم الثانى أحمر يشير الى نفسه ، كأنه يخاطب من ركب هذا البحر أن يقف عنده ولا يجاوزه . والصنم الثالث أبيض يومىء بأصبعه الى البحر كأنه يقول : من جاء وجاوز هذا المكان هلك ، وعلى صدر كل صنم مكتوب بالاسود : هذا ما وضعه أبرهة تبع الحميرى لسيدته الشمس تقربا اليها . وفى هذا البحر ينبت شجر المرجان كسائر الاشجار فى الارض »

ويزعم ابن وصيف شاه المتوفى فى القرن التاسع الهجرى أن البحر المحيط يشتمل على سبع وعشرين ألف جزيرة ، وأن الله خلق ألفا وعشرين أمة بعدد الكواكب الثابتة ، يسكن منها

فى جزائر البحر ستمائة وفوق الارض أربعمائة وعشرون ،وفى شرقى العالم جنس يجمع بين الوحش والانسان فى صورته فرأسه رأس أسد وآذانه طويلة ، وجسمه جسم انسان ، غير أن له ذيلا ومخالب فى موضع الايدى والأرجـــل ، وأقرب المخلوقات الى الانسان من كل هذه الاجناس جنس الوقواق ، وهن نساء ، علقن بشعورهن فى أشجار ، وهن يصحن : واق واق ، واذا سقطن من أشجارهن فارقتهن أرواحهن

□

ويروى القزوينى المتوفى فى القرن السابع الهجرى حكاية عجيبة ، اذ يقول : « أن ذا القرنين أراد أن يعرف ساحـــل المحيط الاقصى فبعث مركبا ، وحمله الماء والزاد ، وأمـــره أن يسير سنة كاملة فى اتجاه واحد ، لعـــله يأتى بشىء من خبره ، فسار المركب سنة ، ولم ير شيئا الا سطح الماء ، وما يخرج منه من دواب كبـــار ، فأراد الرجـــوع ، فقـــال بعض من فيه : نسير شهرا آخر ، لعلنا نطلع على شىء ، نبيض به وجوهنا عند الملك ونحتمل ضيق الماء والزاد فى الرجـــوع ، فساروا شهرا آخر ، فاذا هم بمركب فيه ناس فالتقى المركبان ولم يعرف أحدهما كلام الآخر ، فدفع قوم ذى القرنين اليهـم رجلا ، وأخذوا منهم امرأة ، ورجعوا بها ، فزوجوها من رجـل فى المركب معهم ،فأتى منها بولد ، ففهم كلام الابوين ،فقيـل له سل أمك من أين جاءت ؟ فقالت : جئت من ذلك الجانب وأشارت الى جهة مجيئها ، فقال لها ابنها : لأى شىء جئت ؟ فقالت : بعثنا ملكنا لنعرف حال هذا الجانب ، فقـــالوا له : سلها : هل هناك ممالك وملوك ؟ فسألها ، فقالت : نعم لنا ملك أعظم من ملككم ، ومملكته أعرض من مملكتكم وأوسع ،

وما كنا نعلم أن هاهنا الا المـــاء »

وليس البحر المحيط وحده الذى تروى عنه الاساطير ، فلكل بحر أساطيره ، وهى تتداخل فى كل ما تحت أيدينا من اخبار عن البحار ، منذ كتب التاجر سليمان سنة ٢٣٧ للهجرة وصف رحلته من البصرة على خليج العرب الى الصين ، واجتيازه للبحار السبعة التى كانت تجتازها السفن الى هذه الجهة النائيـــة • وتبعه ابن وهب الذى قام برحلة مماثلة لرحلته سنة ٢٥٦ للهجرة ، فأضاف الى أخباره أخبارا ، وقص أقاصيص عجيبة • وكثرت الرحلات ، وكثرت الاقاصيص والاعاجيب ، لا عن بحر الهند وما يجرى فيه من سبعة أبحر ، بل عن جميع البحـــار ، ولكن بحر الهند أو بحاره هى التى ظفرت بأكثر الاقاصـــيص والاساطير ، لكثرة ما لججوا فيها طلبا للتوابل والاحجار النفيسة وقد ظلت طوال العصور الوسطى زاخرة بالظلمات والطلاسم والاسرار مليئة بالغرائب والعجائب والخرافات • ولذلك لم يكن غريبا أن تكون مسرح قصة السندباد البحرى المشهورة فى ألف ليلة وليلة ، وهى نفسها المسرح الكبير لاساطير الرحالة والبحارة من العرب وما شاهدوه فى البحار من خوارق وعجائب ، ومـــا قصوا عنها من حكايات وأقاصيص ، تعتمد على الاسطورة أكثر مما تعتمد على الحقيقة

بحر الهند

أكثر العرب من تجوالهم فى بحر الهند ، أو كما نسميه الآن المحيط الهندى ، وما يتصل به من المحيط الهادى الى الصين فقد كانت سفنهم تمخر عبابه ذاهبة آيبة من عمان والبصرة وعدن الى بربرا (الصومال) وسقطرى ومدغشقر ، وسفالة (موزمبيق) غربا ، والى سيلان والهند ومالقة والزابج (جزر الهند الشرقية) وسيام ، والهند الصينية ، والصين واليابان شرقا • وكادوا لا يتركون جزيرة فى مياه هذا البحر الا زاروها وحملوا كنوزها من الذهب والفضة والياقوت والماس واللؤلؤ والزمرد وغير ذلك من الحجارة الكريمة ، كما حملوا ما فيها من ثروات معدنية ، ومن مسك وعود وجلود وصندل وكافور وفلفل وقرنفل وجوز هند (نارجيل) وساج وعاج ورصاص وعنبر ومنسوجات حريرية أو قطنية • وكم رأى ملاحوهم الموت بأعينهم سواء على لجج المحيطين الهندى والهادى أو فوق جزرهما وبين سكانهما ، ولكن ذلك لم يفت فى عضدهم فقد كانت تبدولهم هذه البقاع النائية كأنها الفردوس المفقود ، وكانوا لا يزالون كلما خرجوا منها عادوا اليها أشد شوقا ولهفة

وكانوا يسمون أجزاء هذا البحر الكبير بأسماء مختلفة ، فهو فى الغرب يسمى بحر الزنج حيث يصافح أفريقا الشرقية وهوفى جنوبى بلاد العرب يسمى باسمهم، أما جنوبى ايران فاسمه

بحر فارس ، ومنه خليج العرب وخليج عمان ، ونخرج من بحر فارس الى بحر لاروى ، وهو يواجه شاطىء السند ويمـــتد الى الشرق محاذيا لشبه جزيرة الهند ، وتقع عليه مدينة قاليقوط وكولم ملى ، وهى آخر ثغور شاطىء الملبار ، ويتصل بهذا البحر شمالى جزيرة سرنديب بحر هركند أو خليج بنغالة ، ويمتد شرقا الى جزائر أندمان ولنجبالوس ، ويتصل ببحر كلاه وبحر شلاهط ، حيث جزيرة الرامنى (ســـــومطرة) والزابج أو جـــزائر الهنـــد الشرقية ، وشـــبه جـــزيرة مالقـــا ، وقد سمى بوغازهاباسم بحر كلاه ،ويختلط اسمه هنا باسم بحر شلاهط ، ونخرج منهما الى بحر كندرنج (خليج سيام) الذى يمتد على شواطىء قمار ، ويتصل به مباشرة بحر الصـــــنف (الهند الصينية)ومنه الى بحر صنخى أو بحر الصين حيث توجد خانفو (كانتون) ، وهى سوق عظيمة للتجارة مع العرب ، وفى شماليها سيلا (كوريا) وفى الشرق جزائر وأق الواق(اليابان) وتضطرب هذه الاسماء التى أطلقوها على أجزاء هذا البحر ، كما تضطرب معها أسماء الإقاليم والجزر ، وهى فى كثير من الاحيان تخالف أسماءنا الحديثة ، فكانوا يطلقون مثلا على جزر الهند الشرقية اسم بلاد الزابج أو بلاد المهاراج ، وكانوا يسمون جاوة صندابورة ومدغشقر قنبلة ، وهكذا

▱

وكان ملاحو العرب وتجـــارهم يجوســـون خـــلال هذه الاقاليم والجزر ويلجون فى مياهها باحثين عمـــا فيها من كنوز لا تحصى ، على رأسها التـــوابل والعطـــور والحجارة النفيسة . وقد شغلت هذه الكنوز العالم القـــديم منذ عصور الفراعنة والفينيقيين والاغريق والرومان ، كمـــا

شغلت المسلمين في العصور الوسطى ، وأوربا في العصر الحديث ، وهي التي دفعت البرتغاليين وغيرهم من الاوربيين لكشف البحار والمحيطات ، فقد اندفعوا يبحثون عن طرق جديدة ، غير طريق مصر والشام تصلهم بالهند ومحيطها الزاخر بالثروات ، فكشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ، ولم يلبث كولومبوس أن قام بمغامراته نحو الغرب بحثا عن طريق آخر ، فاكتشف أمريكا وتبعه المكتشفون يزيحون سجف الظلمة عن البحار والمحيطات والقارات الجديدة

وقبل هذه الاكتشافات كان العرب هم الذين يحملون هذه الكنوز الى العالم ، ومن قبلهم أسهمت أمم مختلفة في حملها • وبمجرد أن أصبح لهم ملك غربي آسيا وأفريقا ، أصبحوا هم سادة هذا البحر الكبير ، بحر الهند وجزره وأقاليمه • فكانت تسيل هذه الكنوز الى حجورهم ، وينبغي أن نعرف أن قيمتها لم تكن مادية فحسب ، فقد كان لها قيمة روحية وعقلية ، اذ طالما نسجت الاساطير حول كثير منها ، مشيرة الى فائدتها في العلاج وفي حفظ الانسان من الآفات والشرور حتى التوابل فانها لاتفيد من حيث طهي الطعام فحسب ، بل تفيد أيضا في العلاج من الامراض ، ومثلها العطور وأنواع الافاويه والحجارة الكريمة ، بل ان منها ما اذا تحلى به الشخص زادعقله وقضيت حوائجه عند الحكام والسلاطين وتبعه الناس ولم يغلبه أحد في الخصومة • ولا نستطيع أن نفهم ذلك حق الفهم الا اذا رجعنا الى كتاب « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » للقزويني ، وهو دائرة معارف ، تصور في دقة قيمة التوابل والعطور والحجارة الكريمة ، ومدى ما كان الناس يعتقدون فيها لعصره ، ولنستعرض بعض ما كتبه عنها

يقول عن الفلفل : « شجرة تنبت بالهند بناحية منها تسمى ملبار ، وهي شجرة عالية لايزول الماء من تحتهـــا ، فاذا هبت الريح تساقط حملها على الماء ، ويجمع من فوقه . وحملها عليها أبدا شتاء وصيفاً ، وهو عناقيد ، فاذا حميت الشمس عليهـــا انطبقت على كل عنقود منها عدة أوراق لئلا يحترق بالشمس فاذا زالت الشمس زالت الاوراق عنها ، لتنال من النسيم . وشجرته تشبه الرمان ، وبين الورقتين منها شـــمراخان منظومان بالفلفل ، وشمراخها في طول الاصبع ، وأول ما تطلع ثمرتها تسمى دار فلفل ، ثم تنفصل عن حب ، يكون هو الفلفل ثمرتها . أما الدار فلفل فينفع في نهش الهوام أكلا ، وطـــلاء بالدهن ، ويقوى ويفيد في الغثاء (خبث المعدة) مع كبدالماعز شيا . وأما الفلفل فهو بالنطرون جـــلاء للبهق ، وهو يدر البول ، وينفع في ظلمة البصر »

ويقـــول عن النارجيل (جوز الهنـــد) : « هو الجـــوز الهنـــدى ، لبنه حـــلو لذيـــذ ان كان رطبـــا ، وأن كان يابسا عتيقا ينقى البدن من حب القراع ، وأكله يقوى ، ودهنه نافع للبواسير خصوصا اذا كان عتيقا »

ويقول عن الياقوت : « حجر صلب ، شديد اليبس صاف شفاف مختلف الالوان : أحمر وأصفر وأخضر وأزرق ، والاحمـــر أشرفها وأنفسها ، ومن علق شيئا من الثلاثة الاولى وكان في بلده طاعون سلّم منه ومن تختم به نبل في أعين الناس ، وسهلت عليه أمور المعاش »

ويقول عن الماس مازجا الحقيقة بالاسطورة : « حجر يقرب لونه من لون النشـــادر الصـــافى لا يلصـــق به

شيء من الاحجـــــار الا هشـــــمه وكسره ، ولو جعلتـــه الف قطعة كانت جميع قطعه مثلثة ، وكلما كان حجمــــــه اكبر كان أقوى فعلا ، والصناع يجعلون قطعه في طرف المثقب ويثقبون بها الاحجار الصلبة . والموضع الذى فيه حجر الماس لم يصل اليه أحد من الناس الا الاسكندر ، وهو واد متصـــل بأرض الهند ، لا يدرك البصر أسفله ، وفيه من صنوف الافاعى مالم ير أحد مثلها . وهذه الافاعى مارآها أحد الا مات ، فأمر الاسكندر باتخاذ مرايا مثبتة على حديد تراها فى طريقها ، فلما اقبلت ووقع نظرها على صورتها فيها ماتت لساعتها . وأراد أن يخرج الماس من ذلك الوادى ، فخاف الناس ولم يقدم أحد على النزول فيه ، فراجع حكماء الهند ، فأشاروا عليه أن يلقى قطع اللحم بالوادى ففعل ، فالتصق بها الماس ، فجاءت الطير من الجو فأخذت من ذلك اللحم وأخرجته من الوادى ، فأمر الاسكندر أصحابه باتباعها والتقاط ما تناثر من اللحم . وهكذا يفعلون فى سرنديب فى اخراج الماس من وادى الحيات المشهور بهـــا فيرمون به اللحم وتسقط عليه النسور ، فيلتصق بما تأخذه منه مقدار العدسة والحمصة . والاشراف والسلاطين يتخذون منه الفصوص ، وهو نافع من المغص وفساد المعدة ، وهو سم قاتل جدا »

وانما نقلنا ذلك عن القزوينى ، لنـــدل على قيمـة التوابل والاحجار النفيسة عند الناس فى تلك العصور ، وهى قيمــة كانت ترفع من أثمانها وتدفع التجار ومن ورائهم الملاحـــين الى المغامرة فى سبيلها ، حتى يحصلوا على هذه الكنوز والتحف الثمينة

بين الحقيقة والخيال

لا يكاد يخلو كتاب يصف بحر الهند وغيره من البحار ، من سرد العجائب والأساطير فى ثنايا وصفه ، نجد ذلك فى رحلتى سليمان وابن وهب اللتين احتفظ بهما أبو زيد السيرافى ، فى كتاب طبع له بباريس فى القرن الماضى ، بعنوان « سلسلة التواريخ » . وبمجرد أن نقرأ فى رحلة سليمان التى قام بها من البصرة الى الصين فى سنة ٢٣٧ للهجرة نجده يفسح للخيال فيما يكتب ويصف ، ففى بحر لاروى سمك البال (الحوت) الذى ينفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة ، وفيه سمكة يحكى وجهها وجه الانسان تطير فوق الماء . أما بحر هركند ففيه سرنديب ، وبأرضها جبل يدعى الرهون ، هبط عليه آدم عليه السلام ، وقدمه ظاهرة برأس هذا الجبل منغمسة فى الحجر ، وهى قدم واحدة ، ويقال أنه خطا بقدمه الثانية خطوة أخرى فى البحر . وهذه القدم التى على رأس الجبل تبلغ نحو سبعين ذراعا ! . وفى هذا البحر جزائر كثيرة بها أقوام يأكلون الناس ! وتعظم أمواجه ، وتتقد كأنها النار

ولايتحدث سليمان عن البحر وعجائبه وغرائب جزره فحسب ، بل يتحدث أيضا عن الهند والصين . ويصنع صنيعه ابن وهب الذى رحل بعده بقليل الى الصين . وكأنما وضع هذان الرجلان أساس الكتابة عن بحر الهند وسواحله فقد خلفهما الجغرافيون والمؤرخون والرحالة والملاحون يضيفون

الى أخبارهما واساطيرهما أخبارا وأساطير جديدة . وأقرا فى المسالك والممالك لابن خرداذبة ، ومختصر البلدان لابن الفقيه ، ومعجم البلدان لياقوت الحموى ، وغير ذلك من كتب الجغرافيا مثل نزهة المشتاق للادريسى ، وفى كتابات التاريخ عند المسعودى وفى كتب الرحلات المختلفة وخاصة عند ابن بطوطة ، فستجد سيولا من الخرافة والاسطورة ، وهى سيول يتخللها كثير من الحقائق ، وكأنما كان القوم يجدون فيها ما يشوق الناس الى قراءة كتبهم ، فتوسعوا فيها ، وجمعوا كثيراً من غرائبها

ولا نلبث أن نراهم يفردون لتلك الغرائب والعجائب كتبا خاصة ككتاب القزوينى « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » وله موسوعة أخرى سماها « آثار البلاد وأخبار العباد » وهى تشتمل مثل موسوعته الاولى على كثير من أعاجيب الكائنات والموجودات . وليس القزوينى وحده الذى انفرد بالكتابة فى ذلك ، فقد كتب كثيرون ، منهم الدمشقى فى كتابه « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » وابن الوردى فى كتابه « خريدة العجائب وفريدة الرغائب » . وتجمع هذه الكتب كلّ ما جاء فى كتابات الرحالة والجغرافيين وما سمع على ألسنة البحريين ، وتضيف اليه كثيرا من الحكايات الشعبية وتسوق ذلك كله ليتسلى به الناس ، فهى كتب للتسلية والترفيه ، وهى ليست أساطير خالصة ، بل تمزج الاساطير بالحقائق . وبذلك كانت قراءتها من اكبر المتع فى أوساطنا الشعبية السابقة ، وسنسوق منها أطرافا . فمن ذلك ماجاء فى القزوينى عن جزيرة سرنديب فى تضاعيف كلام طويل ، يقول :

« جزيرة فى بحر الهند .. بها أنواع العطر والافاويه والعود والنارجيل (جوز الهند) ودابة المسك وأنواع اليواقيت والذهب

والفضة واللؤلؤ ، وبها جبل اهبط عليه أبونا آدم ، وبها كباش لها عشرة قرون ! وبها جبال عليها الياقوت وهو ينحدر مع السيل ! »

ويتسع ابن الوردى فى ذكر أعاجيب الجزر ، بأكثر مما يتسع القزوينى ، فمن ذلك وصفه لجزر الزابج وهو يطرد على هذا النحو :

« جزر الزابج (جزر الهند الشرقية) تشتمل على جزائر كثيرة ، وهى عامرة خصبة ، وليس فيها خراب ، والناس يسافرون فيها بلا ماء ولا زاد لكثرة الخصب والعمارة . وملك هذه الجزر يسمى المهراج . وجبايته كل يوم ثلثمائة «من» ذهبا خالصا (والمن ستمائة درهم)، ويطرحها فىالبحر وهو خزانته! . وبهذه الجزر سكان تشبه الآدميين ! ، ولهم كلام لا يفهم ، وعندهم أشجار كبيرة وهم يطيرون من شجرة الى شجرة ! وبها نوع من السنانير الوحشية حمراء منقطة ببياض ، اذنابها كأذناب الظباء . وبها ايضا نوع من السنانير المذكورة ، لها أجنحة كأجنحة الخفاش ، وبها أبقار وحشية حمراء منقطة ببياض ايضا ولحومها حامضة . وبها دابة الزناد وهى كالهرة ، وفأرة المسك ، وبها جبل يقال له النصان مشهور ، به حيات عظام تبتلع الفيلة ! . وبه قردة كأمثال الجواميس والكباش الكبار . وبها من الببغاء شىء كثير . وبها خلق على صورة الانسان (لعله يقصد الغوريلا) يأكلون ويشربون ويتكلمون بكلام لا يفهم ، ولهم أجنحة يطيرون بها وحكى ابن السيرافى ، قال : كنت ببعض بلاد الزابج فرأيت وردا كثيرا أحمر وأبيض وازرق واصفر والوانا شتى ، فأخذت ملاءة وجعلت فيها شيئا من ذلك الورد فلما اردت حملها رأيت

تلوا فى الملاءة ، فأحرقت جميع ماكان فيها من الورد ، ولم تحترق الملاءة ! فسألت الناس عن ذلك ، فقالوا ان فى هــذا الورد منافع كثيرة ، ولا يمكن اخراجه من هذه الغياض بوجه ابدا • وفى الجزر شجر الكافور ، وهو شجر عظيم هائل • وفى هذه الجزر قوم يعرفون بالمخرمين ، مخرمة أنوفهم وفيهــا حلق ، يأكلون كل من وقعت أعينهم عليه ! وجزيرة رامنى (سومطره) عظيمة طويلة وبها عجائب كثيرة ، منهــا أناس حفاة عراة ، رجال ونساء ، على أبدانهم شـــعور تغـــطى ســـوآتهم ، ومآكلهم من الثمـــار ، ويستوحشـــون من الناس ، وينفرون منهم الى الفياض ، وطول أحدهم أربعـــة أشبار ، وشعرهم زغب بحمرة ، وهم لا يلحقون لسرعة جريهم، وبساحل هذه الجزيرة قوم يلحقون المراكب فى البحر سباحة وهى تجرى فى تيارها ، فيبيعونهم العنبر بالحديد ، ويحملون الحديد فى افواههـــم ، ويرجعون الى الجـــزيرة ولا ندرى ما يصنعون به • وحكى الجيهانى ان بهذه الجزيرة الكركدن ، وهو حيوان على شكل البقر ، الا ان على راسه قرنا واحـــدا معقوفا ، وفيه منافع كثيرة ، منهــا أنه يصنع منه انصـــبة لسكاكين الملوك ، وتوضع على المائدة ، فان كان الطعام مسموما عرق النصاب واختلج ! ويصنع منه حلية للمناطق ، وتبلغ قيمة المنطقة المحلاة بقرن الكركدن أربعة آلاف مثقـــال من الذهب ، واكثر هذه المناطق تصنع ببلاد الصين . وبهـــذه الجزيرة جواميس بغير اذناب . وبها شجر الكافور والبقم ، والخيزران ، وعرقه دواء من سم الحيات والافاعى . وبهـــا طيب عطر ومعادن كثيرة »

هذه صورة جزر الهند الشرقية فى كتاب خريدة العجائب

لابن الوردى ، وهى صورة تعتمد على وصف بعض الحقائق ، وخاصة فيما يتصل بكنوز تلك الجزر من التوابل والحجارة النفيسة ، ولكنها لا تلبث أن تمتزج بها خطوط مختلفة من الخرافة ، فهناك أناس يطيرون من شجرة الى شجرة ، وسنانير لها اجنحة كأجنحة الخفاش ، وحيات عظام تبتلع الفيلة ، وقردة كأمثال الجواميس ، وورد يحترق بمجرد حمله ، وأناس طول أحدهم اربعة أشبار ، الى غير ذلك من عجائب تغلب عليها الخرافة ، وهى عجائب اقحمت على هذه الكتب ، بعضها مما رواه المخرفون من البحارة ، وبعضها مما زاده المؤلفون الذين أرادوا اجتذاب العامة لقراءة مؤلفاتهم

وليست كتب العجائب كلها بهذه الصورة الخرافية التى رايناها عند ابن الوردى ، فكتب القزوينى وكتابات الدمشقى فى « نخبة الدهر » تتوخى الواقع ، ومع ذلك ففيها كثير من الخرافة ، وربما كان الدمشقى أكثر مؤلفى كتب العجائب تحريا للصدق والدقة ، اذ كان له عقل عالم ، ويقف القزوينى بينه وبين ابن الوردى ، فهو يتوخى الحقائق ، وان كان ذلك لا يمنع أن يمزجها فى اكثر الاحيان بالمبالغة بل بالخرافة

واذا كنا وجدنا أصحاب كتب العجائب يبالغون أو يهرفون فيما يروونه عن الجزر الحقيقية التى نعرفها اليوم ، فانهم ساقوا بجانبها جزرا وهمية ، ولعل بعضها جزر حقيقية لم يلاحظوا أو لم يلاحظ الملاحون الحياة فيها ملاحظة دقيقة ، وتكثر الاخبار عن هذه الجزر وتخرج الى ضروب من الخيالات المسرفة ، حتى تصبح نوعا من نسج الاساطير ، كأن يزعموا أن ببحر الهند جزيرة تسمى الجزيرة المحترقة لان كل ما عليها من الكائنات والموجودات يحترق مرة كل ثلاثين سنة ، وبه أيضا

جزيرة تسمى جزيرة العوز ،كل أهلها بهم هذه الآفة ، وجـزيرة سكسار ، وهى لقوم لا عظام لارجلهم ولا سيقان ، وجـزيرة الدهلان وهو شيطان فى صورة انسان ، راكب على طير يشبه النعامة ، يأكل لحوم البشر ، وجزيرة الصريف وهى جزيرة تلوح لاصحاب المراكب ، فيطلبونها وكلما قربوا منها تباعدت، وجزيرة الفندج ، وهى جزيرة بها صنم من رخام اخضر ودموعه تسيل على مر الليالى والايام ، ويقال انه يبكى على قوم كانوا يعبدونه من دون الله ! وجزيرة سرندوسة ، وهى جزيرة كبيرة جـدا وعند أهلها من الذهب قناطير مقنطرة ، وكل مواعينهم وأوانيهم وقدورهم من الذهب . ومن هذه الجزر الخيالية جزيرة النساء، وفيها يقول القزوينى : « هى جزيرة فى بحر الصين ، فيهـا نساء لا رجال معهن اصلا ، وهن يلقحن من الريح ولا يلدن الا اناثى مثلهن ، وقيل انهن يلقحن من ثمرة شجرة عندهن ، يأكلن منها ، فيحملن ويلدن »

ويظهر أن بعض ملاحى العرب نزلوا اليابان ، وهم يسمونها جزر واق الواق ، وما قصوه عنها يدل على أنهم لم يعرفوها معرفة صحيحة ، اذ يغلب على ماحكوه الاسطورة والخرافة ، بل انه ليتحول الى خرافة خالصة ، واقرأ ما يقوله القزوينى عنها :

« جزر واق الواق فى بحر الصين وتتصل بجزائر الزابج (جزر الهند الشرقية) والمسير اليها بالنجوم ، قالوا انهـا الف وستمائة جزيرة . وانما سميت بهذا الاسم لان بها شجرة لها ثمار على صور النساء ، معلقات بشعورهن ، فاذا نضجن يسمع منهن صوت واق واق . وهى بلاد كثيرة الذهب ، يتخذون

سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم من الذهب ويلبسون القمصان المنسوجة بالذهب . وتملكهم امرأة ، حدث من رآها على سرير عريانة وعلى رأسها تاج ، وعندها أربعة آلاف وصيفة عــراة أبكارا »

ويزيد ابن الوردى فى الاسطورة خيوطا فيقول :

« جزائر واق الواق ألف وسبعمائة جزيرة ، وملكتهم تسمى دمهرة ، حدث من رآها عريانة على سرير من الذهب وفوق رأسها تاج من الذهب ، وبين يديها اربعة آلاف وصيفة ابكارا حسانا على مذهب المجوس ، وهن عاريات ، وفى راس كل واحـــدة منهن مشط من عاج مكلل بالصدف ، وهن يختلفن فى اتخاذ الامشاط ، منهن من تتخذ اثنين وثلاثة واربعة الى عشرين .. وبهذه الجزيرة شجر يحمل ثمرا كالنساء ، بصور واجسام وعيون وايد وأرجل وشعور واثداء ، وهن حسان الوجــوه معلقات بشعورهن ، يخرجن من غلف كالجوارب الـــكبار ، فاذا أحســـن بالهواء والشمس يصحن : واق واق ، حتى تنقطع شعورهن ، فاذا انقطعت متن . ومن تجاوز هؤلاء وقع على نساء يخرجن من الاشجار اعظم منهن قدودا واطول منهن شعورا واكمل محاسن ، ولهن رائحة عطرة طيبة ، فاذا انقطعت شعورهن ووقعن من الشجرة عشن يوما أو بعض يوم ، وهن حينئذ يعاشرن الرجال . وأرضهن اطيب الاراضى ، واكثرها عطرا وطيبا ، وبها انهار أحلى ماء من العسل والسكر المذاب ، وليس بها حيوان الا الفيلة ، وربما بلغ ارتفاع الفيل فى هــذه الجزائر أحد عشر ذراعا »

واذا قابلنا بين ما كتبه القزوينى عن شجر واق الواق وماكتبه ابن الوردى ، رأينا كيف تطورت الخرافة من شجر له ثمــر

يشبه صورة النساء الى نساء حقيقيات يعشن يوما أو بعض يوم ،بل ان ابن الوردى يجعلهن يأنسن للرجال فيقبلن عليهم • والدمشقى هو الوحيد بين هؤلاء القصاصين الذى حاول ان يتبين الحقيقة من خلال هذه الخرافة ، اذ قال :

« واما جزائر واق الواق الداخلة فى المحيط فيوصل اليهامن بحر الصين . والواق شجر صينى شبيه بشجر الجوز ، ويحمل حملا كصورة الانسان ، فاذا نضجت الثمرة سمع السامع منها واق واق مرات ، ثم تسقط »

فهى ليست نساء معلقات بشعورهن كما يقول القــزوينى ولا نساء حقيقيات كما يقول ابن الوردى ، وانما هى ثمـــار حقيقية كثمار جوز الهند ، وربما كانت هى نفس ثمار هذا الجوز ، تحركها الريح ، فيخرج منها ما يشبه هذا الصوت : واق واق . وهذا التفسير الصحيح لم يلتفت اليه القصاصون ، فقد كانت بغيتهم القصص من حيث هو ، وبذلك ثبتوا الخرافة فى اذهان العامة وفى أدبنا الشعبى العربى ، فدارت فى الحكايات

وليست حكايات واق الواق وجزر النساء هى الحــكايات الخيالية أو الخرافية فقط عند مؤلفى العرب ومن رووا عنهم من البحارة ، فأكثر منها خيالا وخرافة ماروره عن أحيـــاء شاهدوها ببحر الهند فى جزيرة الحوت ، كما شاهدوها فى العيون والغدران وعلى شواطىء بعض البحيرات وهى أحياء صورتها بين الانس والحيوانات المائية . وتبلغ بهم الخرافة ان يزعموا انها قد تعاشر الانسان ، وأن منها نساء تزوجن فعلا بعض البشر ، وأنجبن منهم البنين والبنات • وعند الامم القديمة أســاطير كثيرة تدخل فى هذا الباب ، ويظهر ان العرب اخذوها ونموها ، وخاصة انهم رأوا على سطح المياه اسماكا تشبه الآدميين ، من

أنواع سبع البحر، اذ رأوا لها شوارب ورءوسا وعيونا، ورأوها تقف على قوائمها ، فظنوها أناسي واتسع بهم الخيال ، فجعلوا منها الجوارى الحسان

والدمشقى فى « نخبة الدهر » هو العالم الدقيق الذى عرف هذه الحيوانات معرفة حقيقية ، فهو كلما ذكرها أو عرض لها قال انها حيوانات مائية على صورة الانسان ، ومن وصفه لها قوله فى نوع منها :

« سمك كصورة الرجل ، فمه كتكوين فم القرد ، وليس له رجلان ، وله يدان صغيرتان ، وبدنه من نصفه الاسفل بدن سمكة بذنب مفروش ، يظهر بوجه الماء نصفه الاعلى ويتلفت براسه يمينا وشمالا ، وعيناه كبيرتان كعين البقر مستديرتان فى وجهه ، ثم يغطس على راسه فى الماء كالمنقلب سفلا من العلو »

ولكن من آمنوا بما آمن به الدمشقى قليلون ، أو قل ان الكثرة حاولت ان تخرج هذه الحقيقة الى باب الاسطورة حتى يتسلى بها الناس • ولم تصنع ذلك كتب العجائب وحدها ، فنحن نجد جغرافيى العرب ورحالتهم يحوكون حولها الاساطير فابن خرداذبة يروى فى كتابه المسالك والممالك ان راعيا كان يورد غنمه الى عين فى ناحية سمرقند ، فيرى بها سكان الماء فى صورة آدميين واضحين ، يقول :

« وكان هذا الراعى يضرب الوتر واليراع والمزمار ، وكان اهل العين يطفون على وجه الماء ويستمعون اليه ، فيتلذذون بصوت غنائه ، فبينما هو ذات يوم قد ضرب بالوترين ، ونام على راس العين ، اذ عمد له أهل العين جهارا على وجه الماء ، وقبضوه كرها

الى عندهم ، فلما تم عليه يوم وليلة ولم ينصرف الى أهله اغتموا له ، فأتوا تلك العين لاقتفاء الاثر ، فوجدوه وهو طاف على وجه الماء يسير ذاهل العينين ، يكرهونه على الزمر وضرب الوتر ، وأهله يتضرعون اليهم ويسألونهم تخليته ، فلم يجيبوهم الى سؤالهم · فبقوا على ذلك ثمانية أيام ، لا يتجرأ أحد منهم ان يدخل العين ، فيخلصه ، فلما أصبحوا بعد اليوم الثامن لم يروا الراعى ، ولا احدا منعه منهم ، وخفى عنهم أمره »

ويروى القزوينى أن بأرض الهند بحيرة كبيرة « ماؤها ينبع من أسفلها ، لا يأتيها شيء من الانهار ، وفى تلك البحيرة حيوانات على صورة الانسان ، اذا كان الليل خرج منها عدد كثير يلعبون على ساحل الماء ويرقصون ويصفقون باليدين ، ومنهم جوار حسناوات .. والناس فى الليلة القمراء يقعدون من البعـد وينظرون اليهم ، وكلما كان النظار اكثر كان الخارجون أكثر ، وربما جاءوا بالفواكه الكثيرة فأكلوها وتركوا ما فضل منها على الساحل »

ويزعم ابن الفقيه فى كتابه « مختصر البلدان » أن الاسكندرية « كانت تضيء بالليل والنهار ، فكانوا اذا غربت الشمس لم يخرج منهم احد من بيته ، ومن خرج اختطف ، وكان لهم راع يرعى الغنم على شاطىء البحر ، وكان يخرج من البحر شيء ، فيأخذ من غنمه ، فكمن له الراعى فى بعض المواضع حتى خرج ، فاذا جارية قد نفشت شعرها ، فتشبث بشعرها ومانعته عن نفسها ، ولكنه قوى عليها وذهب بها الى منزله ، فأنست به وبأهله »

ويقول ابو حامد الاندلسى الذى زار البلغار (التتار) على نهر الفولجا فى القرن السادس الهجرى بكتابه تحفة الاصحاب :

« حدثت ببلغار ان سمكة مثل الجبل العظيم صادوها من بحر الخزر فى بعض السنين ، ولما صادوها ثقبوا اذنها وجعلوا فيها حبالا ، ليجروها منها ، فانفتحت اذن السمكة ، وخرجت من داخلها جارية كالجوارى الآدمية ، بيضاء ، حمراء الخدين ، سوداء الشعر ، حسنة الصورة ، تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح . وقد خلق الله لها فى وسطها مثل جلد أبيض كالثوب الصفيق القوى ، من وسطها الى ركبتها يستر عورتها كأنه ثوب مشدود ، فأمسكوها حتى ماتت عندهم »

وعلى هذا النحو تتسع أسطورة بنات الماء ، فتشمل جميع البحار والبحيرات والعيون والآبار ، وهى دائما فى صور النساء الجميلات ذوات الشعر المسترسل ، وكثيرا مايقترن الحديث عنهن بأنهن ظهرن لبعض الناس ، فأوثقوهن ، حتى ألفنهم ، فاقترنوا بهن وتزوجوا منهن . وكان بينهن من تهرب الى البحر حتى بعد ان تلد الاولاد ، فان ذكريات حياتها القديمة لا تزال تعاودها ، فاذا وجدت فرصة عادت اليها مضحية بحياتها الجديدة على وجه الارض ، وبكل ما أوتيت فيها من نعمة الاولاد وغير الاولاد ، وكأن نداء خفيا لا يزال يدعوها أن ترجع الى وطنها البحرى ، وأن تهجر هذا الوطن البرى الجديد الى غير رجعة

وكلنا نعرف ما تمتاز به البحار والمحيطات من حيوانات كبيرة مثل البال (الحوت) والسلاحف والسرطان والاخطبوط ، وكثير منها حيوانات مفترسة ، وكم من معركة نشبت قديما بين البال وبين بعض السفن ، واذاعرفنا أن منه مايزن سبعين طنا ، وأن طوله قد يبلغ مائة ذراع وأكثر ، عرفنا مقدار ماكان

يلقيه من هول وفزع فى نفوس الملاحين والتجار .
وهو من الحيوانات الثديية ، وله أسنان مخيفة ويعيش على ابتلاع ما يصادفه فى البحار من اسماك واخطبوطات ، وكم له من معارك مع الاخيرة التى قد يبلغ طولها فى البحار العميقة ثلاثين قدما او تزيد . وقد عرف العرب الصلة بينه وبين العنبر ، فقالوا انه موجود بجوفه وانه يلفظه ، ومعروف انه ينشأ فى امعائه بسبب بعض الامراض التى تصيبه ،فيتكون هذا الحصى ، وقد يقذف به البال اثناء حياته ويوجد فى جوفه بعد مماته . وظن بعض الملاحين من العرب حين رأوه طافيا على البحار أو راسبا فى قيعانها انه نبات ينمو فيها ، وقصوا عنه الاقاصيص كما قصوا عن البال . وأقدم ما نقرأ عنه فى كتب الرحلات عندما جاء فى رحلة التاجر سليمان ــ التى سبق أن أشرنا اليها ــ اذ نراه يقول انه : « رأى سمكا مثل الشراع ربما رفع رأسه ، فتراه كالشىء العظيم ، وربما نفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة فاذا سكن البحر اجتمع السمك فحواه بذنبه ، ثم فتح فاه ، فيرى السمك فى جوفه يغيض كأنه يغيض فى بئر . والمراكب التى تكون فى البحر تخافه ، فهم يضربون بالليل بنواقيس مثل نواقيس النصارى مخافة أن يتكىء على المركب فيغرقه »

ويقول ابو زيد السيرافى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى عن العنبر والبال :

« أما العنبر وما يقع منه الى سواحل بحر الهند فهو شىء تقذفه الامواج ، على أنه لا يعرف مخرجه ، على أن أجوده ما وقع الى بربرا (الصومال) أو حدود بلاد الزنج (موزمبيق) وهو البيض المدور الازرق . ولاهل هذه النواحى

ابل يركبونها فى ليالى القمر ويسيرون بها على سواحلهم ، قد ريضت وعرفت طلب العنبر على الساحل ، فاذا رآه البعير برك بصاحبه فأخذه . ومنه مايوجد فوق البحر ويزن وزنا كثيرا ، وربما كان كهيئة الثور ودونه ، فاذا رآه الحوت المعروف بالبال ابتلعه ، فاذا حصل فى جوفه قتله ، وطفا الحوت فوق الماء . وله قوم يراعونه فى قوارب قد عرفوا الاوقات التى توجد فيها هذه الحيتان المبتلعة العنبر ، فاذا عاينوا منها شيئا اجتذبوه الى الارض بكلاليب من حديد فيها حبال متينة تنشب فى ظهر الحوت ، فيشقون عنه ، ويخرجون العنبر منه .. وهذا الحوت المعروف بالبال ربما عمل من فقار ظهره كراسى يقعد عليها الرجل ويتمكن . وذكروا أن بقرية بالقرب من سيراف (ميناء على خليج فارس) بيوتا عادية لطافا ، سقوفها من أضلاع هذا الحوت . وسمعت من يقول : انه وقع فى قديم الايام الى قرب سيراف منه واحدة ، فقصد للنظر اليها ، فوجد قوما يصعدون الى ظهرها بسلم لطيف ، والصيادون اذا ظفروا بها طرحوها فى الشمس وقطعوا لحمها ، وحفروا له حفرا يجتمع فيها الودك (الدهن) ويغرف الودك من عينيها بالحرارة اذا اذابتها الشمس ، ويجمع ، فيباع على أرباب المراكب ، ويخلط بأخلاط لهم ، تمسح بها مراكب البحر ، ويسد ما انفتق من خرزها . »

□

وتدور حكايات البال فى كتب الرحالة واختها كتب العجائب ، وقد يجعلونه خمسمائة ذراع طولا وعشرين او خمسين عرضا ، ويجعلون له جناحا كالجبل العظيم . وكما يتحدثون عن البال يتحدثون عن السلاحف البحرية وان منها ماتبلغ استدارته أربعين ذراعا ، ويبيض ألف بيضة . ويصف ابن الوردى

الاخطبوط فيقول :

« سمكة من راسها الى صدرها مثل الترس ، ولها عيون كثيرة تنظر بها ، وباقي بدنها طويل مثل الحية فى مقدار ثلاثين ذراعا ولها أرجل كثيرة ، ومن صدرها الى ذنبهـــا مثل أسنان المنشار ، كل سنة منها فى طول شبر ، كالحديد فى الصلابة او الفولاذ فى القطع ، ولا تتصل بشيء من المراكب الا شقته ، ولا تضرب شيئا الا قطعته نصفين ، ولا تنطوى على شيء الا أهلكته » .

ويتحدثون عن سرطانات البحر فيقولون انها كالترس الصغير ، ولا يلبثون أن يقولوا انها اذا صارت فى البر على الشـــواطيء تحولت حجرا حالا • ولعلهم رأوا بعض أصـــدافها التى كانت تعيش فيها ، فظنوا أنها هى نفسها . وتلعب المبالغة دورها فاذا من الملاحين من يزعم انه كان مجتازا بناحية من بحر الزابج وأنه سلك في بعض الايام بين قرنين ظاهرين فى البحر ، قدر أنهما جبلان فى الماء ، ولما جاوزهما غاصا فى البحر ، فعــرف انهما ظفرا سرطان. ويزعم بحار آخرانه قرب من البر فى بلاد الذهب ببحر لامرى ، ورمى بالانجر الكبير (الهلب) فى الماء ، فلم يقف به المركب ومضى على حاله ، فقال للغائص أنزل واعرف الخبر ، ولما نزل رأى عجبا، اذ وجد الانجر بين ظفرى سرطان يتلاعب به ويجر المركب ، واعلم الربان الخبر ، فصاح الناس وطرحوا فى المــاء الحجارة حتى ترك السرطان الانجر ، وكان وزنه نحــو الف وخمسمائة رطل . ووراء السرطان والاخطبوطات والسلاحف والبال أنواع كثيرة من السمك يتحدثون عنها ، وخاصة السمك الطيار الذى ينطلق فى الهواء الى ارتفاع كبـــــير • وكان

من أشد مايلفت نظرهم السمك ذو الوميض الفسفورى ، وكثيرا ما قصوا عنه الحكايات ، حتى ليزعم بعض البحارة أن الامواج فى جوانب من بحر الهند تضطرب وتتكسر ليلا ، فتنقدح منها النار ، حتى يخيل الى الملاحين انهم يسيرون فى بحر من النار المتوهجة

ويظهر انهم رأوا فى بحر الهند وغيره من البحار ضروبا من الحيات الكبيرة ، وقد ربطوا بينها وبين الاعاصير الدائرة فى نطاق السحب الكثيفة ، وكونوا من ذلك أسطورة التنين الذى يسكن فى السحب ، ويسير من أفق الى أفق ، فاذا أراد الله بسفينة شرا سقط عليها وابتلعها ابتلاعا ، وقد يسقط فى البر فيبتلع الخيل والابل والبقر والناس ويهلكهم ، ويعرفنا به القزوينى فى كتابه « عجائب المخلوقات » على هذا النحو :

« ألتنين يكون أول امره حية متمردة ، تأكل من دواب البر ما ترى ، فاذا عظم فسادها بعث الله تعالى ملكا يحتملها ويلقيها فى البحر ، فتفعل بدواب البحر ما كانت تفعله بدواب البر ، ويعظم جسمها ، فيبعث الله تعالى ملكا يحملها ويلقيها الى يأجوج ومأجوج . وروى بعضهم انه راى تنينا سقط ، فوجد طوله فرسخين ، ولونه مثل لون النمر ، وله جناحان عظيمان على هيئة جناح السمك ، وراس مثل التل العظيم كراس الانسان ، واذنان طويلتان ، وعينان مدورتان كبيرتان جدا ، ويتشعب من عنقه ستة اعناق طوال ، كل عنق نحو عشرين ذراعا ، على كل عنق راس كراس الحية »

وتتداخل فى هذا الوصف للتنين صورة الاخطبوط كما تتداخل صورة الاعاصير العاتية التى تنشأ من التقاء ريحين مختلفتى الاتجاه ، فتدور فى شكل عمود كبير ، يعصف

بكل ما يلقاه ، فاذا لقى مركبا اغرقها ، وقد يمر بالارض فيحدث كثيرا من الخسائر . ومهما يكن فقد نشأت أسطورة التنين بين البحارة ، واكثروا حوله من القصص المخيفة ، حتى جعلوه حية تنقض انقضاضا سريعا على كل ما يصادفها ، وتمحوه من الوجود محوا . وحاول الدمشقى على عادته ان يرفض هذه الاسطورة فقال :

« كثيرا ما يظهر بالبحر الاسود التنين الذى يزعم من لا علم عنده أنه حيوان حى وانه تنقله الملائكة من البحر الى جهنم عند عتوه وطغيانه على دواب البحر . والتنين يوجد فى البحر الرومى وبحر الخزر وبحرورنك وسواحل المحيط بالاندلس » وهو يوجد أيضا فى بحر الهند ومايتصل به من المحيط الهادى .

فالدمشقى لا يؤمن بأن التنين حيوان حى ، وقد وقف موقفه ياقوت فى « معجم البلدان » فكذب ما يقال عنه ، ولكن رواة العجائب وبعض البحارة وجدوا فيه مادة خصبة للخيال والقصص ، وتبعتهم العامة تروى حكاياتهم وقصصهم ، وتزيد فيها زيادات مختلفة ، حتى ليزعم بعض الرواة او القصاصين ان منه ما يتكلم ، ومنه ما يبتلع الفيل وتسمع قعقعة عظامه فى بطنه من بعد بعيد

▭

ولا تقف عجائب البحر عند حيواناته المائية ، فللطير فصول فى القصة ، واذا كان التنين هو أسطورة الماء والسحاب فان طائر الرخ هو اسطورة الهواء ، وهو طائر هائل ، يزعم البحارة انه يظهر فى شكل غمامة سوداء ، حين يرتفع عن الافق ، أما حين يهبط على البحر ، فهو جبل ضخم او حصن مشيد ، وحين يطير يسمع من ريشه صوت كصوت الاشجار عند

هبوب الريح ، وهو لا يصيد الا فيلا او دابة كبيرة او تنينا . ويذكر الدمشقى انه يوجد فى غربى بحر الهند ، اذ يرى هناك طائرا فى الجو الاعلى ، ويسقط بعض ريشه فى جزيرة ملغشقر ، فيتخذونه اوعية للماء . وعرض قصبة الريشة منه اكثر من شبر ونصف وطولها نحو القامة . أما ابن الوردى فيبالغ ويزيد فى الاسطورة خيوطا ، فيقول :

« الرخ طائر عظيم غريب مهول الهيئة ، حتى قيل أن طول جناح الواحد نحو عشرة آلاف باع . حكى عن بعض التجار الذين سافروا الى الصين انه احضر معه قصبة ريش من جناح فرخ الرخ وهو فى البيضة ، لم يخرج بعد منها الى الوجود ، فكانت تلك القصبة تسع قربة ماء ، وكان الناس يتعجبون لذلك »

□

وكان طبيعيا ان يتحول الحديث عن عجائب بحر الهند وغيره من البحار على السنة الملاحين والتجار والرحالة من العرب الى حكايات واقاصيص ، يروونها بعد عودتهم من الجزر والسواحل النائية ، يصفون فيها ماشاهدوه من الكائنات البحرية والبرية ، والسامعون من حولهم يستزيدونهم ويستثيرونهم ، فيمعنون فى القصص ، وقد يمعنون فى الخيال ويثبون وثبا بما يقصونه عن السكان والحيوانات والاسماك والطيور الى مراقى الاساطير . وكان بين الملاحين والتجار والرحالة ــ كما بين الناس جميعا ــ من يولعون بالمبالغة والتهويل ، فاذا تحدثوا او قصوا تجاوزوا المعقول الى التهريف والخرافة ، ونتج عن ذلك تراث قصصى بديع فى ادبنا العربى الفصيح والشعبى
وتتفوق كتب العجائب على كتب الرحلات فى وفرة هذه المادة

القصصية ، لذلك سنبدأ بها في سرد ما اخترناه من طرائفها ، حتى اذا استوفينا ذلك المنا بكتب الرحلات ، ونستهل حديثنا بعرض ما احتواه كتاب « عجائب الهند بره وبحره وجزائره » لبزرك بن شهريار الناخداه ، ومعنى كلمة « الناخداه » ربان السفينة ، وكان يعيش في القرن الرابع للهجرة . وهو لا يروى فى الكتاب عن نفسه ، وانما يروى عن غيره من الربابنة والملاحين الذين لججوا فى المحيطين الهندى والهادى ، وشاهدوا غرائب الاحياء والحيوانات المائية والبرية . وقد زيدت على الكتاب حكايات على مر العصور ، وكأن القصاص أعجبوا بما فيه من مادة قصصية ، فزادوا عليها ماسمعوه أو تخيلوه . وبذلك أصبح هذا الكتاب أشبه بكتاب الف ليلة وليلة ، الذى اضافت اليه العصور المتعاقبة قصصا جديدة دخلت على قصصه القديمة ، فزادتها روعة وجمالا

ولا تستند الحكاية عند بزرك بن شهريار على الحقيقة الواقعة، بل انها فى أكثر الاحيان تتحول الى أسطورة خالصة من صنع الخيال ، وهذا مما يضاعف قيمتها القصصية ، اذ تتحول من باب الواقع الذى لايتجاوز الخبر الى باب القصص الخيالى الذى يبالغ الى حد الخرافة

من كتاب عجائب الهند

أعصار بالقرب من جزيرة النساء

. سافر رجل فى مركب عظيم ومعه خلق من أخـلاط التجار من كل بلد ، وهم يسيرون فى بحر مـــلايو ، وقد قربوا من أطراف أرض الصين وابصروا بعض جبـالها ، فلم يشـــعروا الا وريح قد خرجت عليهم من الجهة التى يقصدونها ، فلم يسعهم الا الانصراف معها حيث توجهت، وركبهم من هول البحر مالا طاقة لهم به ، ومرت بهم الريح الى سمت سهيل (نجم) . ومن اضطر فى ذلك البحر الى أن يصير سهيل على قمة رأسه فقـــد دخل بحرا لا رجعة له منه ، وتنكس فى لجة هابطة الى الجنوب تصوبه الى تلك الجهة ، فلا يستطيع الرجوع بريح عاصف ولا غيره ، وهو فى لجج البحار المحيطة . فلما رأوا أمرهم يؤدى الى الدخول تحت سهيل ، ودخل عليهم الليـــل ، وأظلم وادلهم ، وحال بخار البحر ودجنته ونداه وزخره (ارتفاع أمواجه)بينهم وبين النجاة،وهم يجرون فى قار وضباب طول ليلهم،وأصبحوا فلم يشعروا بالصباح لشدة ظلمة ماهم فيه ، واتصال قار البحر مع ضباب الجو وغلظ الريح وكدورته ، وهم فى قبضة الهلاك ، قد حكمت فيهم الريح العاصفة ، والبحار الزاخرة ، والامواج الهائلة ، ومركبهم يئط (يصوت) ويئن ويتقعقـــع ، توادعوا (ودع بعضهم بعضا) وصلى كل منهم الى جهة معبوده ، لانهم

كانوا شيعا من أهل الصين والهند والعجم والجزائر،واستسلموا للموت ، وجروا هكذا يومين وليلتين لا يفرقون فيهما بين الليل والنهار • فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل ، رأوا بين أيديهم نارا عظيمة (هى الوميض الفسفورى ظنـــوه نارا) قد أضاء أفقها فخافوا خوفا شديدا ، وفزعوا الى ربانهم ، وقالوا : ياربان ! اما ترى هذه النار الهائلة التى مـــلأت الآفاق ونحن نجرى الى سمتها ، والغرق أحب الينا من الحريق،فبحق معبودك الا قلبت بنا المركب فى هذه اللجة والظلمة ، لايرى أحد منا الآخر ، ولايدرى ماكانت ميتته ، ولا يتجرع لوعة صاحبه،وانت فى حل مما يجرى علينا ، فقد متنا فى هذه الايام والليالى ألف ألف ميتة ، فميتة واحدة أروح ، فقال لهم : اعلموا انه قديجرى على المسافرين والتجار أهوال ، هذا أسهلها وأرحمها ، ونحن معشر الربابنة علينا العهود والمواثيق الا نعرض سفينة الى العطب وهى باقية لم يجر عليها قدر ، ونحن معشر ربابنة السفن لانقلع بها الا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها ، فنعيش بسلامتها ونموت بعطبها، فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذى يصرفهما كيف يشاء • فلما يئسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعويل ، وندب كل منهم شجوه . وصار الربان اذا أمر مناديه أن ينادى رجاله بجذب حبل أو ارخائه ، ليصلح شأن المركب ، لاتسمع الرجال ذلك من دوى البحر وحس تلاطم الامواج وهدير الرياح فى القلوع والشرع والحبال وضجيج الخلائق • فأشرف المركب على التلف . وكان فى المركب شيخ مسلم من أهل قادس من الاندلس ، قد طلع الى المركب فى ازدحام النـاس عند طلوعهم ليلة السـفر ، ولم يشعر به ربان المركب ، وكان فى زاوية منها مهجورة ، وهو مختف فيها خوفا أن يعلم به الربان فيؤنبه

ويوبخه ، فلما راى القوم وما نزل بالنـــاس وما هم عليـــه من الاخطار بأنفسهم ومركبهم ، وانهم قد اصبحوا عونا مع اهوال البحر على أنفسهم ، مسرعين لهلاكهم ، رأى أن يخرج اليهم ، فخرج اليهم ، وقال لهم : ما شأنكم ، هل انخـــرق المركب ؟ قالوا : لا ، قال : فهل انكسر السكان (الدفة) ؟ قالوا : لا ، قال فهل ركبكم البحر ؟ قالوا : لا ، قال : فما شأنكم ؟ قالوا : كأنك لست معنا فى المركب ، اما تنظر هول هذا البحر وأمواجه وظلمة الهواء الذى لم نر معه نهارا ولا شمسا ولا قمـــرا ولا نجوما نهتدى بها ، وقد دخلنا تحت سهيل ، وحكمت البحار والرياح فينا ؟ واشد ما علينا هذه النار التى نحن نجرى اليها ، وقد ملأت الافق ، والغرق اهون علينا من الحريق ، وقد سألنا الربان ان يقلب المركب بنا فى البحر والظلمة ، لا يرى واحد منا صاحبه ، ونموت غرقا ولانموت حرقا،يرى بعضنا بعضا،ونسمع ماتفعل النار فيه ، فقال : اوصلونى الى الربان ، فأطلعوه اليه ، فسلم عليه بالهندية ، فرد عليه وتعجب منه ونظر اليه،وقال له: من أنت أمن التجار أم من أتباعهم فلا نعرفك فى رجال المركب ؟ قال له : ما أنا من التجار ولا من أتباعهم ، قال : فمن أطلعك ؟ وما بضاعتك ؟ قال له : أما من أطلعنى فانى طلعت فى جمهور الناس ليلة الاسراء (السفر) واويت الى مكان فى المركب ، قال الربان : من اين تأكل ومن اين تشرب ؟ قال : كان بانيـــان (نوتى) المركب يضع كل يوم قريبا منى صفحة أرز بسمن لملائكة المركب وماء ، فكنت اتقوت بذلك ، وأما بضاعتى فقربة عجوة . فتعجب الربان منه ، واشتغل الناس بسماع حديثـه عما كانوا فيه من الضجيج ، وأصلح الرجال أدوات المركب ، ومشى فيهم مناد بتدبير الاقلاع ، واهتدى المركب،فقال الشيخ:

ياربان ! ما لهؤلاء القوم كانوا يبكون ويعولون ؟ قال له : أما ترى ما نزل بهم من هول البحر والرياح والظلمة ؟ وأشد من ذلك ما نحن مدفوعون اليه من هذه النار التى ملأت الافق ، والله لقد ركبت هذا البحر وأنا دون البلوغ مع أبى ، وكان قد أذهب عمره فى ركوبه ، وهأنا اليوم قد رميت ثمانين سنة ورائى فما سمعت بمن سلك هذا المكان ولا أخبر عنه ، فقال : يا ربان ! لا بأس عليك ولا خوف ، نجوتم بقدرة الله ، هذه جزيرة يحيط بها ويكنفها جبال ، تتكسر عليها أمواج البحار ، فتظن فى الليل نارا هائلة يخافها الجاهل ، فاذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد ماء . فتباشر الناس وسكنوا الى قول الشيخ ، وتناولوا طعامهم وشرابهم ؛ وذهب عنهم ما كانوا فيه من الغم والخوف وتناقص الريح ، وصار البحر رهوا (سهلا) والريح رخوا (لينا) . وقدموا الجزيرة مع شروق الشمس وأصحت السماء ، وتخيروا مرسى كنينا (مستترا) ووردوا الجزيرة بجملتهم ، وكانوا يطرحون أرواحهم على الرمال ويتمرغون على الارض شوقا اليها . ولم يبق منهم فى المركب أحد ، فبينما هم كذلك اذ ورد عليهم نسوان من داخل الجزيرة لا يحصى عددهم الا الله تعالى ، وما لبثن أن حملنهم الى الجبال ، وماتوا جميعا ولم يبق منهم سوى الشيخ الاندلسى ، وكانت تزوره امرأة فى الليل ، فاذا أصبح اكنته (سترته) فى موضع قريب من البحر ، وجاءت له بشىء تقوته به ، فلم يزل كذلك الى أن انقلب الريح من تلك الجزيرة الى الجهة التى خرج منها المركب من الهند ، فأخذ الشيخ قارب المركب الذى يسمى الفلو ، ووضع فيه بالليل ماء وزادا . فلما فطنت المرأة الى نيته أخذت بيده وجاءت به الى موضع ، فنبشت التراب بيديها عن معدن تبر ، فنقلت

هى وهو منه ما زخرا به القارب ، وأخذها معه ، ووصل الى البلد التى خرج منها المركب ، فأخبر أهلها الخبـــر • وأقامت المرأة معه الى أن تفصحت وأسلمت ورزق منها الاولاد ، وسألها عن تلك النساء فى الجزيرة وانفرادهن دون الرجال ، فقـــالت له : نحن أهل بلاد واسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة ،وكل من بأقاليمنا ومدننا من الملوك والرعايا يعبدون هذه النـــــار التى تظهر لهم ليلا فى البحر ويسمون جزيرتهم بيت الشمس لان الشمس تشرق من طرفها الشرقى وتغرب فى جانبها الغربى، فيظنون أنها تبيت فى هذه الجزيرة ، فاذا أصـــبحوا وأشرقت الشمس من جانبهـــا الشرقى خفيت نار البحـــر وارتفعت الشمس ، فيقولون هى هى ، واذا غربت فى جانبهـــا الغربى وأمسوا ، ظهرت نار البحر ، فيقولون هى هى ، فيعبدونهـــا ويقصدونها بصلواتهم وسجودهم من سائر الجهات • ثم ان الله سبحانه وتعالى جعل المرأة فى بلدنا تلد أول بطن ذكرا وثانى بطن أنثيين وكذلك باقى عمرها ، فما أقل الرجـــال فى بلدنا وأكثر النسوان • فلما كثرن وأردن أن يغلبن على الرجال صنعوا لهن مراكب وحملوا منهن آلافا وطرحوهن فى هذه الجزيرة ، وقالوا للشمس : يا ربنا انت احق بما خلقت ، وليس لنا بهن طاقة ، وما سمعنا ولا مر بنا أحد من الناس غيركم ولايطرق بلادنا أحد على مر الازمنة ، وان بلادنا فى البحر الاعظم تحت سهيل ، ولا أحد يجىء الينا فيرجع ، واذا جاءنا أحد لا يفارق الساحل والبر خوفا من أن تشربه البحار ، وذلك تقدير العزيز العليم

جزائر الحوت

روى بعض البحارة هذه الاقصوصة العجيبة ، وهى من أقاصيص بنات الماء اللائى كانوا يزعمون توالدها بين الانسان وبعض الكائنات البحرية ! قال :

« سرنا فى مركب كبير نطلب جزيرة فنصور (لعلها سومطرة) فأسقطنا الريح الى جون (خليج) أقمنا فيه ثلاثة وثلاثين يوما فى ركود لا ريح فيه ... والتيار يمضى بالمركب ونحن نندفع معه الى أن أدخلنا بين جزائر كثيرة ، فأرسينا المركب الى واحدة منها ، على ساحلها نسوة يعمن ويسبحن ويلعبن ، فأنسنا بهن ، ولما قربنا منهن هربن فى الجزيرة ، وجاءنا رجال ونساء عقلاء عارفون ، فلم ندر لغتهم ، فأشرنا اليهم وأشاروا الينا ، ففهمنا عنهم وفهموا عنا ، فأشرنا اليهم أعندكم طعام تبيعونه لنا ، قالوا : نعم ، فجاءونا بالارز الكثير والدجاج والغنم والعسل والسمن والادم وأشياء كثيرة من المأكولات والفواكه ، فاشترينا منهم بالحديد والنحاس والكحل والخرز والثياب ، وأشرنا اليهم أعندكم بضائع نشتريها منكم فقالوا ما عندنا الا الرقيق ، فقلنا لهم : مبارك احضروه ، فأتونا برقيق ما رأينا أحسن منهن ضاحكات السن ، يغنين ويلعبن ويتهارشن ويتداعبن بأبدان عبلة (بضة) وأجسام كأنها الزبد نعومة ، ويكدن يطرن خفة ونشاطا ، الا ان رءوسهن صغار وتحت خصر كل منهن جناحين كجناحى السلحفاة . فقلنا

لهن ماهذا ، فتضاحكن وقلن أهل هذه الجزائر كلهم بهـــذه الصورة ، وأشاروا الى السماء أى أن الله تعالى خلقهم كذلك ، فأغضينا عما رأينا ، وقلنا هذه فرصة ، واشترى كل منا بجيد ما عنده من الامتعة ، وأفرغنا المركب من البضايع وشحنـــاه رقيقا وزادا ، وكنا كلما اشترينا رقيقا جاءونا بمن هن أحسن منه ، فملأنا المركب بخلق ما رأى الراءون أجمل منهن ولا أحسن ولو تم لنا ذلك لأثرينا الى عقب العقب • ولما حان السفر وعصفت لنا الرياح من صوب الجزائر الى جهة بلادنا شيعونا وقالـــوا لنا تعودون لنا فى قابل (العام المقبل) ان شاء الله وطمـــع ربابنا فى العودة بمركبه وحده بغير تجار ، فكان يقف رجاله طوال الليل على النجوم ، وينبههم على منازل الكواكب وجهات الآفاق وطريق الاقلاع فى المجىء والعودة • وفرحنا غاية الفرح والسرور ، وسرنا من الجزيرة بريح عاصف من أول النهار • فلما غابت الجزيرة بكى بعض الرقيق الذى معنـــا ، فضاقت صدورنا لبكائهن ، ثم قمن بعضهن لبعض وقلن فيم البـكاء ؟ قمن بنا نرقص ونغنى ونتضاحك ، فأعجبنا ذلك منهـــن ، واشتغل كل واحد منا بشأنه ، وأصابوا منا غفلة واذا هـــن يتطايرن والله فى البحر تطاير الجراد ، والمركب يجرى كالبرق الخاطف فى موج كالجبال ، فما أشرفنا عليهن حتى تجاوزتهن المركب بنحو ميل ، ونحن نسمعهن يغنين ويصفقن ويتضاحكن فعلمنا أنهن ما فعلن بنفوسهن ذلك الا بقدرة لهن على احتمال هول ذلك البحر ، ولم يمكنا الرجوع اليهن ويئسنا منهـــن وكان الربان قد وضع احداهن فى مقصورة ، فلما مضـــين نزل اليها ، فوجدها تريد أن تثقب الجدار ، وتطرح نفسهـــا فى البحر ، فقيدها • وسرنا الى أن دخلنا بلاد الهند ، ومعنـــا

بعض العروض فبعناها وتقاسمنا أثمانها ، ولم يتجـــاوز نصيب كل منا عشر رأس ماله • فلما سمع الناس بخبرنا ، جاءنا رجل من أهل هذه الجزائر ، جزائر الحوت بعينهـــا ، قد أخذ صغيرا وبقي في الهند الى أن هرم ، فقال لنا : أنتم وقعتم الى جزائر تسمى جزائر الحوت ، وهي بلدى ، ونحن قوم توالد رجالنا ونساؤنا مع حيوانات البحر ، فنتج منهم هؤلاء السكان منذ قديم الدهور •• وأما المرأة التي بقيت مع الربان فاستولدها ستة أولاد وأقامت عنده ثماني عشرة سنة مقيدة ، وكان هذا الشيخ الجزائري قد قال له : لا تحل عنها القيد ، فتطرح نفسها في البحر وتمضي ، فلا تراها أبدا ، فاننا لا صبر لنا عن الماء ، ففعل بها ذلك • ولما كبر أولاده كانوا يلومونه في تقييدها بغير علم ، فلما مات لم يكن لهم بعد موته عمل الا أن يطلقوها من القيد رحمة لها وبرا بها وحنوا عليها • فخرجت كأنها الفرس السابق ، وانطلقوا خلفها ، فلم يدركوها • وقال لها بعض من قرب اليها : أتمضين وتخلين أولادك وبنـاتك ؟ فقالت : انشرتو ، ومعناه : ماذا أعمل لهم ؟ وطرحت نفسهـا في البحر ، وغاصت فيه كأقوى حوت يكون • سبحان الخالق البارىء المصور ، تبارك الله أحسن الخالقين »

الرخ يطير بالناس

ذكر بعض شيوخ الهند أن مركبا كسر له ، فسلم نفر من اهله فى قارب ، ووقعوا الى جزيرة بقرب الهند ، فبقوا بها مدة الى ان مات أكثرهم وبقى منهم سبعة ، وكانوا فى مدة مقامهم قد راوا طيرا عظيما يقع فى الجزيرة ويرعى ، فاذا كان وقت العصر طار ، فلا يدرون الى اين يمضى ، فأجمع رايهم على أن يتعلق واحد منهم برجليه ، ليحمله ، فاذا حمله وطار به صنعوا من بعده صنيعه . وصمموا على ذلك لما ضـاقت صدورهم وعلموا انه لابد من الموت . وتعلقت نفوسهم بالطائر ، وقالوا ان طرحهم بقرب بلد فهو الذى يتمنونه ، وان قتلهم فهو الذى يتوقعونه . فطرح واحد منهم بنفسه بين الشجر ، وجاء الطائر على الرسم ، فرعى ، فلما حان وقت انصرافه تلطف الرجل فى الدنو منه ، واخذ برجليه وشد نفسه مع ساقيه بقشور الشجر ، فطار به فى الهواء،وهومتعلقبفخذيه ، فعبر بحرا وطرحه وقت غروب الشمس على جبل ، فحـل وثاقه وسقط كالميت مما تعب ، ومما مر به ، وعاين من الاهوال، فمكث لا يتحرك الى أن طلعت الشمس من غد . فقام ينظر فاذا راعى غنم ، فسأله بالهندية عن الموضع ، فذكر له قرية من قرى الهند ، وسقاه لبنا ، فتحامل على نفسه ؛ حتى دخـل القرية . ولم يزل الطائر ينقل القوم من تلك الجزيرة على تلك الصورة حتى اجتمعوا بأسرهم فى القرية ، ثم نفذوا الى بعض

بلاد الهند التى توجد فيها المراكب وعادوا الى بلدهم . وتبين لهم حين تحدثوا عن كسر مركبهم والجزيرة التى وقعوا بها أن مقدار مسافة ما حملهم الطائر الى القرية الهندية يزيـــد على مائتى فرسخ

ومن عجائب الرخ ما يرويه الربابنة عن ريشه ، وتعظم المبالغة فى وصفه الى حد أن يقول بعض المـلاحين انه راى ريشة من ريشه تسع خمسا وعشرين قربة من الماء !. ويزعمون أنه يأخذ الوحش بمنقاره أو بمخالبه ويحمله فى الهواء ، ثم يرمى به ليموت وينكسر ثم يسقط عليه فيأكله ، ومع ذلك يقولون انه اذا راى الانسان هرب منه ، وفر من صـــورته لبشاعة خلقته !

لحم الرخ يعيد الشباب

مما أجمع عليه جماعة من البحريين ، ان بعض المراكب الخارجة الى الصين أصيب فى اللج،وسلم منه ستة أنفس على شراع ، ومكثوا اياما فى البحر ، ثم وقعوا الى جزيرة ، وأقاموا بها شهورا ، حتى كادت نفوسهم تتلف من ضيق الصدر ، وبينما هم فى بعض الايام يتحدثون على ساحل البحر اذ سقط طائر ، قدر الثور أو نحوه ، فقالوا : قد ضاقت صدورنا من الحياة ، فقوموا بنا نجتمع على هـــذا الطير فنصرعه ونذبحه ونشويه ونأكل من لحمه ، فاما أن يقتلنا بمخالبه ومنقـــاره فنستريح مما نحن فيه ، واما ان نظفر به فنأكله ، فقاموا اليه ، وتعلق بعضهم برجليه وبعضهم بعنقه ، واخذ بعضهم يضرب ساقه بالخشب ، وجاهدوا حتى صرعوه . فعمـــدوا الى حجارة ، فضربوا بعضـــها ببعض حتى تكسرت وصـــارت كالسكاكين ، وذبحوه ، ونتفوا ريشه ، وأوقدوا نار عظيمة ،

وطرحوه فيها ، وقلبوه ، حتى استوى لحمه . ثم جلسوا فاكلوا منه حتى شبعوا ، واكلوا منه بالعشى . فلما كان اليوم الثالث واصبحوا قاموا الى البحر ، ليتوضئوا للصلاة ، فجعلوا لا يمسون شيئا من ابدانهم الا تساقط الشعر عنه حتى لم يبق على أحد منهم شعرة واحدة فى سائر جسده ، وصاروا مردا جردا . وكان فيهم ثلاثة شيوخ فتحيروا ، وقالوا : كان لحمه مسموما ، وقد تساقط الشعر ، واليوم نتلف ونهلك كلنا ونستريح مما نحن فيه . وأمسوا وهم فى عافية ، وأصبحوا كذلك . فلما مضى عليهم خمسة أيام عاد شعرهم الى الظهور وظل يتكامل بعد ذلك ، وهو فى نهاية السواد والبريق ، ولم يحدث أن ابيض منه شىء بعد ذلك . فمكثوا شهرا أو نحوه حتى اجتاز بهم مركب ، فلوحوا له فجاء اليهم ، وحملهم وسلموا ، وتفرقوا فى البلاد ، وعاشوا بقية اعمارهم وشعرهم أسود غاية السواد ، لا يشيخون ولا يهرمون

بال (حوت) ضخم

وقعت فى سنة ثلثمائة سمكة ببعض سواحل عمان ، وجزر (انحسر) الماء عنها ، فصيدت ، فسحبت الى البلد ، فركب أحمد بن هلال الامير والعسكر معه ، وحضر الناس للنظر اليها وكان الفارس يدخل من فكها ، ويخرج من الجانب الآخر ، وهو راكب لعظمها ، فانها ذرعت ، فكان طولها يزيد على مائتى ذراع وارتفاعها نحو خمسين ذراعا . وبيع من دهن عينيها ، على ما قيل ، بعشرات الآلاف من الدراهم

ورروى بعض العراقيين أنه رأى باليمن عند بعض اخوانه رأس سمكة قد ذهب لحمه ، وبقى عظمه صحيحا ، فدخل الرجل من احدى حدقتيها وخرج من الجانب الآخر ، وهو

قائم من غير أن ينحنى · وهذا السمك كثير ببحر الـــزنج (غربى المحيط الهندى) وهو بكسر المراكب مولع ، فاذا تعرض للمركب ضربوا الطبول وصاحوا ، وربما نفخ الماء ، فيرتفع مثل المنار ، وربما لعب بذنبه فيرى من بعد مثل شراع المراكب

ملازمة البال للمراكب

سئل بعض البحارة عن ملازمة البال للمراكب فى السواحـ المعمورة والبحار المهجورة ، فقال : « ذلك يختلف باختــلا البال ، فمنه ما يحاذى المراكب ليسقط منها شيء فيلتقمـ وربما عثر قبل ذلك على مركب قد عطبت فنال منها ، فصـ اذا رأى مركبا حاذاها طمعا أن يحدث منها ماحدث من غيرها. ومنه ما يرى المركب فيتعجب من شكلها ، ويظنها حيوانا بعضه فى الماء وبعضه فى الهواء ، فيمرح معها ويجاريها عشقا لهـــا وتأنسابها ، ويظل كذلك مدة حدة قوته ونشاطه الى أن يعيا فيفارق المركب · ومنه ما يجارى المركب على سبيل المنافسة والمعاندة ، فاذا أحس بالاعياء والتقصير ورأى المركب تتقــدم رجع اليها فحمل عليها حملة واحدة ، فان سلمت والا فنسأل الله العفو . ومنه الضارى المتدرب على تحطيم المراكب ، يحمل على المركب حملات حتى يقلبها · ومنه ما اذا ركب المركب فر منها وهرب خوفا على نفسه . فأحواله وأخــلاقه تختلف باختلاف أنواعه »

بال فى البحر الاحمر

حكى بعض البحريين أنه خرج فى مركب من عدن الى جدة وأن سمكة نطحت المركب بحذاء زيلع نطحة منكرة لم يشـــك من فى المركب أنها كسرته · وانحدر البانانية (النوتية) الى قاع المركب ، فلم يجدوا فيها أثرا للحادث . فعجبوا من ذلك

ومن أن هذه النطحة العظيمة لم تؤثر فى مركبهم ٠فلماوصلوا الى جدة أخلوا المركب ودفعوه الى البر ، فوجدوا رأس السمكة فى جوفه قد سجن به ، وسد الموضع الذى ثقبه حتى لا يرى فيه خلل ٠ واذا هى نطحت المركب ، ولم يمكنها الخـــلاص ، فانقطعت من حلقها وبقى راسها فى موضعه

سلاحف البحر

ذكر بعض شيوخ المراكب أن مركبا خرج من بلاد الهند الى بعض النواحى ، فاندفع من يد صاحبه بقوة عاصفة عاتيـــة عابته بعض العيب . ولاحت جزيرة صغيرة ، فقدموا اليهـــا وأرسوا عليها كى يصلحوا العيب ، ولم يجدوا بها ماءولاشجرا، ولكن الضرورة دفعتهم اليها فأنزلوا حمولة المركب بهــــــا وأقاموا مدة حتى رتقوا العيب وردوا الى المركب حمولتـــــه وعزموا على المسير ، فاتفق أن كان اليوم يوم عيد فجمعـــوا بعض خشبات مما معهم وبعض خوص وقماش وأوقدوهــــا فتحركت الجزيرة من تحتهم ، فرموا بأنفسهم فى الماء وتعلقوا بالقوارب ، وغاصت الجزيرة ٠ ولحقهم من اضطراب البحـــر بحركتها ما أشرفوا به على الغرق ٠ وسلموا بعد تعب شديد وهول عظيم ٠ واذا بها سلحفاة قائمة على وجهالماء ، ولما أحسنت حر النار ولذعها هربت

وعقب الشيخ على حكايته بقوله : « ان للسلحفاة أياما فى كل عام تطفو فيها على وجه الماء على سبيل الاستراحة من طول مقامها فى كهوف الجبال ٠ وفى البحر غابات وأشجار هائلة اهول واعظم من شجرنا فوق الارض . فتخرج السلحفاة على وجه الماء وتمكث أياما ، وتسكن كالسكران ، فاذا رجعت اليها نفسها وسئمت ماهى فيه غاصت فى القاع »

أسطورة التنين

حدث بعض البحارة أن فى البحر حيات يقال لها التنين عظيمة هائلة ، واذا مر السحاب فى الشتاء على وجه الماء خرج هذا التنين من الماء ودخل فيه ، لما يجد فى البحر من حرارة الماء ، لان ماء البحر فى الشتاء يسخن كالمرجل ، فاذا أحس ببرودة السحاب دخل فيه ، وتهب الرياح فترفعه مع السحاب ويسير من أفق الى أفق ، فاذا أفرغت ما فيها من الماء وخفت وتفرقت وصارت كالهباء لايجد التنين ما يحمله ، فيسقط اما فى البحر واما فى البر ، فاذا أراد الله تعالى بقوم شرا أسقطه على سفينتهم أو فى أرضهم ، فيبتلع السفينة كما يبتلع الخيل والجمال والبقر والمواشى ! . ويظل حتى لا يجد شيئا يأكله فيموت أو يهلكه الله • والبحارة يبصرونه فى السحاب ، يعبر على رءوسهم أسود ممدودا ، وكلما تراخى هبط الى أسفل ورسب ، وربما تدلى طرف ذنبه فى الهواء فاذا أحس ببرودته دفع نفسه فى السحاب وغاب عن الابصار

حية تأكل الفيلة

وعلى نحو ما كان الملاحون يحكون عن التنين وسلاحف البحر والبال والرخ حكايات عجيبة ينكرها العقل ، كذلك حكوا عن الحيات فى الهند وجزرها ، فمن ذلك هذه الحكاية :

كان يسير ربان فى مركب ، فاشتدت عليه الريح وعصف به اعصار شديد الجأه الى خليج ، فدخله ، واقام به يومه وليلته ، فلما كان من الغد اجتازت به حية هائلة المنظر عظيمة لا تقاس بشىء لكبرها ، ثم نزلت الى جانب من الخليج فعبرت منه الى الجانب الآخر كأنها البرق لسرعتها • وبعد العصر عادت فعبرت الخليج على رفق ، ولم تزل على ذلك خمسة أيام ، تجىء

فى كل يوم غدوة ، فتعبر وتعود بعد العصر • فلما كان اليوم السادس قال الربان للنوتية : انزلوا الى البر ، وانظروا الى اين تمضى هذه الحية ، فنزلوا بعد انصرافها فى اليوم السادس الى البر ، ومشوا فى تلك الارض نحو ميل ، فاذا هم بأجمة وغيضة ومستنقع ماء مملوء بأنياب الفيلة كبارا وصغارا • فجاءوا بالخبر الى الربان ، فنزل معهم فى الغد ، وحملوا بعض الانياب الى المركب ، وظلوا ينقلونها بعد أن تنصرف الحية ، حتى جلبوا منها شيئا كثيرا يعظم مقداره ،ورموا من المركب كل ما استغنوا عنه ، حتى يستطيع السير بما جلبوه • وخرجوا من الخليج بعد أن أقاموا فيه عشرين يوما ، واذا بتلك الحية كانت تأكل الفيلة وتبقى أنيابها !

الرقية من لدغ الحيات

ذكر بعض البحريين أن بكولم ملى (آخر ثغور شاطىء الملبار) حية تسمى الناغران ، منقطة ، وعلى رأسها مثل صليب أخضر ، وترفع رأسها من الارض مقدار ذراع وذراعين على قدر كبرها ، ثم تنفخ راسها واصداغها فتصير مثل رأس الكلب ، واذا سعت لم تلحق ، واذا نهشت قتلت • وان بكولم ملى رجلا مسلما يسمى بالهندية بنجى ، وهو صاحب الصلاة ، يرقى نهشة هذه الحية ، فاذا لم يتمكن سمها ممن لدغته نفعت رقيته ، وفى الاكثر يعيش من يرقيه • ويرقى أيضا من نهشتها ونهشة غيرها من الافاعى والحيات بهذه الناحية جماعة من الهند • وهناك بهذه الناحية ضرب من الحيات الصغيرة ، لها رأسان أحدهما صغير واذا نهشت به لم تمهل طرفة عين

حية تبتلع تمساحا

وحكى بعض الربابنة أن حية جاءت الى خليج صيمور (جنوبى

بومباى) فابتلعت تمساحا كبيرا ، وبلغ صـاحب صيمور الخبر ، فوجه من يطلبها ، فاجتمع عليها أكثر من ثلاثة آلاف رجل وظلوا يداورونها حتى ظفروا بها ، وشدوا فى عنقهـا الحبال ، وجاء جماعة من أصحاب الحيات ، فقلعوا أنيابهـا وقد شجت من رأسها الى اذنها · وذرعوها (قاسوها) فكانت اربعين ذراعا ، وحملها الرجال على أعناقهم وكانت تزن آلاف الارطال ، وكان ذلك فى سنة اربعين وثلثمائة



جزيرة القردة

كان مركب يمضى من عمان الى بلاد الصنف(الهندالصينية)، فأصيب فى طريقه ، وسلم من أهله نحو عشرة فى قارب ، فحملتهم الرياح الى جزيرة مجهولة ، لا يعرفونها ، فرموا بأنفسهم على ساحلها ، وليس لهم قدرةعلى حركة لشدة مالحقهم فى البحر من الاهوال والشدائد ، فمكثوا هنالك بقية يومهم ثم قاموا فجروا القارب الى الساحل ، وباتوا ليلتهم عنده . فلما أصبحوا مشوا فى الجزيرة ، فوجدوا فيها ماء عذبا كثيرا وغوطة (روضة) حسنة ، وأشجارا متكاثفة ، فيها ثمار شتى وموز كثير ، وقصب سكر ، ولم يروا فيها انسيا ، فأكلوا مما اشتهوا من الثمار وشربوا من ذلك الماء ، وانصرفوا الى قاربهم فسندوه بالخشب وظللوه بورق الموز والشجر وأحكموا امره وأصلحوا لانفسهم الى جانبه موضعا يسترهم . فلما مضت عليهم خمسة ايام أو ستة فاذا هم بقطيع قرود قد اقبل يتقدمه قرد كبير جسيم ، واجتمعت القرود حول القارب وفزع القوم منهم . ولم تلبث القردة أن صعدت الى القارب فلم يتعرض لها أحد ، ووقف رئيسهم يفرقهم يمينا وشمالا ، وجعل بعض القردة يومىء الى بعض كأنهم يتحدثون بشىء . ولما أمسوا انصرفوا ، فخاف القوم على نفوسهم ان تقتلهم القردة ، وجعلوا طوال ليلهم يفكرون فى الخلاص ، وباتوا بأسوأ حال لايهتدون لحيلة ، ولا يعرفون طريق النجاة . فلما أصبحوا جاءتهم قردة

فطافت بهم ، ثم مضت ثم عادت ومعها قردة أخرى ، فأومات الى القوم بشيء ، فتبعها واحد منهم ، ودخل وراءها الغوطة ، ثم خاف على نفسه فرجع · فلما كان من غد عاودت القـــرود الايماء والاشارة . وجلس رئيسهم فى القارب ، وانفذ جماعة منهم الى الغوطة · ولما مضت ساعة من النهار جـــاء قردان ، ومع كل منهما قطع ذهب فى نهاية الجودة ، فطرحاها بين يديه . ثم عادت القردة بأجمعها ، ونزل القوم الى الارض فأخذوا الذهب ، فاذا هو مثل العروق الغـلاظ وفى نهـاية الجودة ، فسروا سرورا عظيما ، نسوا به ماهم فيه . ولما أصبحوا جاءت قرده تشتمم بهم ثم مضت ، فمضى خلفها واحد من القـــوم ، وامعنت فى الغوطة ، ثم خرجت الى صحراء ارضها رملة سوداء فحفرت القردة بين يديه ، وحفر معها الرجل فوجد عـــروق الذهب مشتبكة ، ولم يزل يستخرجها ويقلعهـــا الى أن أدمت اصابعه ، وجمع ما استخرجه وحمله ورجع ، الا انه ضل فى بعض الطريق ، ودخل عليه الليل ، فتعلق ببعض الشجر وبات فيه ليلته · ولما أصبح رأى جماعة القردة تسعى ، وتبعها الى أن رأى البحر ووافى أصحابه ، فتلقوه وهم يبكون وقالوا له : انا لم نشك فى انك قد تلفت . وحدثهم بما راى وطرح الذهب بين أيديهم ، وفرحوا ولكن لم يلبث أن أخذهم الهم والغم ، لانهم وجدوا هذه الكنوز ولم يجدوا مركبا كبيرا يحملونهـــا فيه ، واذا حملوها فى القارب لم يأمنوا الغرق لصغره ، وهم لا يعرفون طريق العودة · وأجمع رأيهم على أن يمضوا الى تلك الصحراء ويستخرجوا الذهب ويحملوه الى قاربهم ويتوكلوا على الله ، لعله ينقذهم . فكانوا يمضون فى كل غدوة لا تأتيهم فيها القرود ويقلعون الذهب ويحملونه ، وحفروا حفرة كبيرة

عند القارب ودفنوه فيها . ولم يزالوا يقلعون الذهب وينقلونه
مدة سنة وهم يأكلون من ثمار تلك الجزيرة ويشربون من مائها
وبينما هم على حالهم تلك اذ مر بهم مركب مسافر الى عمان
قد أسقطته اليهم الرياح ، فمات أكثر رجاله غرقا وعطشا .
فلما رأوا الجزيرة أرادوا الالتجاء اليها ، ولم يستطيعوا لضحولة
المياه قرب الساحل ، واحدوا النظر الى البر ، فراوهم وراوا
القارب ملقى على الارض ، وتطارح لهم رجلان من رجال
المركب بحبل ، وراوهما فأخذوا حبالهم وتطارحوا اليهما فى
البحر ، وربطت الحبال بالحبال . ولما صارت حبال المركب
فى البر مضى اليها اثنان من القوم ، فاذا من فيها قد اشرفوا على
الموت ، وتوسلوا اليهما أن يجذبا المركب الى البر ، وقال الربان
يا اخواننا اجذبونا الى الارض وخذوا المركب لكم ملكا ، فقال
الرجلان ليس لنا مأرب فى ذلك ، انما نريد أن تعطونا نصف
المركب ، لنملأه بما معنا ولايشاركنا فيه ولا يعترضنا احد ،
فقال الربان لكما ولقومكما ذلك . وتعاقدوا وشهد بعضهم
على بعض . وتطارح القوم وأخذوا يجذبون المركب بالحبال
ولما راتهم القردة يصنعون ذلك أيدتهم وجذبت الحبال معهم
فجاءت المركب فى أسرع وقت ، ونزل من فيها الى البر ،
واستلقوا عليه شوقا اليه ، لما جرى عليهم . ولما اصبحوا
عرفهم القوم موضع الثمار فأكلوا وشربوا ورجعت لهم نفوسهم
وجاءت القرود من الغد بالذهب على العادة ، فآثرهم القوم
به ، لانهم كانوا قد اخذوا كفايتهم منه . وما زال الربان
وجماعته يستخرجون الذهب حتى اكتفوا ، ورأوا الاقلاع
وواتت الرياح ، فشحنوا المركب ذهبا ، نصفها للقوم ونصفها
للربان ومن معه ، ورحلوا ، فدخلوا الهند وأخذ كل منهم نصيبه

وقد حصل لكل منهم ــ كما يقول الراوى ــ الف الف (مليون) مثقال ومائة الف واربعة واربعون الف مثقال

من نوادر القردة

يقال انه كان فى قرية من قرى عمان قــــرد بمنزل بعض التجار ، كان يخـــدمه ، فيكنس منزله ، ويفتح لمن دخل ويغلقه خلفه ، ويوقد النار تحت القدر ، وينفخ فيهــا حتى تشتعل ، ويرمى لها بالحطب ، وينش الذباب على المــائدة ويروح على سيده بالمروحة !

وكان بمدينة من مدن اليمن حداد عنده قرد ، ينفخ على الكور طوال نهاره ، وقد ظل عند الحداد يقوم بهذا العمل ســنين طويلة !

ومن أغرب نوادر القردة ما يحكى من أن قردا كان فى منزل رجل ببعض بلاد اليمن وان الرجل اشترى لحما ، وجاء به الى منزله ، فأومأ الى القرد : أن احفظ اللحم ، فجاءت حــدأة ، فخطفت اللحم ، فبقى القرد متحيرا ، وكان فى الدار شجرة فصعد الى رأسها ورفع مؤخرته الى السماء وأدلى رأسه الىأسفل وجعل يديه الى جانبى مؤخرته • فظنت الحدأة أن مؤخــرته من جملة اللحم الذى اختطفته ، فانقضت عليه ، فتلقاها القرد بيديه فقبض عليها ، وانزلها الى الدار ، فوضعها تحت جفنة (قدر) وغطاها بشيء ثقيل . فجاء صاحب المنزل ، فلم يجد اللحم ، فقام الى القرد ليضربه . فجرى القرد الى الجفنة ، واخرج الحدأة ، ففطن الرجل لما جرى ، واخذ الحداة فنتف ريشــها وصلبها على الشجرة

المد والجزر

ومن أحاديث البحريين مايحكى عن عبهرة الربان ، وأصلهمن كرمان (في ايران) وكان ببعض قراها يرعى الغنم ، ثم صار صيادا، ثم صار أحد بانانية (نوتية) مركب يختلف الى الهند، ثم تحول الى مركب صينى ، ثم صار بعد ذلك ربانا ، وكان يعرف بحـــر الهندوطرائقه ، وسافرالىالصين سبع مرات . وحدثانانكسر به مركبه ذات مرة ، فنزل فى مطيال (قارب النجاة) وأخذمعه قربة ماء ، فمكث فى البحر اياما . وحكى عن شهريارى الربان وكان أحد ربابنة الصين أنه قال :

« كنت أمضي من سيراف الى الصين فلما صرت بين الصنف (الهند الصينية) والصين بالقرب من صندر فولات (جزر هاى نن شرقى الهند الصينية) وهى رأس بحر صنخى ،وهو بحر الصين ، وقفت الريح فلم تتحرك وسكن البحر ، وطرحنا الاناجر (جمع انجر : الهلب) واقمنا بمكاننا يومين ، فلمـــا كان فى اليوم الثالث رأينا بالبعد شيئا فى البحر ، فطرحت الدونيج (قاربا) الى البحر ، وانفذت فيه أربعة من البانانية وقلت : اقصدوا ذلك السواد فانظروا ما هو ؟ فمضوا وعادوا فقلنا ما ذلك الشيء ؟ فقالوا عبهرة الربان على مطياله (قاربه) ومعه قربة ماء ، قلت لهم : فلم لم تحملوه ؟ فقالوا : قد اجتهدنا به ، فقال : لا أصعد الى المركب الا بشرط أن اكون الربان فأدير المركب وآخذ اجرتى ، وهى قيمة ألف دينار متاعا

بشراء سيراف (ثغر على خليج العرب) والا لم اصعد . فلما سمعنا هذا الكلام تعلقت نفوسنا بقوله ونزلت وجماعة من المركب اليه ، وهو فى البحر ترفعه الامواج وتضعه ، فسلمنا عليه وتضرعنا اليه فى الصعود (معنا) ، فقال : حالكم اقبح من حالى ، وانا الى السلامة اقرب منكم ، فان دفعتم لى قيمة ألف دينار متاعا بشراء سيراف ورددتم الى أمر المركب صعدت ، فقلنا هذا مركب فيه امتعة واموال عظيمة وخلق من الناس ولا يضرنا أن نعرف ما عند عبهرة من الرأى بألف دينار . وصعد واللدونيج والقربة معه الى المركب فلما حصل فيه قال سلمونى متاعا بألف دينار ، فسلمناه اليه ، فلما أحرزه قال للربان : اجلس الى ناحيــة ، فتباعد ذلك عن موضعه (من قيادة المركب) وقال (عبهرة) : ينبغى ان تجدوا فى امركم مادام عليكم مهلة ، فقلنا فيم ذا ؟ فقال : ارموا الثقل (الحمولة) كله الى البحر ، فرمينا نحوا من نصف حمولة المركب او اكثر ثم قال : اقطعوا الدقل الاكبر (سهم المركب الكبير) فقطعناه ورمينا به الى البحر ، فلمــا اصبح قال : ارفعــوا الاناجر واتركوا المركب يسير لنفسه ، ففعلنا ، فقال : اقطعوا الانجر الكبير ، فقطعناه ، وبقى فى البحر ، ثم قال : ارموا بالانجر الفلانى ، فلم يزل كذلك حتى رمينا فى البحر ستة اناجر . فلما كان فى اليوم الثالث ارتفعت سحابة مثل المنارة ، ثم تفرقت فى البحر ، واخذنا الخب (اعصار حلزونى شديد) فلولا انا كنا قد رمينا بالحمولة وقطعنا الدقل لكنا قد غرقنا من اول موجة أخذتنا . ولم يزل الخب ثلاثة أيام بلياليها ، والمركب يصعد وينزل بغير أنجر ولا شراع ، لا ندرى كيف نمضى . فلما كان فى اليوم الرابع اخذت الريح فى السكون ، وتم سكونها

وصلاح أمر البحر فى آخر النهار • وأصبحنا فى اليـــوم الخامس والبحر طيب ، والريح مستقيمة ، فأصلحنـــا دقلا ورفعنا الشرع وسرنا وسلم الله . ووردنا الى الصين ، وأقمنا الى ان بعنا واشترينا واصلحنا المركب واخذنا دقـلا بدل الدقل الذى رمينا به فى البحر . وخرجنا من الصين نريد سيراف ولما قاربنا الموضع الذى قدرنا انا راينا فيه عبهــرة اجتزنا بجزيرة وجبال ، فقال عبهرة : اطرحوا الاناجر ففعلنا ، ثم طرحنا القارب الى البحر ، ونزل فيه خمسة عشر رجلا ، وقال لهم : امضوا الى تلك المواضع وأومأ الى بعض الجبال ، فهاتوا الانجر الفلانى ، فعجبنا من ذلك ولم نخالفه ، ومضوا وعادوا وهو معهم ، ثم قال : امضوا الى ذلك الجبل الآخـر وأومأ اليه فهاتوا الانجر الفلانى ، فمضوا وعادوا والانجرمعهم . ثم قال ارفعوا الشرع ، فرفعناها وسرنا ، فقلنا له : كيف عرفت أمر هذه الاناجر ؟ فقال : نعم لقيتكم فى هذا الموضع فى وقت مد الماء وقد نقص الماء قدرا صالحا وكنتم فى وسط الجبال والجزيرة ، فأمرتكم بطرح الثقل من الامتعة ففعلتم . ثم فكرت فى امر الاناجر ، فاذا حاجتنا اليها فى الصين غير ماسة ، ولم يبق فى المركب من الامتعة الا ماقيمة وزن الاناجر منه أضعاف قيمة الاناجر ، فرميت بها لذلك لانه لم يكن بد من تخفيف المركب ، فحصلت هذه الاناجر الثلاثة فوق الجبل والجزيرة ظاهرة ، وحصلت الثلاثة تحت الماء . فقلنا له : كيف أستدليت على هـــذا النقصـــــان والخب (الاعصـــــار) فقال : نعم قـــد جرب هـــذا البحـــر قبلى وجربته ، فوجدنا فى راس كل ثلاثين (يوما) ينقص نقصـــا عظيمـــا حتى تنكشف هذه الجبال ، ويكون فى وقت هـــذا النقصـــان خب

عظيم ... وقد انكسر المركب الذى كنت فيه على راس جبل من هذه الجبال ، لان النقصان (الجزر) لحقنى وأنا أسير عليه ليلا ، وسلمت فى ذلك المطيال (القارب) ولو بقيتم فى موضعكم (الذى لقيتكم فيه) لما بقيتم فى البحر أكثر من ساعة ، ثم يجنح مركبكم وينكسر ، لانكم كنتم على الجزيرة ان جنحتم عليها انكسرتم »

ملح وبركة

كان سعيد الفقير رجلا صالحا من اهل عدن يضفر القفاف والخوص ، ويلزم مسجداً يصلى فيه سائر الصلوات ، وكان له ثلاثة بنين يعيشون معيشة كفاف . وحدث أن بعض البحريين جهز مركبا الى كلاه (فى شبه جزيرة الملايو) وكان صديقا لسعيد ، فلما عزم على المسير قال له : اسألنى أى حاجة أؤديها لك ، فاشترى سعيد بنصف درهم جرة من خزف خضراء وبربع درهم ملحا جريشا وجعله فيها، ودفعها اليه ، وقال له: هذه بضاعتى ، قال له : فما اشترى لك ؟ قال : اشترلى بركة كما تقول الناس . وابحر المركب ووصل الى كلاه ، وباع الربان مافيه . ونسى الجرة ، فبينما هو ذات يوم فى سوق كلاه وقد حان وقت رحيله اذا رجل يجر سمكة فى حبل وينادى : من يشترى بركة . فلما سمع ذلك ذكر جرة سعيد الفقير ، فدعا صاحب السمكة وسأله عنها ، فقال : هذا جنس من السمك يسميه الصيادون بركة ، فقال فى نفسه : لعل الرجل أراد هذه السمكة بعينها فاشتراها على أن يعطيه بالثمن وزن أوقيتين من الملح ، وأجلسه ، وأرسل بعض أصحابه الى المركب ، فجاء بالجرة ، وأعطى الرجل من الملح ما اتفق عليه . وامر الربان بحمل السمكة الى المنزل الذى

يسكنه ، ووضع السمكة لتملح ببقية الملح . وبينما هم يخرجون ما فى جوفها اذ وجدوا صدفة ، فشقوها ، فوجدوا فيها درة . فقال الربان : هذا رزق الله الى سعيد ، وملح السمكة ، وحفظ الدرة . وابحروا من كلاه الى عدن ، واعطى الدرة الى سعيد ،فعاش بعد حصولها فى يده مدة يسيرة ثم مات ، فأخذها ابنه الاصغر ، وخرج الى سر من رأى (بلدة بجوار بغداد) الى الخليفة ، وهو يومئذ المعتمد ، فباعها له بمائة الف درهم ، وكانت قيمتها أضعاف ذلك

خاتم غريق

خرج مركب من سيراف (ميناء بخليج العرب) الى البصرة فاستقبله خب (اعصار) بعد خروجه بأيام ، وانقطعت المراكب، وتعلقت القلوب بأخبار البحر وتأخرت المراكب فيه . وكان فى المركب المذكور خلق كثير من الركاب ، وامتعة ذات قدر ، وتصادف ان امراة اشترت سمكا ، وبينما هى تنظفه اذ وجدت فى واحدة منه خاتما ، وامعنت النظر فيه، فاذا هو خاتم أخيها، وكان ممن ركب فى ذلك المركب، فصرخت وارتفع معها الصراخ . وشاع الخبر ، فصارت منازل جميع من كان له فى المركب قريب او صديق او عزيز مأتما . ثم جاء الخبر بعد ايام ان المركب انكسر ولم يسلم منه احد

أكلة لحوم البشر

حكى رجلٌ من أهلِ البصرة كان ينزل فى شارع قريش انه خرج من بلدته فى مركب الى بحر الهند ، فانكسرت ، والقت به الامواج الى جزيرة ، قال :

« فصعدت تلك الجزيرة ، وتعلقت بشجرة كبيرة ، وواريت شخصى بين أوراقها وبت ليلتى ، فلما اصبحت رايت غنما قد اقبلت نحو مائتى راس ، يسوقها رجل لم أر مثله ، عظيم الخلقة ، طويل عريض ، بشع المنظر ، ومعه عصاة يسوق بها غنمه ، فقعد على ساحل البحر ساعة ، والغنم ترعى بين الشجر ، ثم طرح نفسه على وجهه ، فنام الى حدود نصف النهار ، ثم قام فرمى بنفسه فى الماء ، واغتسل وخرج ، وهو عريان ليس عليه الا ورقة تشبه ورق الموز ، الا انها اعرض منه ، وقدجعلها فى وسطه كالمئزر (ثوب نصفى) ثم عمد الى شاة فقبض رجلها ، واخذ ضرعها فى فيه ، وامتصه ، ثم فعل ذلك بعدة من الغنم ، ثم استلقى فى ظل شجرة . ولم يلبث أن وقع طائر على الشجرة التى أنا فيها ، فأخذ حجرا ثقيلاً وقذف به الطائر ، فأصابه وسقط بالقرب منى ، فأومأ الى بيده أن انزل . ولخوفى منه بادرت وانا ضعيف ميت خوفا وجوعا . وأخذ الطائر ورمى به الى الارض ، وقدرت أن وزنه لا يقل عن مائة رطل ، ونتف ريشه وهو حى يضطرب ، ولما نتفه اخذ حجرا قدر عشرين رطلا ، فضرب به راسه ، وتركه حتى مات . ثم لم يزل يضربه

بالحجر حتى شقه ، ثم جعل ينهشه بأسنانه ، ويأكل منه كما تأكل السباع حتى أتى عليه ، ولم يبق الا عظامه . ولما اصفرت الشمس قام واخذ العصا وساق الغنم بعد ان صاح صيحة افزعتنى . واجتمعت الغنم الى موضع واحد ، واوردها خليجا فى الجزيرة فيه ماء عذب ، فسقاها ، وشرب وشربت وقد أيقنت بالموت . ثم ساقنا أجمعين حتى جئنا موضعا بين الاشجار ، حوله خشب كثير طولا وعرضا ، وله شبه باب ، ودخلت الغنم ودخلت معها ، واذا فى وسط ذلك الموضع شبه بيت اقيم على خشب وثيق فى ارتفاع نحو عشرين ذراعا . وماعمل شيئا سوى أن أخذ شاة كانت من أصغر الغنم واهزلها، فدق رأسها بحجر ، ثم اجج نارا ، وجعل يقطع اللحم بيديه وأسنانه كما تفعل السباع ، ورمى اللحم مع الجلد والصوف فى النار ، وأكل جميع مافى جوف الشاة نيئا ، ثم عمد الى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وتلك حتى شرب من عدد كثير . ثم صعد فأخذ معه شيئا كان يشربه . ثم نام فجعل يغط كما يغط الثور . ولما انتصف الليل جعلت ادب قليلا قليلا الى موضع النار وتتبعت مابقى من اللحم ، فأكلت مايمسك رمقى ، وكنت خائفا أن تنفر الغنم فينتبه ، فيجعلنى مثل الطائر أو كالشاة . وبقيت مطروحا الى الغد . فلما أصبح نزل وساق الغنم وساقنى معها ، وكان يكلمنى فلا أفهم كلامه ، وكلمته بما أعرف من اللغات فلم يفهم منى شيئا ، وكان قد صار على شعر عظيم ، واظنه لما رآنى على تلك الصورة القبيحة عافتنى نفسه ، فأخر اكلى . ولم أزل معه فى تلك الحال عشرة أيام ، يفعل كل يوم مثل مافعله فى سابقه ، ولا يمضى يوم دون أن يصطاد طائرا أو طائرين ، وان حصل له من الطيور مايشبعه لم يأكل شيئا

من الغنم ، وان قلت الطيور اكل شاة . وصرت أعاونه فى وقود النار وجمع الحطب واخدمه ، وادبر الحيلة لنفسى حتى أخلص منه ، الى ان مضى لى عنده شهران ، وصلح جسمى . ورايت فى وجهه آثار السرور ، وفهمت انه عزم على اكلى ، وكان يأخذ ثمرا من شجر فى الجزيرة ينقعه فى الماء ، ثم يصفيه ويشربه ، فيسكر طوال ليلته ، حتى لا يعقل . وكنت ارى فى تلك الجزيرة طيورا كبارا كالفيل والجاموس واكبر واصغر ، ومنها شىء قد اكل بعض غنمه ، ولذلك يبيت هو وغنمه فى تلك الحظيرة خوفا من تلك الطيور . وفى ليلة من الليالى صبرت حتى سكر ونام ، فقمت وتعلقت بشجرة ودليت غصنا من اغصانها الى الارض ، ومضيت على وجهى اطلب صحراء قد كنت رايتها من تلك الشجرة . ولم ازل امشى الى الصباح ، ثم خفت وتعلقت بشجرة عظيمة الساق ومعى خشبة قد أعددتها ، حتى ان لحقنى ضربت بها راسه ، فاما ان أقتله واما ان يقتلنى ، والموت على كل حال لابد منه . ومكثت يومى هذا فى الشجرة ، ولم اره ، وقد كنت أخذت معى قطعة من اللحم ، فلما امسيت أكلتها ، ونزلت فمشيت الى الصباح ، فوجدت نفسى فى صحراء وفيها اشجار متفرقة فمشيت وانا لا ارى احدا الا الطيور وحيات ووحوشا لا أعرفها ، ورايت ماء عذبا ، فاقمت بجانبه . وجعلت آخذ من تلك الثمار والموز وآكل منها والطيور تطوف بالغوطة ، وعاينت طائرا منها ضخما ، فأعددت شيئا من قشور الشجر مثل الحبال ، ولم ازل ارصد الطائر حتى سقط يرعى ودرت من خلفه ، فتعلقت بساقه وهو مشغول برعيه ، وشددت نفسى بالحبال . ولما فرغ من اكله شرب ماء ، وحلق فى الهواء ، واشرفنا على البحر ، واستسلمت للموت ، ولم يلبث أن انحط

على جبل فى الجزيرة ، فحللت نفسى من ساقه ، وانا ضعيف ، وجعلت اجر نفسى خوفا منه ، ونزلت من الجبـل وتعلقت بشجرة ، واخفيت شخصى فيها . ولما اصبحت رأيت دخانا ، فقلت لابد ان عنده ناسا ، ونزلت أمشى الى ناحيته ، فمـا مشيت قليلا حتى استقبلتنى جماعة ، واخذونى وكلمـونى كلاما لم افهمه ، وحملونى الى قريتهم ، وادخلونى فى منزل حبسونى به مع تسع انفس ، فسألونى عن خبرى ، فحدثتهم وسألتهم عن خبرهم فحدثونى انهم اهل مركب كان قـد خرج من الصنف (الهندالصينية) الى الزابج(جزرالهندالشرقية) فخرج عليهم خب (اعصار) كسر مركبهم ، وتخلصوا فى قارب نحو عشرين رجلا ، فوقعوا الى هذه الجزيرة ، فأخـذهم قـوم فاقتسموهم ، واكلوا منهم نفرا الى هذا الوقت . وتعجبت وقلت فى نفسى : ان مقامى عند صاحب الغنم كان أصلح لى ، وجعلت اتأسى بالقوم . ولما كان الغد جاءونا بسمسم أو شىء يشبهه وموز وسمن وعسل ، وقال لى القوم : هذا طعامنا منذ وقعنا ها هنا . واكلنا مقدار مايمسك رمقنا ، ثم جاءوا فنظروا الينا ، وأخذوا أحسننا حالا فى جسده فودعناه ، واخرجوه الى وسط المنزل ودهنوه من راسه الى قدمه بالسمن ، ثم اقعدوه فى الشمس مقدار ساعتين ، ثم اجتمعوا عليه ، فذبحوه وقطعوه قطعا ، ونحن نرى ، ثم شووه واكلوه واكلوا اجزاء منه نيئة ، ثم شربوا شرابا ، وسكروا فناموا ، فقلت للقوم : قوموا فنقتل هؤلاء فانهم سكارى ، ونخرج على وجوهنا ، فان سـلمنا فالحمد لله ، وان هلكنا فالهلاك اسهل من هـذا البـلاء ، واختلف راينا بقية يومنا ، واظلنا الليل ، واصبحنا ، فجاءونا بما نأكل على الرسم المعتاد . ومضت اربعة أيام على تلك الحال ،

فلما كان اليوم الخامس جاءونا فأخذوا منا رجلا ، ففعلوا به ما فعلوه بالاول . ولما سكروا وناموا قمنا اليهم فذبحناهم بأسرهم ، واخذ كل واحد منا سكينا وشيئا من العسل والسمن والسمسم . ولما اظلمت الدنيا خرجنا من المنزل ، ومشينا نطلب الساحل من جانب آخر غير جانب القرية . ودخلنا غوطة فتعلقنا بالشجر ونحن ثمانية ، خوفا من القوم . ولما جن الليل نزلنا ومشينا مهتدين بالكواكب ، وامنا من هؤلاء الناس ، فكنا نمشى نهارا ونستريح ونأكل من ثمار الجزيرة وهى كثيرة الموز ، وما زلنا نمشى حتى وقعنا فى غوطة حسنة ، وفيها ماء عذب طيب ، فعزمنا على المقام بها ابدا الى ان يقع الينا مركب أو نموت فيها ، فمات منا ثلاثة ، وبقينا خمسة . وبينما نحن فى بعض الايام نمشى واذا بقارب قذف به الموج وفيه جماعة قدماتوا ، والقارب جانح فى الطين والموج يضربه وهو مطروح ورمينا بهم فى البحر وغسلنا القارب ، وصنعنا له دقلا من الشجر ، وسوينا حبالا من خوص النارجيل (جوز الهند) وشراعا من الليف ، وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة واخذنا معنا ماء ، وكان بيننا ملاح يعرف السفر فى البحر ، وسرنا نحو خمسة عشر يوما ، ووقعنا بقرية من قرى الصنف بعد اهوال وعجائب مرت بنا ، واخبرنا الناس بخبرنا ، فجمعوا لكل منا زادا ، وخرج كل منا يقصد بلداً . ورجعت الى البصرة بعد أربعين سنة من غيبتى ، وقد مات اكثر أهلى ووجدت لابى ولدا لم اكن أعرفه ، وكانوا لما انقطع خبرى قسموا مالى ، فلم يصل الى منه شىء »

وزغة بجاوه

قال بعض الملاحين : كنت عند صاحب صندابور (جاوه)

يوما ما أتحدث اذ ضحك ، فقال : أتدرى لم ضحكت ؟ قلت : لا ، فقال : على الحائط وزغة تقول : الساعة يجىء ضيف غريب . فعجبت من حماقته ، وأردت الانصراف بعد ساعة ، فقال : لاتبرح حتى تنظر آخر امر هذه الوزغة . وانا لفى حديثنا اذ دخل بعض أصحابه ، فقال : وافى الخور (الخليج) من عمان مركب ، ثم لم نلبث الا ساعة ، حتى دخل جماعة ومعهم أقفاص فيها قماش ومتاع وماء ورد ، ففتح منها قفص ماء ورد ، فقفزت منه وزغة كبيرة ، وصعدت الى الحائط تعدو الى الوزغة الاولى ، فصارت الوزغة وزغتين وانا ارى

تماسيح مسحورة

دخل الى سرنديب رجل هندى صاحب رقى وكهانة وسحر ، فصادف صديقا ، فقال له : اتريد ان أريك شيئا ظريفا ، فقال نعم ، فجلس على الخور (الخليج) وتكلم بكلام ، ثم قال له : ان شئت فادخل الخور ، فان التمساح لايؤذيك ، وان شئت فأحضر من يدخل ، وان شئت دخلت انا ، فقال له : تدخل أنت ، فدخل هو ، ثم دخل الآخر ، ثم دخل ثالث ، فجعل التمساح يطوف بهم ولا يؤذيهم . ثم صعدوا ، فقال له: تحب ان اخلى عن التماسيح ، فقال : افعل ، وطرحوا كلبا ، فقطعه التمساح . فبلغ صاحب سرنديب خبره ، فأحضره ، وقال : عندك كذا وكذا من سحر التماسيح ، فقال : نعم ، فركب معه الى الخليج ، واحضر رجلين يريد قتلهما لجناية ، فقال له : تكلم على الخور ، فتكلم ، وادخل احد الرجلين الخور ، فأطافت به التماسيح ، ولم تعرض له ، ثم قال له : خل عنها ، فتكلم ، فقطعت التماسيح الرجل عضوا عضوا ، ثم قال له : قد فعلت فعلا حسنا ، ووجبت مجازاتك ، فخلع

عليه ، ووهب له شيئا ووعده ومناه . ولم يزل الرجل يتحول من موضع الى آخر حتى رقى جميع التماسيح . فخور سرنديب لايؤذى التمساح فيه أحدا

رضيع تتقاذفه الامواج

قالت امرأة من أهل الابلة (ميناء البصرة) : كان لوالدى صديق من بانانية (نوتية) المراكب المختلفة من عمان الى البصرة ، وكان اذا ورد المركب الذى هو فيه من عمان نزل الينا واقام عندنا اياما ، واهدى الينا ، واذا اراد الخروج فعلنا مثل ذلك ، واهدينا اليه مايمكننا . وكان رجلا مستورا ، فزوجنى أبى به ، ومامضت غير ثلاث سنين حتى توفى أبى ، فقال لى : قومى حتى أحملك الى عمان ، فان لى بها والدة واهلا ، فخرجت معه الى عمان ، وكنت مع اهله بها مقدار اربع سنين ، وهو يختلف بين عمان والبصرة . ثم توفى بعمان بعد أن ولدت هذا الصبى بخمسة اشهر . فلم يطب لى المقام بعمان ، لان مقامى بها كان بسببه ، فقلت لوالدته وأهله : أريد أن ارجع الى أهلى بالابلة ، فقالوا لى : ان أقمت عندنا قاسمناك حياتنا ، فليس لنا فى الدنيا غير هذا الصبى ، وسالونى ذلك ، فأبيت . ولما عزمت على الخروج اشتريت للصبى سريرا وثيقا من خيزران ، وجعلت فيه ثيابا كنت قد جمعتها لى وللصبى وذخيرة من الدراهم كنت قد ادخرتها . وغطيت ذلك كله واحكمته ، وجعلت الصبى فوقه . وخرجت فى مركب يريد البصرة ، فبينما نحن سائرون اذ اخذنا خب (أعصار) فانكسر المركب فى نصف الليل ، وتفرقت الركاب والبانانية فى البحر ، فلم ير أحد منا صاحبه . وتعلقت بلوح من الالواح ، واحكمت نفسى عليه ، وظللت فوقه الى نصف النهار فى الغد ،

اذ رآنا صاحب مركب مجتاز ، فجمع من الماء نحو عشرة انفس كنت أنا أحدهم . وحملنا الى مركبه ، ونكسوا رءوسنا لنقذف الماء الذى شربناه فى البحر ، وسقونا أدوية ، وعالجونا حتى رجعت نفوسنا الينا . وانا فى هذه الاثناء قد نسيت ابنى لما انا فيه وزال الفكر فيه عن قلبى . وظللت هكذا مدة طويلة ، حتى سمعت صاحب المركب يقول : انظروا هذه المرأة واسألوها : ألها لبن ، فان هذا الصبى الذى انقذناه من فوق اللجج يموت ، فقالوا لى : الك لبن ؟ . فتذكرت ابنى ، وقلت : قد كان لى لبن ، ولاأظن انه بقى منه شيء لما مر بى من الاهوال ، فقالوا : الحقى هذا الصبى قبل أن يموت . فجاءونى بالسرير ، وفيه الطفل بحاله ، مافتحوه ولا اخذوا منه شيئا ، فلما رأيته وقعت على وجهى وصرخت وغشى على . فرشوا على الماء ، وأفقت بعد ساعة ، واقبلت ابكى واضم الطفل ، فقالوا : ايتها المرأة مالك ؟ فقلت : هذا الطفل ابنى . فقام صاحب المركب الى ، وقال : ان كان ابنك فاى شيء الذى تحته ؟ فاقبلت أعد عليهم ماتحته ، وجعلوا يخرجون شيئا بعد شيء كأنه انما وضع الساعة ، فما منهم أحد الا بكى بكاء عظيما، وحمدت الله وشكرته أن جمع بينى وبين ابنى على تلك الصورة

الدرة اليتيمة

كان بعمان رجل يقال له مسلم بن بشر ، وكان مستورا جميل الطريقة ، وكان ممن يجهز الغواصة فى طلب اللؤلؤ ، وكانت بيده بضاعة ، فلم يزل يجهز الرجال للغوص ، ولاترجع اليه فائدة ، حتى ذهب جميع ماكان يملكه ، ولم تبق له حيلة ، ولا ذخيرة ، ولا ثوب ، ولا شىء يمكن بيعه ، الا خلخالا لزوجته بمائة دينار ، فقال لها : اقرضينى هذا الخلخال الأجهز الغواصة به ، فلعل الله تعالى يرسل لنا شيئا ، فقالت له : يأيها الرجل لم تبق لنا ذخيرة ولا شىء نعول عليه ، وقد هلكنا وافتقرنا ، فلأن نأكل بهذا الخلخال أصلح من أن نتلفه فى البحر . فتلطف بها وأخذ الخلخال وباعه وجهز بجميعه الرجال للغوص وخرج معهم . ومن شرط الغوص أن يقيم الغواصة فيه شهرين للعمل لاغير ، وعلى هذا يتشارطون . فأقاموا يغوصون تسعة وخمسين يوما ويخرجون الصدف ويفتحونه ، فلا يحصل لهم شىء ، فلما كان اليوم الستون غاصوا على اسم ابليس لعنه الله ، فوجدوا فيما أخرجوه صدفة ، استخرجوا منها حبة لها قيمة كبيرة ، لعل ثمنها يوفى بجميع ماكان يملكه مسلم منذ كان ، والى وقته ، فقالوا له : هذه وجدناها على اسم ابليس ، لعنه الله ، فأخذها وسحقها ورمى بها فى البحر . فقالوا له : ايها الرجل لم فعلت هذا ؟ لقد افتقرت وهلكت ، ولم يبق لك أمل فى أن يقع لك مثل هذه الحبة التى لعلها تساوى آلافا من الدنانير ، فتسحقها! فقال : سبحان الله ! كيف أستحل أن أنتفع بمال استخرج على

اسم ابليس ، وأنا أعلم ان الله تبارك وتعالى لايبارك لى فيه ،وانما وقعت هذه الحبة بأيدينا ليختبرنا الله تعالى بها ، ويعرف الناس اعتقادى . ولئن انتفعت بها ليقتدين كل الناس بى ، فلا يغوصون الا على اسم ابليس ، لعنه الله ، فاثم ذلك اكبر من كل فائدة وان كبرت ، ووالله لو كان مكانها كل لؤلؤ فى البحر ما اخذته . امضوا فغوصوا وقولوا : باسم الله وببركة الله . فغاصوا على مارسم لهم ، فما صلى صلاة المغرب فى ذلك اليوم ، وهو آخر يوم من الستين المشترطة حتى حصل بيده درتان : احداهما اليتيمة ، والاخرى دونها بكثير ، فحملهما الى هارون الرشيد ، فباع اليتيمة بسبعين الف درهم ، والصغرى بثلاثين الف درهم . وانصرف الى عمان بمائة الف درهم ، فبنى بها دارا عظيمة ، واشترى ضياعا واعتقر عقارا ، وداره معروفة بعمان



ربان ضرير فى بحر الصين

ركبت هذا البحر فى جمع من التجار ، فهبت علينا ريح عاصفة فى بعض الايام ، صرفت المركب عن قصده ، ومشت به ماشاء الله ، وكان ربان المركب شيخا حاذقا الا انه كان أعمى ، وكان يستصحب كل مرة يسافر فيها حبالا كثيرة، وكان أصحابه ينكرون عليه ذلك ، ويقولون له : لو حملنا مكان الحبال أحمال التجار لاصبنا خيرا كثيرا ، وكان يرد عليهم قولهم ويمنعهم منه . فلما أصابنا ما اصابنا من الريح كان يقول لاصحابه فى كل وقت : انظروا ماذا ترون ؟ وهم يخبرونه بالحال الى ان قالوا : نرى طيورا سوداء على وجه الماء ، فجعل يدعو بالويل والثبور، ولطم وجهه، وقال : هلكنا والله، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : سترون عيانا ما يغنيكم عن اخبارى ، فما مر ألا يسير حتى وقعنا فى الدردور (الاعصار الحلزونى الدائر) وهو اذا وقع فيه مركب لا يزال يدور ولا يخرج منه البتة . ونظرنا فرأينا الطيور السوداء مراكب قداغرقها الدردور، وانتشر على سطح البحر من كانوا فيها جثثا طافية . فأخذنا الخوف والفزع ، وانقطع رجاؤنا من الحياة ، وانتظرنا الموت المحقق . فلما شاهد منا الربان تلك الحالة قال : ياقوم ! اجعلوا لى نصف أموالكم على اخراجكم من هذه الغمة ، وانا أحتال فى خلاصكم

ان شاء الله تعالى ، فقلنا نعم قد رضينا ، فأمر بأخذ قربات مملوءة من الدهن (الزيت) وادلائها فى البحر ، فصنعنا ما أمر به فاجتمع عليها من السمك عدد لايحصى . ثم امرنا أن نجمع الجثث الطافية ونشدها بالحبال التى كانت عنده فى المركب ونرمى بها فى البحر ،ففعلنا واجتمع عليها السمك . ثم امرنا بضرب الطبول والاخشاب والصياح والتصفيق ، واذا بالمركب قد تحرك من مكانه وجرى ولم يزل يجرى حتى خرجنا من الدردور . فصاح : اقطعوا الحبال عاجلا ، فقطعناها ونجونا بقدرة الله من الهلاك والموت .

آية للناس

قال رجل من اصبهان (فى ايران) : ركبتنى ديون كثيرة ونفقة عيال عجزت عنها ، ففارقت أصبهان ، ودارت بى الدوائر حتى ركبت البحر فى جمع من التجار ، فتلاطمت بنا الامواج حتى صار المركب فى الدردور فى بحر الهند ، فقال الربان : ياقوم هذا الدردور لا يتخلص منه مركب الا اذا شاء الله ، فقال القوم هل تعرف لنا طريقا للخلاص فنسعى فيه ، فقال : ان سمح احدكم بنفسه لاصحابه تخلصنا ، فقلت : ياقوم نحن كلنا فى معرض الهلاك ، وانا رجل كرهت الحياة ، وسئمت البقاء ، وكنت اتمنى الموت . وكان فى السفينة جمع من التجار الاصبهانيين ، فقلت : احلفوا لى انكم تقضون ديونى ، وتحسنون الى اولادى ، وانا افديكم بنفسى وأوثركم بحياتى ، فحلفوا لى على ذلك ، فقلت للربان : انا اسمح بنفسى لاصحابى فماذا تأمرنى أن افعل ، فقد سلمت نفسى لله طلبا لخلاصكم ان شاء الله تعالى ، فقال لى الربان : آمرك أن تقف ثلاثة أيام بلياليها على ساحل هذه الجزيرة ، وكانت بقرب الدردور ، ولا

تفتر عن الضرب على هذا الطبل أبدا ، فقلت لهم افعل ذلك ، فحلفوا لى ايمانا مغلظة على ماشرطته عليهم ، وأعطونى من الماء والزاد مايكفينى أياما ، وانزلونى على ساحل الجزيرة ، فوقفت وشرعت فى ضرب الطبل ، فرأيت المياه تحركت وجرت بالمركب وانا انظر اليه ، حتى غاب عن بصرى . فلما فرغت من ذلك جعلت اطوف بتلك الجزيرة فاذا انا بشجرة عظيمة لم أر أعظم منها ، وعليها شبه سطح عريض . فلما كـــان آخر النهار احسست بهدوء شديد ، فاذا طائر عظيم ابيض اللون ، لم أر حيوانا أعظم منه ، وقع على ذلك السطح . فاختفيت خوفا منه أن يصطادنى ، الى أن بدا ضوء الصباح ، فنفض جناحيه وطار . فلما كانت الليلة الثانية ، جاء الطير وسقط على سطح الشجرة كما فعل البارحة ، فـدنوت منه ، فلم يتعرض لى بسوء ولا التفت الى ، وطار عند الصباح . فلما كانت الليلة الثالثة جاء الطير على عادته ، فقعدت عنده من غير خوف ، الى أن نفض جناحيه عند الفجر ، فتعلقت برجليه ، بكلتا يدى ،فحملنى وطار بى أسرع طيران الى أنارتفع النهار ،فنظرت نحو الارض ، فما رايت غير لجة البحر ، وكدت أترك رجليه لشدة ما نالنى من التعب ، ثم حملت نفسى على الصبر ، الى ان نظرت نحـــو الارض ، فرأيت القرى والعمارات تحتى ، فذهب ما كان بى من شدة التعب . ودنا من الارض ، فرميت بنفسى على كومة تبن فى بعض القرى ، والناس ينظرون الى . ودوم (دار) الطائر فى الهواء وغاب عنا ، فاجتمع النـــاس على وحملونى الى حاكمهم ، فأحضر رجلا يفهم لسانى ، فقال لى : من انت ، فحدثته بحديثى كله فتعجبوا منه ، وتبركوا بى ، وامر لى الحاكم بمال كثير ، واقمت عنـــدهم أياما .

وخرجت يوما لاتفرج ، فمشيت الى طرف بحر ، كنت اراه على بعد ، فاذا انا بالمركب الذى كنت فيه قد ارسى ، ولم يلبث اصحابى أن راونى ، فأسرعوا الى سائلين عن حالى ، فقلت لهم: انى بذلت نفسى لله فأنقذنى ، وجعلنى آية للناس ورزقنى المال وأوصلنى الى وجهتنا قبلكم ، فتعجبوا غاية التعجب ، وحملونى معهم الى أهلى ، وقاموا لى بمال فوق ما اشـــترطت ، فعدت بخير وغنى وسلامة

الجزيرة المحترقة

حكى بعض التجار قال : ركبت بحر الزنج (غربى المحيط الهندى) فدارت بى الدوائر حتى حصلت فى هذه الجزيرة ، فرأيت فيها خلقا كثيراً ، فبقيت بها زمانا واستأنست بأهلها وتعلمت شيئا من لغتهم ، فلمـــا كانت بعض الليالى رأيت الناس مجتمعين ينظرون الى كوكب طلع من افقهم ، وهم يبكون ويلطمون وينادون بالويل والثبور ، فسألت بعضهم عن سبب ذلك ، فقال : ان هذا الكوكب يطلع فى كل ثلاثين سنة مرة ، فاذا وصل الى سمت رءوسنا احترق جميع ما فى هذه الجزيرة ، ورأيتهم يشتغلون بأعداد مراكب ، نقلوا اليها جميع ما يخافون عليه من المال والامتعة . ولما قرب الكوكب من سمت رءوسهم ركبوا السفن وركبت انا ايضا معهم ، وسرنا فى البحر وغبنا عن الجزيرة مدة . ولما زال الكوكب عن سمت رءوسنا عدنا الى الجزيرة فوجدنا جميع ما كان بها من الاشجار والبنيان قد احترق وصار رمادا . وشرعوا فى العمارة ثانيا . ولا يزالون كذلك على الدوام فى كل ثلاثين سنة تحترق الجزيرة ويجددون بناءهـــا

من كتاب خريدة العجائب :

بيضة الرخ

ذكر عبد الرحمن المغربي انه سافر فى بحر الصين ، فألقتهم الريح فى جزيرة عظيمة كبيرة واسعة ، فنزل بها أهل السفينة ليتزودوا منها ، ونزل معهم ، فرأوا فى الجزيرة قبة عظيمة بيضاء لماعة براقة أعلى من مائة ذراع ، فقصدوها ، ودنوا منها ، فاذا هى بيضة الرخ ، فجعلوا يضربونها بالفئوس والصخور والخشب ، حتى انشقت عن فرخ الرخ وكأنه جبل راسخ ، فتعلقوا بريشة من جناحه ، واجتذبوها حتى قلعوها ، وقتلوه ، وحملوا ما امكنهم من لحمه ، ورحلوا ، وطبخ بعضهم من هذا اللحم وأكلوا وكان فيهم مشايخ بيض اللحى ، فلما أصبحوا وجدوا لحاهم قد اسودت ، ولم يعد الشيب بعد ذلك الى أحد منهم ، فكانوا يقولون ان العود الذى حركوا به ما فى القدر من لحم فرخ الرخ كان من شجرة الشباب . ولما طلعت الشمس ونحن فى السفينة وهى تجرى بنا اقبل رخ ضخم يهوى كالسحابة العظيمة ، وفى رجليه قطعة من جبل كالبيت الكبير ولما حاذى سفينتنا من الجو القى ذلك الحجر عليها ، غير أنها كانت مسرعة سرعة شديدة ، فسبقت الحجر ووقع فى البحر وكان لوقوعه هول عظيم . وكتب الله لنا السلامة ونجانا من الهلاك

جزيرة الحكماء

هى جزيرة خيالية ، روى ابن الوردى ان الاسكندر ذا القرنين وصل اليها ، فرأى بها قوما لباسهم ورق الشجر ، وبيوتهم كهوف فى الصخر والحجر ، فسألهم مسائل فى الحكمة ، فأجابوه بأحسن جواب والطف خطاب ، فقال لهم : سلوا حوائجكم لتقضى ، فقالوا له : نسألك الخلد فى الدنيا ، فقال : وأنى ذلك لنفسى ؟! ومن لايقدر على زيادة نفس من انفاسه كيف يبلغكم الخلد ، فقالوا له : نسألك صحة فى ابداننا مابقينا ، قال : وهذا ايضا لا اقدر عليه ، قالوا : فعرفنا مابقى من أعمارنا ، فقال : انى لا أعرف ذلك لنفسى ، فكيف اعرفه لكم . فقالوا : دعنا نطلب ذلك ممن يقدر عليه وعلى أعظم منه ، وهو ربنا وربك ورب العالمين

وجعل الحكماء ينظرون الى كثرة جنود الاسكندر ، وعظمة موكبه ، وكان بينهم حكيم لم يهتم بذلك ولا رفع راسه اليه ، فقال له الاسكندر : مالك لاتنظر الى ماينظر اليه النـــاس متعجبين ، فأجابه بقوله : ما أعجبنى الملك الذى رايته قبلك حتى انظر اليك والى جنودك وموكبك ، فقال الاسكندر ، وكيف ذاك ، قال الحكيم : كان عندنا ملك وآخر مسكين فماتا فى يوم واحد ، وكنت غائبا ، ورجعت ، فاجتهدت أن أعرف الملك من المسكين فلم اعرفه

الاسكندر والتنين

ظهر فى جزيرة ببعض السنين تنين عظيم ، فكاد ان يهلك الجزيرة وما بها من السكان والحيوان ، فاستغاث الناس منه بالاسكندر ، وكان قد قارب جزيرتهم ، فذهبوا اليه ، وقالوا له : ان التنين قد اكل مواشينا ، واتلف أموالنا ، وقطع الطريق

على الناس ، وفى كل يوم نقدم له ثورين عظيمين ننصبهما له ، فيأتى اليهما فى سحابة سوداء ، وعيناه تتوقدان وتلمعان كالبرق الخاطف ، بينما يلفظ النار والدخان من فمه . ويهجم على الثورين ، فيبتلعهما ، ويرجع الى مكانه فى السحاب • فسار الاسكندر الى الجزيرة وأمر بالثورين فسلخا ، وحشا جلودهما زفتا وكبريتا وزرنيخا ونفطا وزئبقا ، وجعل مع ذلك كلاليب من حديد . وأقامهما فى نفس المكان المعهود ، فجاء التنين من الغد اليهما على العادة فابتلع الثـورين وجلودهما ، فاشتعلت النار بجوفه ، وتعلقت الكلاليب بأحشائه ، وسرى الزئبق فى جسده ، وذهب يضطرب الى مقره . فانتظروه فى الغـد ، فلم يأت ، فذهبوا الى موضعه الذى يجىء منه ، واذا هو ميت ، وقد فتح فاه كأوسع قنطرة وأعلاها ، ففرحوا بذلك ،وشكروا للاسكندر سعيه ، وحملوا اليه هدايا عجيبة ، منها دابة يقال لهـــا المعـراج ، مثل الارنب صفراء اللون ، وعلى راسهـــا قرن واحد أســـود ، وهى دابة لا يراها شىء من الســباع الضوارى والوحوش الكاسرة الا هرب منها ، لا يلوى على شىء

من كتاب سلسلة التواريخ :

تقليد متوارث فى الزابج

للزابج ملك يسمى المهرآج ، قصره على واد كوادى دجلة ، يطغى عليه ماء البحر بالمد، وينضب عنه بالجزر، ويتصل به غدير صغير يلاصق قصر الملك . ومن تقاليدهم المتوارثة أن قهرمان الملك يدخل عليه فى صبيحة كل يوم ، ومعه لبنة قد سبكها من ذهب ، خفى عنى مقدار قيمتها ، فيطرحها بين يديه ، ثم يلقيها فى ذلك الغدير ، فاذا كان المد علاها هى وما اجتمع معهـــا من أمثالها ، واذا كان الجزر انحسر عن اللبنات جميعا ، فلاحت فى الشمس ، فيراها الملك من مجلسه المطل عليها . ولايزال ذلك الحال: القهرمان يطرح كل يوم فى ذلك الغدير لبنة من ذهب ماعاش الملك من الزمان ، ولا يمس شيئا منها . فاذا مات الملك أخرجها القائم من بعده كلها ، ولا يدع منها شيئا ، وتحصى ، ثم تـذاب وتفرق على أهل بيت المملكة ، رجالهم ونسائهم وأولادهم وقوادهم وخدمهم ، على قدر منازلهم ومارسم لكل صنف منهم . وما فضل بعد ذلك أعطى لاهل المسكنة والضعف . ويدون عدد لبنـــات الذهب ووزنها ، ويقال ان فلانا ملك من الزمان كذا سنة وخلف من اللبنات فى غدير الملوك كذا لبنة ، وأنها فرقت بعد وفاته على أهل مملكته . والفخر عندهم لمن امتدت أيام ملكه وزاد عدد لبنات الذهب فى تركته

حرب بين الزابج والقمار (سيام)

ومن أخبارهم فى القديم ، أن ملكا تقلد الملك على بلاد القمار فى قديم الزمان ، وكان صغيرا متسرعا ليست عنده حنكة ، فجلس يوما فى قصره ووزيره بين يديه ، فقال له ، وقد جرى ذكر مملكة المهراج وجلالتها وكثرة عمارتها وماتحت يده من الجزائر الكثيرة : فى نفسى رغبة أحب بلوغها • فقال له الوزير وكان ناصحا وقد عرف منه طيشه وتسرعه : ما هى أيها الملك ؟ قال : أحب ان أرى رأس المهراج ملكالزابج فى طست بين يدى فعلم الوزير أن الحسد أثار هذا الفكر فى نفسه ، فقال : أيها الملك ما كنت أحب أن يحدث الملك نفسه بمثل هذا ، اذ لم يجر بيننا وبين هؤلاء القوم لا فى فعل ولا فى حديث ترة (ثأر) ولا رأينا منهم شرا ، وهم فى جزر نائية ، ولا يجاوروننا ولا يطمعون فى ملكنا ، ولا ينبغى أن يقف على هذا الكلام أحد ولايعيد الملك فيه قولا . فغضب الملك ولم يسمع من ناصحه ، وأذاع رغبته تلك فى قواده ومن كان يحضره من وجوه أصحابه فتناقلته الالسن حتى شاع واتصل بالمهراج ، وكان محنكا ، قد بلغ فى السن مبلغا متوسطا ، فدعا بوزيره وأخبره بما اتصل به وقال له : لا يصح ، مع ما شاع من أمر هذا الجاهل وتمنيه ما تمناه بحداثة سنه وقلة تجربته وانتشار ذلك من قوله ، أن نمسك عنه ، فان ذلك مما يفت فى عضد ملكنا ويضع منه ، وأمره بستر ما جرى بينهما ، وأن يعد له ألف مركب من أوساط المراكب بآلاتها ، ويندب لكل مركب منها جملة من عدة السلاح وشجعان الحرب ، وأظهر أنه يريد التنزه فى جزائر مملكته . وكتب الى ملوكها الداخلين فى طاعته بما عزم عليه من زيارتهم والفرجة فى جزائرهم حتى شاع ذلك ، وتأهب

ملك كل جزيرة لاستقباله . ولما استتب له امر المراكب واعدها عبر بها وبالجيش الى مملكة القمار ، واتجه توا الى الوادى المفضى الى قصر الملك ، وأحاط بالقصر فجأة،ووقع الملك اسيرا فى يده. فأمر أن ينادى فى قمار بالامان ، وأحضر الملك ووزيره ، وقال له : ما حملك على تمنى ما ليس فى وسعك ؟ فلم يحر جوابا ، ثم قال له : اما انك لو تمنيت مع ما تمنيته من النظر الى راسى فى طست بين يديك اباحة أرضى وملكها لاســتعملت ذلك فى مملكتك ، ولكنك تمنيت شيئا بعينه ، فأنا منزله بك ، وراجع الى بلدى من غير أن أمد يدى الى شىء من بلادك مما دق وعظم ، لتكون عظة لمن بعدك . ثم ضرب عنقه ورجع الى بلاده . واتصل الخبر بملوك الهند والصين ، فعظم المهراج فى أعينهم ، وصارت ملوك القمار من بعد ذلك كلما أصبحوا قاموا وحولوا وجوههم نحو بلاد الزابج ، فسجدوا للمهراج تعظيما له !

لؤلؤة فى فم ثعلب

من عجائب الرزق أن أعرابيا ورد البصرة فى قديم الايام ، ومعه حبة لؤلؤ لا يعرف قيمتها ، فصار بها الى عطار كان يألفه فأظهرها له ، وسأله عنها وعن قيمتها ، فأخبره انها لؤلؤة،فقال له : وما قيمتها ؟ قال العطار : مائةدرهم،فاستكثرالاعرابى ذلك، وقال له : هل أحد يبتاعها منى بما قلت ؟ . فدفع له العطـار : مائة درهم وأخذها ، فقصد بها مدينة دار السلام (بغداد) فباعها بجملة من المال ، واتسع العطار فى تجارته . وكان قد سأل الاعرابى عن كيفية عثوره على حبة اللؤلؤ ، فقال له : مـــررت بالصمان من أرض البحرين ، فى موضع بينه وبين الســـاحل مدة قريبة ، فرأيت فى الرمل ثعلبا ميتا ، قد أطبق فمـــه على شىء ، وأمعنت النظر فوجدت هذا الشىء كمثل الطبق ، وجوفه

يلمع بياضا ، ووجدت هذه اللؤلؤة فى الطبق (الصدف) فأخذتها
قال العطار : فعرفت سبب حصولها فى فم الثعلب ، فان الصدفة
خرجت الى الساحل ، ومر بها الثعلب ، فلما عاينها ورأى جوفها
وهى فاتحة فمها وثب بسرعة ، فأدخل فمه فيها ، فأطبقت عليه
الصدفة ، ومن شأنها اذا أحست بيد تلمسها أو أى شىء أطبقت
فمها عليه ، ولم تفتحه بأية حيلة ، حتى تشق من آخرها بالحديد
ضنا منها باللؤلؤ وصيانة لها كصيانة المرأة لولدها • فلمـــا
أخذت بفم الثعلب وضاق بها أمعن فى العدو يضرب بها الارض
يمينا وشمالا الى أن أخذت بنفسه فمات • وظفر بها الاعرابى
فكانت من نصيبه



من كتاب نزهة المشتاق :

أقصوصة الفتية المغررين

وهى ليست من قصص المحيط الهندى ، وانما هى من أقاصيص المحيط الاطلسى (آلاوقيانوس أو بحر الظلمات) ، وهى ترمز الى رحلات العرب فى الأندلس نحو الجنوب الغربى من بلادهم ، ومن المؤكد أنهم زاروا جزائر أزورا وماديرا والخالدات وهى نفسها الجزائر التى يظن أن هؤلاء الفتية فى الاقصوصة زاروها • والادريسى يروى القصة على أنها قصة حقيقية ليس فيها شىء من الخيال ! قال :

« من مدينة أشبونة (لشبونة) كان خروج الفتية المغررين (المخاطرين)الى بحر الظلمات ، ليعرفوا ما فيه ، والى أين انتهاؤه ، وذلك انهم اجتمعوا ، ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، فأنشئوا مركبا حمالا ، وادخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر . ثم دخلوا البحر مع هبوب الريح الشرقية ، فجروا به نحوا من احد عشريوما ، فوصلوا الى بحر غليظ الموج،كدر الروائح ، كثير الربوش (الاعشاب) والضباب ، فأيقنوا بالتلف فسارعوا الى تغيير وجهتهم ، وجروا فى ناحية الجنوب أثنى عشر يوما ، فخرجوا الى جزيرة الغنم ، وهى جزيرة فيها من الغنم ما لاياخذه عد ولا تحصيل،والغنم فيها سارحة ، لاراعى

لها ولا ناظر اليها ، فأرسوا عليها ، ونزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية ، وعليها شجرة تين برى ، فأخـذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومهـا مرة لا يقـدر أحد على أكلهـا . فأخذوا من جلودها . وعادوا الى البحر ، فساروا الى الجنوب اثنى عشر يوما ، الى آن لاحت لهم جزيرة ، ولما اقتربوا منهـا رأوا فيها عمارة وحرثا فقصدوا اليها ليروا مافيها . فما كان غير بعيد حتى احيط بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا ، وحملوا فى مركبهم الى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها فى دار فرأوا بها رجالا شقرا ، شعورهم مسترسلة ، وهم طوال القدود . ولنسائهم جمال عجيب . فاعتقلوا فى هـذه الدار ثلاثة أيام ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ، فسألهم عن حالهم ، وفيم جاءوا واين بلدهم . فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيرا ، واعلمهم انه ترجمان الملك . فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالامس ، من أنهم اقتحموا البحر ليروا مابه من الاخبار والعجائب ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان اخبر القوم أن ابى امر قوما من عبيده أن يركبوا هذا البحر ، وانهم جروا فى عرضه شـهرا ، الى ان انقطع عنهم الضـوء وانصرفوا من غير فائدة تجدى . ثم امر الملك الترجمان أن يعدهم خيرا ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا الى موضع حبسهم حتى جرت الريح الغربية ، فوضعوهم فى زورق وعصبوا اعينهم ، وجروا بهم فى البحر مدة من الدهر ، قال القوم : قدرنا انهم جروا بنا ثلاثة ايام بلياليها ، حتى جاءوا بنا الى البر ، فأخرجونا من الزورق ، وكتفونا الى خلف ، وتركونا

بالساحل ومضوا ، وظللنا على هذه الصورة الى ان تضاحى النهار ، وعلت الشمس فى السماء ، ونحن فى ضنك وسوء حال من شدة الكتاف ، وبينما نحن كذلك سمعنا ضوضاء وأصوات ناس ، فصحنا بأجمعنا . فأقبل القوم الينا ، فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلوا وثاقنا ، وسألونا ماخبرنا ، فأخبرناهم ، وكانوا من البربر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا لا ، فقال : ان بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين ، فقال : زعيم القوم واأسفا . فسمى المكان الى اليوم أسفا ، وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب » . وبعد أهوال ومخاطرات وصلوا الى بلدهم ، فأطلق الناس عليهم اسم الفتية المغررين يقصدون انهم غرروا وخاطروا بأنفسهم فى مغامرات ومجازفات غير مجدية

من رحلة ابن بطوطة :

مسلم فى هيئة جوكية

نزلنا بجزيرة صغرى على ساحل الملبار أو بالقرب منه فوجدنا بها جوكيا (ساحرا)مستندا الى حائط بيتللاصنام،وهو بين صنمين منها ،وعليه أثر المجاهدة التى يقوم بها الجوكية ، اذ لا يأكلون ولا يشربون لمدة طويلة ، وكلمناه فلم يتكلم ، ونظرنا هل معه طعام ؟ فلم نر معه طعاما . وفى حين نظرنا صاح صيحة عظيمة ، فسقطتعند صياحه جوزة من جوز النارجيل (جوز الهند) بين يديه ، ودفعها لنا فعجبنا منذلك ، ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها . وأتيناه بزاد فرده . وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة ، فقلبتها بيدى فدفعها الى ،وكانت بيدى سبحة فقلبها فى يدى فأعطيته اياها ، ففركهابيده وشمها وقبلها وأشار الى السماء ، ثم الى سمت

القبلة ، فلم يفهم أصحابى اشارته ، ففهمت انا عنه انه أشار انه مسلم يخفى اسلامه عن اهل تلك الجزيرة ، ويتعيش من ذلك الجوز . ولما ودعناه قبلت يده ، فأنكر اصحابى ذلك ففهم انكارهم ، فأخذ يدى فقبلها وتبسم ، وأشار لنابالانصراف فانصرفنا . وكنت آخر اصحابى فجذب ثوبى فرددت رأسى اليه ، فأعطانى عشرة دنانير . فلما خرجنا عنه قال لى أصحابى: لم جذبك ؟ فقلت لهم : أعطانى هذه الدنانير ، وهو رجل مسلم الا ترون كيف اشار الى السماء ، يشير الى انه يعرف الله تعالى ، واشار الى القبلة يشير الى معرفة الرسول عليه السلام ، واخذه السبحة مصداق ذلك ، فرجعوا لما قلت لهم ذلك اليه ، فلم يجدوه !

شجرة عجيبة

ونزلنا بمدينة « ده فتن » وهى مدينة كبيرة بساحل الملبار على خليج ، كثيرة البساتين ، وفيها حوض عظيم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلثمائة خطوة .. وبازائه مسجد جامع للمسلمين ، والذى بنى المسجد والحوض أحد أجداد كويل اكبر سلاطين الملبار ، ولأسلامه خبر عجيب

ورأيت بازاء الجامع شجرة خضراء ناعمة ، تشبه أوراقها اوراق التين الا انها لينة ، وعليها حائط يطيف بها ، وعندها محراب صليت فيه ركعتين . واسم هذه الشجرة عندهم « درخت الشهادة » . وأخبرت هنالك انه اذا كان الخريف من كل سنة ، تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة ، بعد أن يستحيل لونها الى الصفرة ، ثم الى الحمرة ، ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة : لا اله الا الله محمد رسول الله . وأخبرنى جماعة من الثقات انهم عاينوا هذه الورقة وقرءوا المكتوب الذى فيها .

وذكروا أنه اذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها تقاة من المسلمين والكفار ، فاذا سقطت أخذ المسلمون نصفها والكفار نصفها . وهم يستشفون بها

وهذه الشجرة كانت سبب اسلام جدكويل الذى عمر المسجد والحوض ، فانه كان يقرأ الخط العربى ، فلما قراها وفهم ما فيها أسلم وحسن اسلامه ، وحكايته عندهم متــــواترة • وحدثونى ان أحد أولاده كفر بعد ابيه وطغى وامر باقتــــلاع الشجرة من اصلها ، فاقتلعت ولم يترك لها اثر . ثم انها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ماكانت عليه ، وهلك الكافر سريعا



عفريت من الجن

وقال الثقات أن أهل جزائر ذيبة المهل (المالديف) كانوا كفارا ، وكان يظهر لهم فى كل شهر عفريت من الجن ، يأتى من ناحيـــةالبحر كأنه مركب ممـــلوء بالقنـــاديل ، وكانت عادتهم انهم اذا رأوه أخـــذوا جـــارية بـــكرا فزينوها ، وأدخلوها بيت الاصـــــنام ، وكان مبنيـــا على ضفة البحر ، وله طاق ينظـــر اليه منـــه ، ويتركونها هنـــاك ليلة ، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها ميتة . ولا يزالون فى كل شهر يقترعون بينهم ، فمن أصابته القرعة أعطى بنته . ثم انه قدم عليهم مغربى يسمى بأبى البركات البربرى ، وكان حافظا للقرآن العظيم . فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل ، فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها ، وهن يبكين كأنهن فى مأتم ، فاستفهم عن شأنهن ، فلم يفهمنه . فأتى بترجمان ، فأخبره ان العجوز خرجت القرعة عليها ، وليس لها الا بنت واحـــدة ، وسيقتلها العفريت . فقال لها ابو البركات : انا اتوجه عوضا عن بنتك بالليل ، ولم تكن له لحية . فاحتملوه فى تلك الليلة، وادخلوه بيت الاصنام وهو متوضىء ، واقام يتلو القرآن . ثم ظهر له العفريت من الطاق ، فداوم التلاوة . فلما اقترب منه بحيث يسمع القراءة غاص فى البحر ، واصبح المغربى وهو يتلو على حاله ، فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا

البنت على عادتهم ، فيحرقوها ، فوجدوا المغربى يتلو القرآن، فمضوا به الى ملكهم ، واعلموه بخبره ، فعجب منه . وعرض عليه المغربى الاسلام ورغبه فيه ، فقال له : اقم عندنا الى الشهر الاخر ، فان فعلت كفعلك ونجوت من العفريت اسلمت . فأقام عندهم، وشرح الله صدر الملك للاسلام فأسلم قبل تمام الشهر ، واسلم اهله واولاده واهل دولته . ثم حمل المغربى لما دخل الشهر الى بيت الاصنام فجعل يتلو حتى الصباح ولم يأت العفريت . وجاء السلطان والناس معه ، فوجدوه على حاله من التلاوة ، فكسروا الاصنام وهدموا بيتها . واسلم أهل الجزيرة، وبعثوا الى سائر الجزائر فأسلم أهلها ، وأقام المغربى عندهم معظما ، وتمذهبوا بمذهبه ، وهو مذهب الامام مالك رضى الله عنه . وقد قرات على مقصورة الجامع هناك منقوشا فى الخشب: أسلم السلطان احمد شنورازة على يد ابى البركات البربرى المغربى

القرود بجزيرة سيلان

القرود بتلك البلاد كثيرة جدا ، وهى سود الالوان ، لها أذناب طوال ، ولذكورها لحى كما هى للآدميين . ولهذه القرود مقدم تتبعه كأنه سلطان ، يشد على رأسه عصابة من أوراق الاشجار، ويتوكأ على عصا ، ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود ، لها عصى بأيديها . واذا جلس القرد المقدم تقف القرود الاربعة على رأسه ، وتأتى أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم . وتأتى القردة فتقعد على بعد منه . ثم يكلمها احد القرود الاربعة ، فتنصرف القرود كلها . ثم يأتى كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك ، فيأكل القرد المقدم وأولاده والقرود الاربعة . واخبرنى بعض الناس انه راى القرود الاربعة بين يدى مقدمها،

وهي تضرب بعض القرود بالعصى ، ثم تنتف وبرها بعد ضربها

قدم آدم

وصعدنا جبل سرنديب لنرى عليه موضع قدم آدم عليه السلام ، وهو من اعلى جبال الدنيا ، رأيناه من البحر ، وبيننا وبينه مسيرة تسع ليال ، ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا ، وفيه كثير من الاشجار التي لا يسقط لها ورق ، والازاهير الملونة والورد الاحمر على قدر الكف . وفي الجبل طريقان الى القدم ، أحدهما يعرف بطريق « بابا » والآخر بطريق « ماما » يعنون آدم وحواء عليهما السلام ، فأما طريق ماما فطريق سهل ، وعليه يرجع الزوار اذا رجعوا ، ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر . وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى ، وفي أسفل الجبل مغارة تنسب للاسكندر وعين ماء . ونحت الاولون في الجبل شبه درج يصعد عليها ، وغرزوا فيها أوتاد الحديد ، وعلقوا فيها السلاسل ، ليتمسك بها من يصعده . وهي عشر سلاسل ، اثنتان في أسفل الجبل ، وسبع متوالية بعدها ، والعاشرة هي سلسلة الشهادة ، لان الانسان اذا وصل اليها ، ونظر الى اسفل الجبل أدركه الخوف ، فيتشهد خوف السقوط . ثم اذا جاوزت هذه السلسلة العاشرة وجدت طريقا سهلا . ومن السلسلة العاشرة الى مغارة الخضر عليه السلام سبعة أميال ، وهي في موضع فسيح عندها عين ماء ، تنسب اليه ايضا ، ملأى بالحيتان ولا يصطادها احد ، وبالقرب منها حوضان منحوتان في الحجارة عن جنبي الطريق . وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم ، ويصعدون منها ميلين الى أعلى الجبل حيث القدم . وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم في صخرة سوداء مرتفعة بموضع

فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضا ، وطولها أحد عشر شبرا . وأتى اليها أهل الصين قديما ، فقطعوا من الصخرة موضع الابهام وما يليه ، وجعلوه فى كنيسة بمدينة الزيتون (ثغر كان على المحيط الهـــادى) يقصدونها من أقصى البلاد . وفى الصخرة حيث القدم تسـع حفر منحوتة ، يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر . فترى الفقراء اذا وصلوا مغارة الخضر ، يتسابقون منها لاخذ ما بالحفر ، ولم نجد نحن بها الا يسيرا من حجيرات وذهب أعطيناها الدليل . والعادة ان يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها الى القدم غدوة وعشيا . وكذلك فعلنا . ولما تمت الايام الثلاثة عدنا على طريق ماما ، فنزلنـا بمغارة « شيم » وهو شيت بن آدم عليهما السلام . ثم ذهبنــــا الى خليج السمك ، ثم الى قرية كرملة . وتحت هذا الجبل الخليج العظيم الذى يخرج منه الياقوت ، وماؤه يظهر فى مراى العين شديد الزرقة . والياقوت يوجد بجزيرة سيلان فى جميـع مواضعها ، وتتخذ منه نساؤها القلائد ويجعلنــه فى أيديهن وارجلهن عوضا عن الاسورة والخلاخيل

بلاد طوالسى

وركبنا البحر الكاهل (المحيط الهادى) .. ثم وصلنا الى بلاد طوالسى وهى بلاد عريضة ، وملكها يضاهى ملك الصين ! وأهل هــذه البلاد عبدة أوثان ، حســان الصــور ، أشـبه الناس بالترك فى صورهم . والغالب على الوانهم الحمرة ، ولهم شجاعة ونجدة ، ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ، ويقاتلن كالرجال سواء . ولما ارسينا بالمرسى جاءت عساكرهم ، ونزل الناخداه (الربان) اليهم ومعه هدية لابن الملك ، فسألهم

عنه ، فأخبروه أن أباه ولاه بلدا غيرهم ، وولى بنتـــه بتلك المدينة ، واسمها أردجا . ولما كان اليوم الثانى من حلولنا ، استدعت هذه الملكة الناخداه صاحب المركب والكاتب والتجار والرؤساء ومقدم الرجال ومقدم الرماة لضيافة صنعتها لهم على عادتها . ورغب الناخداه منى أن أحضر معهم ، فأبيت ، لانهم كفار لا يجوز اكل طعامهم . فلما حضروا عندها قالت لهم : هل بقى أحد منكم لم يحضر ؟ فقال لها الناخداه : لم يبق الا رجل واحد وهو القاضى ، وهو لا يأكل طعامكم ، فقالت : ادعوه ، فجاء أعوانها وأصحاب الناخداه ، فقالوا : أجب الملكة . فأتيتها ، وهى بمجلسها الاعظم ، وبين يديها نسوة ، وحولها النساء القواعد ، وهن وزيراتها ، وقد جلسن تحت السرير على كراسى الصندل ، وبين يديها الرجال . ومجلسها مفـروش بالحرير ، وعليه ستور حرير ، وخشبه من الصندل ، وعليـه صفائح الذهب . وبالمجلس مصاطب خشب منقوش ، عليهـا أوانى ذهب كثيرة من كبار وصفار كالخوابى والقلال . وأخبرنى الناخداه انها مملوءة بشراب مصنوع من السكر ، مخـلوط بالافاويه ، يشربونه بعد الطعام ، وأنه عطر الرائحة حلو المطعم ، يفرج ويهضم . فلمـا سلمت على الملكة قالت لى بالتركية كيف حـالك ؟ وكيف انت ؟ وأجلستنى على قرب منها ، وكانت تحسن الكتاب العربى فقـالت لبعض خـدامها : الدواة والكـاغد (الـورق) فأتى بذلك ، فكتبت فيـه : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالت : ماهذا ؟ فقلت لها : اسم الله، فقالت : جيد . ثم سألتنى من اى البلاد قدمت ؟ فقلت لها : من بلاد الهند ، فقالت : بلاد الفلفل ؟ فقلت : نعم ، فسألتنى عن تلك البلاد وأخبارها ، فأجبتها ، فقالت : لابد أن أغزوها

وآخذها لنفسى ، فانى يعجبنى كثرة مالها وعساكرها ، فقلت لها : افعلى . وامرت لى بأثواب وحمل فيلين من الارز ، وبجاموستين ، وعشر من الضأن ، واربعة أرطال جلاب ، واربعة مرطبانات ، وهى أوان ضخمة ، مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا (المانجو) كل ذلك مملوح مما يعد للبحر

واخبرنى الناخداه : ان هذه الملكة لها فى عسكرها نسوة وخوادم وجوار يقاتلن كالرجال ، وانها تخرج فى العساكر من رجال ونساء ، فتغير على عدوها ، وتشاهد القتال وتبارز الابطال . واخبرنى انه وقع بينها وبين بعض اعدائها قتال شديد ، وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون ، فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش ، حتى وصلت الى الملك الذى كانت تقاتله ، فطعنته طعنة كأن فيها حتفه ، فمات وانهزمت عساكره ، وجاءت برأسه على رمح ، فافتداه اهله منها بمال كثير . فلما عادت الى ابيها ملكها تلك المدينة التى كانت بيد اخيها . واخبرنى ان ابناء الملوك يخطبونها ، فتقول : لا اتزوج الا من يبارزنى فيغلبنى ، فيتحامون مبارزتها خوف المعرة ان غلبتهم

▱

ثم سافرنا عن بلاد طوالسى ، فوصلنا الصين بعد سبعة عشر يوما . وبعد ان زرنا بلادها عزمنا على الرجوع ؛ ولما وصلت الى ثغر الزيتون وجدت المراكب على اهبة السفر الى الهند ؛ وفى جملتها مركب للسلطان الظاهر صاحب جاوة ، واهله كلهم مسلمون ، وعرفنى وكيله ، وسر بقدومى معه ، وصادفتنا الريح الطيبة عشرة ايام . ولما قاربنا بلاد طوالسى تغيرت الريح واظلم الجو وكثر المطر ، واقمنا عشرة ايام لا نرى الشمس . ثم دخلنا بحرا لا نعرفه ، وخاف اهل المركب ، فأرادوا الرجوع

الى الصين ، فلم يمكن ذلك . واقمنا اثنين واربعين يومـــا لا نعرف فى اى البحار نحن

ولما كان اليوم الثالث والاربعون ظهر لنا بعد طلوع الفجـر جبل فى البحر ، بيننا وبينه نحو عشرين ميلا ، والريح تحملنا الى صوبه ، فعجب البحرية وقالوا : لسنا بقرب البر ولا يعهد فى البحر جبل ، وان دفعتنا الريح اليه هلكنا . فلجأ النـاس الى التضرع لله والاخلاص وجددوا التوبة . وابتهلنا الى الله بالدعاء . ونذر التجار التصدقات الكثيرة ، وكتبتها لهم فى دفتر بخطى . وسكنت الريح بعض سكون . ثم راينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع فى الهواء ، وظهر الضوء فيمـا بينه وبين البحر ، فعجبنا من ذلك . ورايت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضا ، فقلت : ماشأنكم ؟ فقالوا : ان الذى تخيلنـاه جبلا هو الرخ ، وان رآنا أهلكنا ، وبيننا وبينه اقل من عشرة اميال . ثم ان الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته . وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الى جاوة

عرس بسومطرة

ونزلنا سومطرة فوجدنا سلطانها الظاهر قدم من غزوة له ، وجاء بسبى كثير ، فبعث لى جاريتين وغلامين ، وانزلنى منزلا طيبا واحضرنى أعراس ولده مع بنت اخيه . وشـاهدت يوم الجلوة ، فرأيتهم قد نصبوا فى وسط المجلس منبرا كبيرا ، وكسوة بثياب الحرير • وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها ، بادية الوجه ، ومعها نحو اربعين من الوصيفات يرفعن اذيالها ، من نساء السلطان ونساء امرائه ووزرائه ، وكلهن باديات الوجوه ، ينظر اليهن كل من حضر ، من رفيع او وضيع،

وليست تلك بعادة لهن الا فى الاعراس خاصة

وصعدت العروس المنبر وبين يديها اهـــل الطرب رجالا ونساء ، يلعبون ويغنون ، ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير ، وفوقه قبة ، والتاج على رأسه ، وعن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك ، وأمراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة ، وعلى رءوسهم الشواشى (ثيـــاب رفيعة) المرصعة . وهم اتراب العروس ، وليس فيهم ذو لحية . ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله . وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك . ونزل ابنه فقبل رجله ، وصعد المنبر الى العروس ، فقامت اليه وقبلت يده ، وجلس الى جانبها ، والوصيفات يروحن عليها . وجاءوا بالفوفل والتانبول (شجر عندهم) فأخذ منه الزوج بيده وجعل ما أخذه فى فمها ، ثم أخذت هى بيديها وجعلت ما اخذته فى فمه . ثم وضع عليها الستر ، ورفع المنبر وهما فيه الى داخل القصر . واكل الناس وانصرفوا . ثم لما كان من الغد جمع الناس ، وأجرى له ابوه ولاية العهد ، وبايعه الناس ، واعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب

في عالم البر

الارض المعمورة

كتب العرب عن الارض المعمورة كتابات جغرافية وتاريخية كثيرة ، وطافوا بأقاليمها وبلدانها وسجلوا ماشاهدوه وسمعوه، وفى كل ذلك يختلط الواقع بالخرافة ، والحقيقة بالاسطورة ، سواء فى حديثهم عن تاريخ الامم الاسطورى القديم ، أو عن عتيق البنيان وما أقيم عليه من تماثيل هى دائما فى رأيهم طلاسم وارصاد ، أو عن مظاهر الطبيعة المختلفة من جبال وانهـار وبحيرات وآبار وأشجار وحيوانات ، أو عن الافلاك والكواكب ومبدأ الخليفة . ولهم فى هذا المبدأ ونشأة الكون اساطير كثيرة، فمن ذلك هذه الاسطورة :

« لما اراد الله تعالى أن يخلق السموات والارض ، خلـق جوهرة خضراء اضعاف طبقات الارض والسموات ، ثم نظـر اليها نظرة هيبة فصارت ماء ، ونظر الى الماء ، فغلى وارتفـع منه زبد ودخان وبخار ، وارعد من خشية الله ، فمن حين ذلك يرعد الى يوم القيامة .. ثم بعث الله تعالى من تحت العرش ملكا فهبط تحت الارض فوضعها على عاتقه ، واحدى يديه فى المشرق والاخرى فى المغرب ... ولم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن ، واربعون الف قائمة ، وجعل قرار قدمى الملك على سنامه ، فلم تستقر قدماه ، فأحدر الله ياقوتة خضراء من أعلى الفردوس ، غلظها مسيرة خمسمائة عام ، فوضعها بين سنام الثور الى اذنه،

فاستقرت عليها قدماه .. ومنخر ذلك الثور فى البحر ، فهو يتنفس كل يوم نفسا ، فاذا تنفس مد البحر ، واذا رد نفسه جزر .. ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار . فخلق الله تعالى صخرة خضراء غلظها كغلظ السموات والارض ، فاستقرت قوائم الثور عليها .. ولم يكن للصخرة مستقر ، فخلق الله تعالى حوتا عظيما وضع الصخرة على ظهره ، ووضع الحوت على البحر »

ولعل العرب لم يصوروا اساطير امة فى مبدأ الخلق ونشأة الكون ، كما صوروا أساطير الهند ، فقد سجل البيرونى المتوفى فى القرن الحادى عشر الميلادى هذه الاساطير ، وفصل الحديث فيها بكتابه : « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » ومما ذكره فى هذا الكتاب أن أهل الهند يزعمون أن تحت الارض السفلى حية ذات الف راس ، تحمل الارضين من غير أن يئودها (يتعبها) ثقلها ، وتستدير السماء على القطب كدوارة الخزف ، ويدور القطب حول نفسه ، وتحرك الرياح الكواكب من حوله ، وهى مربوطة به برباطات لايراها الناس . وتحت القطب « جبل ميرو » الذى يعلو وجه الارض علوا مفرطا ، وتدور الكواكب حول سفحه ، وهى مسكن الملائكة ، وفيه انهار عذبة ومساكن ذهبية وجبال لا تحصى ، منها جبال مملوءة بالجواهر ، ورأس هذه الجبال « جبل قاف » الذى تدور الشمس منه نحو جبل ميرو . ويقول البيرونى أنهم يزعمون أن فى الارض اجناسا كثيرة غير جنس البشر ، فمن ذلك جنس لونه لون الذهب ، يعيش طويلا ، ولا يمرض مدى حياته ، ولا يرتكب وزرا ولا يتحاسد ، وغذاؤه مايعصره من ثمار النخيل ، وجنس لونه لون الفضة يعمر احد عشر الف سنة ،

لا يلتحى ، وطعامه قصب السكر . وفى الارض جبال لاتحصى ، منها جبال تسكنها الشياطين ، وجبال من جواهر كريمة أو من ذهب . ويزعمون ان نهر الكنج المقدس كان يجرى فى القديم على ارض الجنة ، ثم هبط الى الارض وانقسم الى سبع شعب ، وعليه وعلى شعبه قرى للاطهار القديسين واخرى لاناس وجوههم كأوجه الدواب او شفاههم منقلبة كآذانهم أو آذانهم على اكتافهم ... الى جم من هذه الاساطير

واذا كان البيرونى قد وضع تحت أعيننا أساطير الهند وخاصة ما اتصل منها بالبراهمة فان غيره من جغرافيى العرب ومؤرخيهم ورحالتهم قد جمعوا عن الامم والشعوب التى وصفوها أو زاروها كل ما سمعوه عنها من أساطير وخرافات وعجائب وهى تطالعنا فى كثير من المصنفات ، سواء عن عالم الانس أو عالم الجن أو عالم الملائكة أو عالم الطير والحيوان أو عالم الكواكب والافلاك

ولنضرب بعض الامثلة، فنحن نقرأ فيما نقرأ ان كثيراً من الكواكب كانت ملائكة عصت ربها فى السماء فأهبطها الى الارض فى صورة أناسى ثم عرج بها ثانية فمسخها شهبا . ويقال ان كوكب الزهرة كان بغيا صعدت الى السماء عن طريق معرفتها باسم الله الاعظم فمسخت كوكبا ، وكذلك كان نجم سهيل عشارا ، يجمع الاتاوات باليمن ، فجعله الله شهابا فى السماء . ويزعمون أن أم ذى القرنين كانت آدمية ، اما ابوه فكان من الملائكة . وكذلك جرهم تولد بين انسية وملك من الملائكة . وزعم بعض الزاعمين أن الفأرة كانت طحانة ومسخت وان الكلاب أمة من الجن مسخت فى هذه الصورة ، وانالحية كانت فى صورة جمل ، فعاقبها الله حين احتملت دخول ابليس فى

جوفهـــا حتى وســــوس الى آدم من فمهـــا ، فعوقبـت بقطــع ارجلهــــا والمشى على بطنهـــا وشـــق لسانها.
وقالــوا ان الســـــنور (الهر) خلق من عطســة الاســد ، وأن الضب خاصم الضفدع فأخذ منها ذنبها . وزعموا أن الجن تتوالد مع الانسان، وأكثروا من توليد الحكايات عن جن سليمان وقماقمه وخاتمه ، وعن الشياطين واغوائها للعباد وتمثلها لهم فى هيئة البشر ، وقالوا ان طيرا تخطف بعض الفيلة وان فى النيل خيولا تأكل التماسيح !

ومدار كل هذا التهريف أن من الناس من يبلغ من حبهم للغرائب والعجائب أن يجعلوا آذانهم هدفا للاساطير والخرافات فيدخلون الغث فى السمين ، والممكن فى الممتنع ، والاسطورة فى الحقيقة . وربما كان أقدم من صنع ذلك بين أصحاب الرحلات سلاما الترجمان ، الذى أرسله الخليفة الواثق (٢٢٧-٢٣٢ هـ) فى بعثة الى بلاد الخزر ، ليشاهد السد الذى بناه الاسـكندر ذو القرنين فى ديار يأجوج ومأجوج ، وتبعه الرحالتان اللذان مضى ذكرهما فى عالم البحر ، وهما سليمان البصرى وابن وهب القرشى ، يصفان سياحتهما فى بحر الهند وعلى شواطئه فى الصين وغير الصين ، فنسجا فى وصفهما كثيرا من خيوط الخيال والخرافة ، وصنع صنيعهما ابن فضلان الذى ارسله المقتدر الخليفة العباسى سنة (٣٠٩هـ) مع وفد الى ملك البلغار «التتار» على نهر الفولجا حين طلب اليه هذا الملك ان يرسل اليـــه من يفقهه فى الدين هو وقومه . وعاد ابن فضلان فوصف البــلاد الواقعة على بحر قزوين وما وراءه وصفا يعتمد على الخرافة فى كثير من جوانبه

وتبدأ فى القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى ، سلسلة

كتب العجائب ، اذ يصف أبو دلف مسعر بن مهلهل الخزرجى بلاد ايران وآسيا الوسطى والصين والهند وصفا مسهبا تتداخل فيه الاسطورة . وفى نفس القرن يكتب بزرك بن شهريار كتابه : « عجائب الهند » . وتتوالى كتب هواة العجائب ومن يكلفون بالغرائب ، وهم تارة يسردونها سردا ، وتارة يقصونها قصصا ممتعا . وقد فتح المؤرخون فصولا واسعة للملوك الاسطوريين ، وخاصة الاسكندر ذا القرنين وملوك الفرس الاولين ، على نحو مانرى فى كتاب : « غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم » للثعالبى ، وسنسوق اطرافا من حكاياته وأقاصيصه

بين الحقيقة والخيال

سد ياجوج وماجوج

قال سلام الترجمان ان الخليفة العباسي الواثق بالله رأى في المنام أن السد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج وماجوج مفتوح ، فأرعبه هذا المنام ، فاحضرني ، وامرني بقصده والنظر اليه ، والرجوع اليه بالخبر ، وضم خمسين رجلا ، واعطاني عشرة آلاف درهم ، ومائتى بغل تحمل الزاد والماء . فخرجنا من سرمن‌رأى (بالقرب من بغداد) بكتاب منه الى اسحق بن اسماعيل حاكم ارمينية ، بأمره فيه بانفاذنا وقضاء حوائجنا ، ومكاتبة الملوك الذين في طريقنا ليساعدونا ، فلما وصلنا اليه كتب الى صاحب السرير ، وكتب لنا صاحب السرير الى ملك اللان ، وكتب لنا ملك اللان الى فيلانشاه ، وكتب فيلانشاه الى ملك الخزر . فوجه ملك الخزر معنا خمسة من الادلاء ، فسرنا ستة وعشرين يوما فوصلنا الى ارض سوداء كريهة الرائحة ، وكنا قد حملنا معنا خلا لدفع غائلة رائحتها باشارة الادلاء ، فسرنا في تلك الارض عشرة أيام ، ثم صرنا الى مدن خراب ، فسرنا فيها سبعة وعشرين يوما ، فسألنا الادلاء عن سبب خراب تلك المدن ، فقالوا خربها يأجوج ومأجوج ، ثم صرنا الى حصن قريب من الجبل الذى يوجد السد في بعض شعابه ، ومنه جزنا الى حصن آخر وبلاد ومدن فيها قوم يتكلمون بالعربية والفارسية ، وهم

مسلمون يقرءون القرآن ، ولهم مساجد وكتاتيب ، فسألونا . من اين اقبلتم ؟ واين تريدون ؟ فأخبرناهم انا رسل الخليفة ، فأقبلوا يتعجبون من قولنا ، ويقولون : الخليفة ؟ فنقول : نعم ، فقالوا : اهو شيخ ام شاب ؟ قلنا : شاب ، قالوا : واين يكون ؟ قلنا : بالعراق فى مدينة يقال لها سر من راى ، فقالوا : ماسمعنا بهذا قط

ثم ساروا معنا الى جبل املس ، ليس عليه من النبات شىء ، واذا هو مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعا ، واذا عضادتان (جانباباب) مبنيتان مما يلى الجبل من جنبى الوادى ، عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعا ، الظاهر من سمكها عشرة اذرع خارج الباب وكله مبنى بحديد ، غيب فى نحاس ، فى سمك خمسين ذراعا ، واذا باب حديد طرفاه فى العضادتين ، طوله مائة وعشرون ذراعا ، وفوقه بناء بالحديد والنحاس الى رأس الجبل ، وارتفاعه مد البصر . وفوق ذلك شرفات حديد ، فى طرف كل شرفة قرنان ينثنى كل قرن الى صاحبه ، واذا مصراعا باب حديد مغلقان ، عرض كل مصراع ستون ذراعا فى ارتفاع سبعين ذراعا فى سمك خمسة اذرع . وعلى الباب قفل طوله سبعة اذرع فى غلظ باع ؛ وارتفاع القفل من الارض خمسة وعشرون ذراعا .. وبه مفتاح معلق طوله سبعة اذرع ، وهو فى سلسلة طولها ثمانية اذرع فى استدارة اربعة اشبار ، والحلقة التى فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق ، وارتفاع عتبة الباب عشرة اذرع فى طول مائة ذراع

ورئيس تلك الحصون يركب فى كل يوم جمعة فى عشرة فوارس ، مع كل فارس مرزبة حديد ، فيجيئون الى الباب ، ويضرب كل واحد منهم القفل والباب ضربات كثيرة ، ليسمع

من وراء الباب ذلك ، فيعلموا ان هناك حفظة ويعلم الرئيس وأصحابه أن يأجوج ومأجوج لم يحدثوا فى الباب حدثا . واذا ضربوا الباب وضعوا آذانهم ، فيسمعون من وراء الباب دويا عظيما

وبالقرب من الباب حصن كبير ، يكون فرسخا فى مثله ، يقال انه يأوى اليه الصانع زمان العمل ، ومع الباب حصنان كل واحد منهما مائتا ذراع فى مثلها . وعلى بابى هذين الحصنين شجر كبير لا يدرى ماهو ، وبين الحصنين عين عذبة ، وفى احدهما آلة البناء التى بنى بها السد ، من القدور والحديد والمغارف . وهناك بقية من قطع الحديد قد التصق بعضها ببعض من الصدأ ، والقطعة ذراع ونصف فى سمك شبر

وسألنا من هناك من اهل هذه البلاد : هل راوا احدا من يأجوج ومأجوج ، فذكروا انهم راوا منهم مرة عددا فوق الشرفات ، فهبت ريح سوداء ، فألقتهم الى جانبنا ، فكان مقدار الواحد منهم فى راى العين شبرا ونصف شبر . وهممنا بالانصراف ، فأخذ بنا الادلاء نحو خراسان ، فسرنا حتى خرجنا خلف سمرقند ، واخذنا طريق العراق حتى وصلنا . وكان بين خروجنا من سر من راى الى رجوعنا اليها ثمانية عشر شهرا

قال ياقوت الحموى بعد روايته لهذا الخبر : الله اعلم بصحة ذلك ، وعلى كل حال فليس فى صحة امر السد ريب . ونقول ان الريب فى الخبر وما ذكره سلام لا فى السد ، فقد جاء ذكره فى الكتاب العزيز

فى الصين

اقدم من تحدثوا عن الصين من رحالة العرب التاجر سليمان البصرى ،الذى ركب البحر اليهافى سنة (٢٣٧هـ) وتجول فى ربوعها، ونرى سليمان يصف الصين وبعض مدنها ومنتجاتها وعقائدها ، وسنقف عند بعض أخباره العجيبة ، فمن ذلك ما حكاه من أنه :

«فى كل مدينة شيء يدعى «آلدرا» وهو جرس على راس حاكم تلك المدينة مربوط بخيط ممدود على ظهر الطريق للعامة كافة ،وبينه وبين الحاكم أو الملك نحو من فرسخ ، فاذا حرك الخيط الممدود ادنى حركة تحرك الجرس ، فمن كانت له ظلامة حرك هذا الخيط ، فيتحرك الجرس منه على راس الحاكم أو الملك ، فيؤذن له بالدخول حتى ينهى حاله بنفسه ، ويشرح ظلامته ، وجميع البلاد فيها مثل ذلك . ولهم حجر منصوب ، طوله عشر أذرع ، مكتوب فيه نقشا ذكر الادوية والامراض ، مرض كذا دواؤه كذا ، واذا كان الرجل فقيرا اعطى ثمن الدواء من بيت المال . واهل الصين اهل ملاه ، وكل من قتل بالسيف عندهم اكلوا لحمه ! وبيوتهم من الخشب ، ويتزوج الرجل منهم ماشاء من النساء ، ويزعمون أن الاصنام تكلمهم وانما يكلمهم عبادها ، وهم يؤمنون بالتناسخ ، وهم من أحذق خلق الله كفا بالنقش والصناعة »

وتبع سليمان فى الرحلة الى الصين ابن وهب القرشى ، الذى زارها فى سنة (٢٥٦ هـ) ، وهو يقص علينا أن همته نزعت به بعد نزوله بخانفو (كانتون) الى زيارة ملك الصين فى عاصمته « حمدان » وهى تبعد عن خانفو نحو شهرين ، ويقول انه أقام بباب الملك مدة طويلة ، يرفع اليه الرقاع ، ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب . وأمر الملك بعد مدة بانزاله فى بعض المساكن ، وكتب الى واليه بخانفو يأمره بالبحث عن حقيقة الرجل وما يدعيه من قرابة نبى العرب ، وسؤال التجار عن ذلك . فكتب الوالى بصحة نسبة وصدق قوله ، فأذن له فى حضور مجلسه، ولما مثل بين يديه سأله : أتعرف صاحبك يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ابن وهب : وكيف لى برؤيته وقد توفاه الله من زمن بعيد ؟. فقال الملك : لم ارد هذا ، انما أردت صورته . وأمر باحضار سفط (سلة) فوضع بين يديه ، فتناول منه درجا (كتابا كبيرا) وقال للترجمان : اره صاحبه قال ابن وهب : فرأيت فى الدرج صـــور الانبيـــاء ... منهم من قد اشار بيده اليمنى وجمع بين الابهام والسبابة ، كأنه يومىء فى اشارته الى الحق ، ومنهم قائم على رجليه مشير بأصابعه الى السماء وغير ذلك . ثم سأله الملك لم عدلت عن ملكك وهو اقرب اليك منا دارا ونسبا . فقال ابن وهب: ما بلغنى من جلال ملك الصين وكثرة الخير به ، فأحببت الوقوع الى تلك الناحية ومشاهدتها . فسره ذلك وأمر له بجائزة سنية وبحمله على بغال البريد الى مدينة خانفو ، وكتب الى واليها باكرامه . فكان فى أخصب عيش وأنعمه الى ان خرج من بلاد الصين

ويروى ابن وهب ان رجلا وفد على خانفو من سمرقند ،

يقطع اليها البلاد بلدا بلدا ، وهو يحمل على ظهره مسكا فى زقّ، ليبيعه فى مجمع التجار القاصدين الى هذا البلد ، ويقول ابن وهب ان اجـود المسك ماجلب من بلاد التبت ، حيث تحكه الظباء على احجار الجبال ، اذ هو مادة تتجمع فى سرة الظبى ، وتتضام دما سائلا ، كاجتماع الدم فيما يعرض من الدمامل ، فاذا نضج حكه واضجره الحك ، فيفزع الى الحجارة حتى يخرقه ، فيسيل ما فيه ، فاذا خرج من مكانه جف واندمل وعادت المادة تتجمع فيه من جديد . ويخرج أهل التبت لجمعه والتقاطه وايداعه فى النوافج وحمله الى ملوكهم . ويقول ابن وهب ان ظباء هذا المسك تشبه الظباء فى بلادنا ،الا أن لهانابين دقيقين ابيضين فىالفكين طول كل واحدمنهما مقدار فتر ودونه على هيئة ناب الفيل

□

وزار الصين بعد هذين الرحالتين أبو دلف مسعر بن مهلهل حول سنة (٣٣١ هـ) مع بعثـة أرسلها الامـير نصر بن أحمد الساماني ، الى ملك الصين ، ليخطب منه ابنته لابنه . وقد عنى أبو دلف بذكر عجائب البلدان والاقوام الذين مر بهم ، وفى مادة الصين بمعجم البلدان لياقوت ملخص لما ذكره من هذه العجائب ، فمن ذلك :

انهم مروا بقبيـلة تعـرف بالكيمـاك ، بيوتهم من جلود ياكلون لحوم ذكران الضأن والماعز ، ولا يرون ذبح الاناث منها ، وعندهم عنب نصف الحبة ابيض ونصفها أسود ، وعندهم حجارة هى مغناطيس المطر ، يستمطرون بها متى شاءوا ! ولهم معادن ذهب فى سهل من الارض يجدونه قطعا ،

وعندهم ماس يكشف عنـه السيل ونبات حلو الطعم ينوم ويخدر ، ومن تجاوز منهم ثمانين سنة عبدوه . ومروا بقبيلة تعرف بالتغزغز لهم عند ظهور قوس قزح عيد ، وصلاتهم الى مغرب الشمس وخـرجوا منها الى قبيلة الخرخير ، وهم يصلون الى الجنوب ويعظمون زحل والزهرة ، وعندهم حجارة تضيىء بالليل يستغنون بها عن المصباح

وما يزال أبو دلف يتحدث عن القبائل التى يمرون بها حتى يصلوا الى سندابل حاضرة ملك الصين ، فيقول : هى مدينة عظيمة ، يبلغ السير حولها يوما ، ولها ستون شارعا ينفذ كل شارع منها الى دار الملك ، وسرنا الى باب من أبوابها ، فوجدنا ارتفاع سورها تسعين ذراعا وكذلك عرضه ، وعلى رأسه نهر عظيم يتفرق على ستين جزءا ، كل جزء منها ينزل على باب من الابواب ، تتلقاه رحى تصبه الى ما دونها ، ثم الى غيرها حتى يصب فى الارض . ويخـرج نصفه تحت السـور فيسقى البساتين ، ويرجع نصفه الى المدينة ، فيسقى أهل ذلك الشارع الى دار الملك ، ثم يخرج فى الشارع الآخر الى خارج البلد ، فكل شارع فيه نهران ، وكل خلاء فيه مجريان ، كل واحد فيهمـا يخالف صاحبه ، فالداخل يسقيهم والخارج يخرج بفضلاتهم . ولهم بيت عبادة عظيم ، ولهم سياسة واحكام متقنة ، وبيت عبادتهم أعظم من مسجد بيت المقدس ، وفيه تماثيل وتصاوير وأصنام ، وهم لايذبحون ولا يأكلون اللحوم اصلا ، ومن قتل شيئا من الحيوان قتل

▱

ومما رواه القزوينى من عجائب الصين أن باقصاها هيكلا مدورا ، له سبعة أبواب ، وفى داخله قبة عظيمة البنيان عالية

السمك ، وفى أعلاها جوهرة كرأس العجـل ، يضىء منهـ
جميع اقطار الهيكل ، ومن دنا منها قدر عشرة أذرع خر ميتا !
وان تعرض احدلهدم الهيكل مات ! وفى هذا الهيكل بئر واسعة،
من اكب عليها وقع فى قعرها ، وعلى راس البئر شبه طوق
مكتوب عليه : هذه البئر مخزن الكتب التى هى تاريخ الدنيـا
وعلوم السماء والارض وما كان فيها وما يكون ، ولا يصل اليها
الا من وازن علمه علمنا . والارض التى عليها هذا الهيكل أرض
حجرية عالية كجبل شامخ لايرام قلعه ولا يتأتى نقبه . ومن
عجائب الصين ان بها طاحونة يدور حجرها الاسفل والاعلى
ساكن ، ويخرج من تحت الحجر دقيق لانخالة فيه ، ونخالة
لادقيق فيها ، وكل واحد منهما منفرد عن الآخر . وبالصين
قرية عندها غدير فيه ماء يجتمع اليه أهل القرية فى كل سنة،
ويلقون فيه فرسا ، وكلما ارادت الخـروج منعوها ، حتى
يسقط عليهم المطر ، فاذا أمطروا قدر كفايتهم وامتلأ الغدير
اخرجوا الفرس وذبحوها فوق جبل وتركوها للطير ، فاذا لم
يفعلوا ذلك فى احدى السنين لم تمطرهم السماء . وعندهم
دابة المسك ، وهى دابة تخرج من ماء البحر فى كل سنة فى
وقت معلوم فيصطادون منها شيئا كثيرا ، وهى تشبه الظباء ،
ويذبحونها ويأخذون الدم من سرتها ، وهو المسك ولا رائحة
له هناك حتى يحمل الى غيرها من الاماكن !

وزار ابن بطوطة الصين وتحدث عن عجائبها واحكام أهلها
للصناعات ، وخاصة التصوير ، ومن عجيب ما شاهده من ذلك
كما يقول : انه مادخل قط مدينة من مدنهم ، ثم عاد اليها الا
ورأى صورته وصور رفقائه منقوشة على الحيطان أو على
الاوراق موضوعة فى الاسواق . وقد لاحظ أنهم يجرون على
المكفوفين وذوى العاهات نفقة وكسوة من أوقاف معابدهم

فى بلاد الهند

عرف العرب الهند منذ فتحها محمد بن القاسم الثقفى ، فى أواخر القرن الاول للهجرة ، وقد اخذوا منذ هذا الفتح يختلطون بأهلها ، وينقلون عنهم عروض تجارتهم بحرا وبرا ، كما نقلوا عنهم كثيرا من حكمهم وكتبهم وأساطيرهم ومعتقداتهم. وبعض مانقلوه عنهم من ذلك أخذوه عمن أسلموا منهم ، أو عن الفرس ، مثل كتاب كليلة ودمنة . وقد نقلوا عنهم فى الرياضيات والفلك والنجوم كثيرا، كما عرفوا أطرافا من تأملاتهم المتصلة بنزعاتهم الصوفية ، وكان لهذه التأملات أثرها فى التصوف الاسلامى ، وايضا فانهم عرفوا كثيرا عن نساكهم من البراهمة وغيرهم ، وتعذيبهم لانفسهم تطهيرا لها من الآثام ، وما اشتهر عندهم من حرقهم لاجسادهم أو اغراق أنفسهم فى نهر الكنج المقدس

واسترعى هذا الاحراق والاغراق نظر ابن وهب القرشى ، فتحدث عنه ، ولاحظ أن منشأ ذلك عندهم ايمانهم بالتناسخ، وتمكنه من قلوبهم ، وزوال الشك عنهم فيه . يقول : واذا احرق الملك نفسه أو مات احرق رجاله المقربون اليه انفسهم بالنار ، حتى لايبقى منهم عين ولا اثر ، ومنهم من اذا عزم على احراق نفسه أوقدت له النار ، حتى تصير كالعقيق حرارة والتهابا ، ويدورون به فى اسواقهم ، وبين يديه الصنوج ، وعلى

راسه اكليل من الريحان ، ويصبون عليه الزيت والنفط ، وقد يمشى بين النـــاس وهو يحترق حتى تأتى النـــار عليه ، ويصبح هشيما تذروه الرياح • ومنهم من يشق صدره قبل دخوله فى النار أو يشق بطنه ، وينزع قطعة من كبده ، استهانة بالموت وصبرا على الالم ، ومنهم من يغرق نفسه فى الكنج، كل ذلك ثقة منهم بالرجعة الى الحياة فى صورة اخرى

ويقول ابن وهب : للهند عباد وأهل علم بلاهوتهم يعرفون بالبراهمة ولهم شعراء يغشون الملوك ، ومنجمون وفلاسفـــة وكهان وسحرة ، يظهرون ضروبا غريبة من السحر والتخاييل . ومن البراهمة قوم عراة قد غطت شعورهم أبدانهم ، واظفارهم مستطيلة كالحراب ، وهم يسيحون فى الهند ، وفى عنـــق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم البشر ، فاذا اشتد بواحد منهم الجوع وقف بباب بعض الهنود ، فاذا راوه اسرعوا اليه بالارز المطبوخ ، مستبشرين به ، فيأكل فى تلك الجمجمة ، واذا شبع انصرف ، ولا يعود الى طلب الطعام • وينهى ابن وهب حديثه بأن للهند شرائع يتقربون بها ــ كما زعموا ــ الى خالقهم . جل الله وعز عما يقولون ، وتعالى علوا كبيرا . ولهم هياكل كبيرة ، وأصنام عظيمة يعبدونها ، ويقوم عليها سدنة ، ومن أصنامهم مايقصدونه من مسيرة أشهر كثيرة

□

وتحدث أبو دلف مسعر بن مهلهل عن عجائب الهند ومـــا بها من هياكل لعبادتهم ، وقال انهم لايذبحون الحيوان ، ولا يأكلون السمك ولا البيض ، وهم من عبدة الكواكب ، ولهم حساب محكم ، ومعرفة بالنجوم كاملة ، وتعمل الاوهام فى طباعهم ، فمن ذلك مايحكون من أن بعض ملوكهم بعث الى أحد

الاكاسرة (ملوك الفرس) هدايا فيها صندوقان مقفلان ، فلما فتحوهما وجدوا فى كل صندوق رجلا ، فسألوهما عن شأنهما، فقالا : « نحن اذا أردنا شيئا صرفنا همتنا اليه ، فيحدث » فاستنكر كسرى ذلك واستبعده ، فقالا : « جربنافى عدو لك لاتستطيع قهره بالحرب ، فانا اذا صرفنا همتنا اليه مات » فقال كسرى لهما : اصرفا همتكما الى موتكما ، قالا : « اغلقوا علينا صندوقينا » فأغلقوهما ، ثم كشفوا عنهما ، فوجدوهما ميتين

ونزل مسعر فى مدينة « الملتان » (فى الجزء الغربى من البنجاب) وهى بيت حجهم ، ودار عبادتهم ، وبها صنمهم الاكبر الذى كانوا يحجون اليه ، ويقدمون له ولسدنته القرابين والنذور ، وهو مبنى فى هيكل كبير ، وعليه قبة سمكها فى الهواء ثلثمائة ذراع ، اما طوله فعشرون ذراعا ، وصورته انسان جالس متربع على كرسى ، وعيناه جوهرتان ، وعلى راسه اكليل من الذهب ، وقد مد ذراعيه على ركبتيه ، وجعلت اصابعه كالقابض على اربعة فى الحساب ، وهو معلق فى جوف القبة ، لاتمسكه قائمة من اسفله ولا علاقة من اعلاه ، وهو ثابت فى مكانه بتأثير مغناطيس يجذبه . وزعم مسعر انه راى فى السند هيكلا من ذهب ، فى صحراء قدرها أربعة فراسخ ، والثلج لايقع عليه بينما يقع على ما حوله !

▱

واكبر من تحدثوا عن الهند وأعظمهم شأنا ابو الريحان البيرونى المتوفى سنة (٤٤٠ هـ) فقد مكث فى الهند أربعين سنة درس فيها لغتهم السنسكريتية وثقافتهم ومعارفهم فى الميثولوجيا وفى الفلك والتنجيم ، ودون دراسته

فى كتابه : « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل او مرذولة » . وكان فيلسوفا ناقدا بصيرا ، فأحاط بكتبهم المقدسة ، وجملة اساطيرهم وعلومهم ومعارفهم ، وصور ذلك فى كتابه تصويرا دقيقا

ونحن لانكاد نقرأ فى هذا الكتاب ، حتى نرانا ندخل فى عبادة أو ديانة وثنية معقدة، تكثر فيها الآلهة وتكثر الارواح وتنبث فى قوى الطبيعة ، فاذا كل قوة لها الهها الذى يرمز اليها ، من مثل اندر ويرمز الى العاصفة ، وهو رئيس الملائكة ، ومثل سومى وهو يرمز لنبات مقدس يسكر عصيره الآلهة والناس جميعا ، ومثل أجنى رمز النار ، وبراهما هو كبير آلهتهم . وكانوا يعتقدون ان الكون يمتلىء بالارواح من حولهم ، ومنها الخيرة والشريرة ، وهى أرواح الشياطين ، ولا ينجى الانسان منها الا مهارته فى السحر ومعرفته بالرقى والتعاويذ ، ولذلك كان للسحر عندهم شأن عظيم . ومن مزاعمهم فى نشأة العالم ان الها عظيما شعر بالوحدة ، فانشق نصفين ، نشأ منهما كل الخلق ، اذ انقسم الى زوج وزوجة ، مازالت تختفى منه فى صور الكائنات ، وهو يتمثل لها ذكرا سويا فى كل صورة تتحول اليها ، فاذا تحولت بقرة تحول ثورا واذا تحولت فرسا تحول حصانا ، واذا تحولت أتانا تحول حمارا ، واذا تحولت نعجة تحول كبشا ، وهكذا خلقت الكائنات زوجين زوجين ، وهى جميعا ترجع الى خالق واحد ، اذ ليست أكثر من صور مختلفة له . وواضح ماتحمله هذه الاسطورة من فكرة وحدة الوجود ، وتناسخ الارواح ، فى صور مختلفة . ويحكى البيرونى من مزاعمهم :
ان براهما الاكبر رأى شرارة تحت الارض ، فأخرجها وجعلها اثلاثا ، الاول النار المعهودة التى توقد بالحطب ويطفئها الماء ،

والثانى الشمس ، والثالث البرق . وعندهم أن العالم ينقسم الى علو وسفل ، وفى العالم العلوى الجنة ، وفى العالم السفلى مجمع الحيات وهو جهنم ، وفى العالم الاوسط الناس ، وهم يثابون بالصعود الى العالم الاعلى ، ويعاقبون بالهبوط الى العالم الاسفل ، كل حسب عمله ، وفى اعتقادهم ان النفس ترتبط بالعالم عن طريق وثاق جسدها ، ولذلك يتهاونون بالبدن ويحاولون فراقه بالحرق أو الغرق . واجناس الخلائق عندهم ثلاثة : الروحانيون فى الاعلى ، والبشر فى الوسط ، وفى الاسفل الحيوانات ، أما انواع الخلائق فأربعة عشر ، منها للروحانيين ثمانية هى براهما واندر وسوما الخ . وللحيوانات خمسة : بهائم ووحش وطير وزحافة ونابتة ، وهى الاشجار ، أما البشر فنوع واحد ، ومع كل هؤلاء الابالسة والشياطين . ويتقدم النساك وسدنة النار عندهم على الاطباء والمنجمين وأصحاب العلوم . ويوغل البيرونى فى بحث شرائعهم وعبادتهم للاصنام ، حاكيا لاساطيرهم فى ذلك كله ، ومن طريف ماقصه عن مبدأ عبادتهم للاصنام والتماثيل هذه الاسطورة :

« كان فيما مضى من الازمنة ملك يسمى أنبرش ، نال من الملك مناه فرغب عنه ، وزهد فى الدنيا ، وتخلى للعبادة والتسبيح زمانا طويلا ، حتى تجلى له الهه فى صورة «اندر» رئيس الملائكة ، راكبا فيلا ، وقال له : سل مابدا لك لاعطيك اياه ، فأجابه : بأنى سررت لرؤيتك ، وأشكر ما بذلته من الاسعاف ، لكنى لست أطلب منك شيئا ، انما أطلب ممن خلقك قال اندر : ان الغرض من العبادة حسن المكافأة عليها ، فحصل الغرض ممن وجدته منه ، ولا تقل : انى لا أريد منك بل من غيرك . قال الملك : أما الدنيا فقد حصلت لى ، وقد رغبت عن

جميع مافيها ، وأنما مقصودى من العبادة رؤية الرب ، وليست اليك ، فكيف أطلب حاجتى منك ؟ قال أندر: كل العالم ومن فيه فى طاعتى فمن أنت حتى تخالفنى ؟ • قال الملك : أنا كذلك سامع مطيع الا أنى أعبد من وجدت أنت هذه القوة من لدنه ، وهورب الكل الذى حرسك من الغوائل ، فخلنى وما آثرته ، وارجع عنى بسلام . قال أندر : فاذا ابيت الا مخالفتى فانى قاتلك ومهلكك قال الملك : قد قيل : ان الخير محسود والشر له ضد،ومن تخلى عن الدنيا حسدته الملائكة ، فلم يخل من اضلالهم اياه ، وأنا من جملة من أعرض عن الدنيـــا ، واقبل على العبادة ، ولست بتاركها مادمت حيا ، ولا أعرف لنفسى ذنبا أستحق به منك قتلا فان كنت فاعله بلا جرم منى فشأنك وما تريد • على أن نيتى ان أنا خلصت لله ولم يشب يقينى شوب لم تقدر على الاضرار بى وكفانى الآن ما شغلتنى به عن العبادة وانى راجع اليها • ولما أخذ فيها تجلى له الرب فى صورة انسان ، على لون النيلوفر الاكهب (الاسود) ، بلباس أصفر ، راكبا الطائر المسمى جرد،فى احدى أيديه الاربع الحلزون الذى ينفخ فيه على ظهـور الفيلة ، وفى الثانية سلاح مستدير حاد ، وفى الثالثة حرز ، وفى الرابعـة نيلوفر أحمر • فلما رآه الملك اقشعر جلده من الهيبة وسجد وسبح كثيرا ، فآنس وحشته وبشره بالظفر بمرامه ، فقـــال الملك : كنت نلت ملكا لم ينازعنى فيه أحد وحالة لم ينغصهـا على حزن أو مرض فكأنى نلت الدنيا بحذافيرها ، ثم أعرضت عنها لما تحققت أن خيرها فى العاقبة شر عند التحقيق ، ولـم أتمن غير ما نلته الآن ، ولست أريد بعده غير التخلص من هذا الرباط . قال الرب : هو بالتخلى عن الدنيا بالوحدة والاعتصام بالفكرة وقبض الحواس اليك • قال الملك : هب أنى قدرت

على ذلك بسبب ما أهلت له من الكرامة فكيف يقدر عليه غيرى ، ولابد للانسان من مطعوم وملبوس ، وهما واصلان بينه وبين الدنيا فهل من طريق غير ذلك ؟ . قال الرب له : استعمل بملكك وبالدنيا الوجه الاجود والاحسن ، واصرف النية الى فيما تعمله من تعمير الدنيا وحماية أهلها ، وفيما تتصدق به وفى كل الحركات ، فان غلبك نسيان الانسية ، فاتخذ تمثالا كما رأيتنى عليه ، وتقرب بالطيب والازهار اليه ، واجعله تذكارا لى لئلا تنسانى ، حتى ان فكرت فبذكرى ، وان حدثت فباسمى ، وان فعلت فمن أجلى . قال الملك : ثم غاب الشخص عن عينه ، فرجع الى مقره وفعل ما أمره به . قالوا فمن حينئذ تعمل الاصنام ، بعضها ذوات أربع أيد كما وصفنا ، وبعضها ذوات يدين . وأخبروا ايضا انه كان لراس البراهمة ابن لم تكن له همة غير رؤية الرب ، وكان يمسك عصا معه ويلقيها فتصير حية ، ويعمل بها العجائب ، وكانت لا تفارقة وبينما هو فى فكره يتأمل يوما اذ رأى نورا من بعيد ، فقصده ونودى منه : ان ما تسأله وتتمناه ممتنع الكون ؛ فليس يمكنك أن ترانى الا هكذا ، ونظر فاذا شخص نورانى على مثال أشخاص الناس . ومن حينئذ وضعت الاصنام والصور . ومن أصنامهم المشهورة صنم مولتان باسم الشمس ، وفى عينيه ياقوتتان حمراوان ، ويقولون انه أقيم منذ مائتين وستة عشر ألف سنة »

ويفيض البيرونى فى ذكر اصنامهم وهيآتها ، وكيف يصنعونها ، ويتحدث بالتفصيل عن كتبهم الدينية وسائر علومهم وشعرهم وعروضه وحسابهم وأعداده التى وضعها رأس البراهمة وكان مترهبا ، عقد مجمعا من الحكماء سن شرائعهم

وهو الذى وضع نظرية أدوار حياة العالم ، كانوا يزعمون أنه قال : « ان عمر العالم أثنا عشر ألف دور مقدار كل دور ست وثلاثون ألف سنة »

وعرض البيرونى لسحر أهل الهند الذى اشتهروا به وتخاييلهم بوجه من وجوه التمويه ، وقال ان اصحاب هـذه الصـناعة مجتهدون فى اخفائها ، ومنقبضون عمن ليس من أهلها ، وهى صناعة تقوم على معاجين وتراكيب أدوية ، اكثرها من النبات وأصوله ، ويزعم أهلها أنهم يستطيعون أن يعيدوا الصحـة الى المرضى والشباب الى الشيب والشيوخ • ومن أساطيرهم التى يروونها فى هذا الباب ، أنه كان فى مدينة « أوجين » رجل يسمى « بيارى » صرف الى هذا الفن همته ، وأفنى فيه عمره وما ملكه ، ولم يفـده كل ذلك ما يسـهل عليه مقصـده فجلس على شط نهر متحسرا مغتما ضجرا، وبيده الدرج الذى كان يأخذ منه نسخ الادوية ، فجعل يطرح فى المـاء منـه ورقة بعد ورقة • واتفق أن كان على شط ذلك النهر فى أسفله امرأة بغى ، فمرت الاوراق عليها فجمعتها واطلعت منهـا على صناعته بالسحر وهو لا يراها ، وما زال حتى فنيت الاوراق ، فأتته سائلة عن سبب فعله بكتابه ، فأجابها : لانى لم أنتفع به ، ولم أصل الى شىء من أربى ، وأفلست بسببه بعد الاموال الكثيرة ، وشقيت بعد الامل الطويل فى نيل السعادة • قالت المرأة : لا تعرض عما أفنيت فيه عمرك ، ولا تيأس من وجود شىء قد أثبته الصناع قبلك • فربما كان الحائل بينك وبين الوصول الى حقيقته امرا تافها ، ولى اموال كثيرة وكلها لك مبذولة لتنفقها على مطلوبك • فعاد الرجل الى عمله ، وكان يجد فيه صعوبة لان كتب هذا الفن مرموزة ، فكان يقـع له

غلط من جهة اللغة فى الدهن أو فى دم الانســـان ، فيخلف الدواء ولا ينجح ، وفى يوم أخذ فى طبخ الادوية ، وأصابت النار رأسه ويبست دماغه ، فادهن بدهن كثير صـــبه على هامته ، وقام من عند المستوقد لشغل . فوافق سمت رأسه من السقف وتد ناتىء ، فشجه وأدماه ، وعاد مطرقا للالم الذى عراه ، وتقطر من يافوخه الى وعاء الادوية قطرات دم ممزوجة بالدهن ، وهو لا يفطن لذلك ، الى أن تم مزج الادوية ، فطلى بها نفسه للامتحان وصنعت صنيعه المرأة ، فطارا فى الهواء ! وعمل فى ذلك الفن كتبا مشهورة ، وهو معها الى الآن حى لم يمت . هكذا يزعمون ! »

قال البيرونى : ومن مشابه هذه الاسطورة أن فى مدينـة « دهار » على باب الوالى فى دار الامارة ، قطعة فضية مربعة مستطيلة فيها تخاييل أعضاء انســـان ، وقد ذكروا فى أمرهـــا :

« أن رجلا فى مواضى الازمنة اشتهر بأدوية ، من عماهـــا بقى حيا لا يموت ، مظفرا لا يغلب ، قادرا على ما يروم ويطلب فسمع به ملكه ، فأحضره وأمر باحضار جميع ما طلبـــه ، وأخذ الرجل فى اغلاء دهن أياما ، ثم قال للملك : ارم بنفسك فيه حتى أتمم لك الامر ، فهال الملك ما رأى ، وخـــاف من التغرير بنفسه . فلما أحس الرجل خوفه وفزعه قال له : «ان كنت لا تجترىء على ذلك ولا تريده لنفسك فهل ترضـــاه لى حتى أفعله بنفسى ؟ » قال الملك : « ذلك اليك » فأخرج الرجل صرر أدوية ، وعرفه بعلامات تظهر منه ، ليلقى عليه عند ظهور كل واحدة منها صرة معينة . وقام الرجل الى الدهن وتردى فيه ، فتفسخ وصهر جلده وجسده ، وأخذ الملك يفعل مـــا

مثله له الى أن قرب التمام ، وبقيت صرة ، فأشفق الملك منه على ملكه ، اذا انبعث كما ذكر • فتوقف عن القـــاء الصرة ، وبرد القدر والرجل مجتمع فيه • فأخرج بما عليه ، وهو تلك القطعة من الفضة ! »

ولهم فى التعاويذ والرقى اعتقاد بالغ ، وأكثرها ينصرف الى الملدوغ ، قال البيرونى : « ويبلغ من افراطهم فى هذا الباب أنى سمعت بعضهم يزعم أنه رأى ملسوعا ميتا قام بالرقية وتكلم وأوصى ، ودل على الودائع والاشياء ، ولما استنشـــق رائحة الطعام خر ميتا هامدا »

ومن خرافاتهم أن ملكا من ملوكهم ذهب الى جبل قاف هرما قد حناه الكبر ،وانصرف منه شابا معتدل القامة ممتلئا بالقوة قد اتخذ السحاب مركبا • وعقب البيرونى على ذلك كله بقوله: « ولست أدرى ماذا أقول فى هذه الخرافات » ومما رواه منها : « زعم بعض الهنود أنهم شاهدوا ظباء ذات أربعة أعين ، وأن فى بعض براريهم دابة ذات أربع قوائم ، وعلى ظهرها أربـــع قوائم أخرى ذاهبة الى أعلى ، ولها خرطوم صغير ، وقرنان عظيمان تضرب بهما الفيل فتقطعه نصفين ، وأنها ربما نطحت دابة ، ورفعتها الى ظهرها ، فوقعت بين قوائمها العليا فتعفنت وحينئذ تحك ظهرها فى الشجر حتى تموت وأنها ربما سمعت صوت الرعد فظنته حيوانا وقصدته ، ووثبت اليه . وممـــا يزعمونه أنه يوجد نحو الشرق جبال القردة ؛ وفى كل يوم يخرج ملكها مع الجماعات منها ، ولهم مجالس مهيئة ، ويحمل أهل تلك الارض للقرود الارز المطبوخ على أوراق ، فاذا طعمت رجعت الى الغياض ، وان تغافلوا عنها كان فى ذلك هـــلاك الناحية لكثرتها وشدة صولتها • وفى رأيهم أنها أمـــة من

الناس ممسوخة ! »

وللهند في الافلاك والكواكب والنجوم أساطير كثيرة ، عرضها البيروني ، ونضرب لها بعض الامثلة فمن ذلك ما كانوا يزعمونه عن نجم سهيل من أنه : « لما طلعت الشمس في المبدأ ، وسامتت جبل بند الشامخ في مرورها أنكر علوها وبعثته الكبرياء على التعرض لها ليمنعها عن مسيرها وقصدها، ويحبس عجلتها عن المرور فوقه ، فارتفع حتى قرب من الجنة ومواطن الروحانيين ، فأسرعوا اليه لطيبه ونزهة بساتينه ورياضه واستوطنوه فرحين ، يتردد فيه نساؤهم ويلعب أولادهم حتى اذا هبت الريح على ثياب بناتهم البيض تحركت كالرايات الخافقة ، ورؤيت السباع والاسود في شعابه حالكة الالوان ، والقرود تعلو قممه ، والزهاد في غياضه مقتصرين على التغذي بثماره . ولما رأى سهيل ابن الماء ذلك من فعل الجبل ، عرض عليه الصحبة فيما قصده ، واقبل على البحر يبلع ماءه حتى غاض ، وبدت سفوح جبل بند ، فتشبثت دواب الماء به تخدشه حتى ثلمته بالحفر ، وثقبته أخاديد ، احتفظت بالجواهر واللآلىء فيها تزدان بها وبالاشجار والحيات . واعتاض البحر عن ذلك بحسن لمعان السمك فيه وظهور الجواهر في قراره التي يتزين بها زينة السماء بالكواكب . وكل ذلك من فعل سهيل الذي يطهر الماء من الاوساخ الارضية . ومهما زادت الانهار ونقصت ، فانها تقدم ما على وجهها من أنواع النيلوفر وألوانه الى القمر وكذلك ما يسبح فيها من البط مثلما تقدم الفتاة الورود والتحف عند اقترانها . وما أشبه تردد البط الابيض في الماء مصوتا بشفتي الحسناء قد افترتا عن اسنانها وهي تضحك ضحك

الفرح ، بل ما أشبه النيلوفر الابيض والاسود بسواد حدقتيها وما يحيط بهما من بياض . فاذا رايت الحياض قد أشرق عليها ضياء القمر ، وانفتح ما انضم من نيلوفرها الابيض والاسود ظننتها وجه حسناء تنظر بعين دعجاء من مقلة بيضاء . وقد تسيل فى الحياض الحيات والسموم والقاذورات ، ولكن طلوع سهيل عليها يطهرها من النجاسات والآفات . ومن أجل ذلك كانت خطرة ذكر سهيل على بال الانسان ماحية لآثامه الموجبة لعقابه ، فانطلاق اللسان بمدحه أبلغ فى حط الاوزار عنه واكتساب الثواب . ويجب أن يعرف وقت طلوعه ويقدم القربان اليه .. وفى أول ظهوره يكون عسر الادراك لا يهتدى له كل ناظر ، فينبغى أن يسأل المنجم عن سمت مطلعه ، وحينئذ قدم النذور له ، وافرش الارض بما يتفق من الورود والرياحين ، والق عليها ما بدا لك من الذهب والثياب والجواهر البحرية ، وقدم البخور والزعفران والصندل والمسك والكافور مع ثور وبقرة وطعام كثير وحلوى . ومن فعل ذلك سبع سنوات متوالية بنية صالحة واعتقاد قوى وثقة ملك الارض والبحر المحيط بها من الجهات الاربع ! »

ولهم مع كل كوكب وكل جبل وكل شجرة كبيرة وكل ظاهرة فى الطبيعة مثل هذه الاسطورة ، بل ما يزيد عنها خرافة وتهريفا ، فمن ذلك ما يزعمون من أنه : « كان فى الزمن القديم ستة عشر جبلا تطير بأجنحة لها ، فأحرق أجنحتها شعاع « اندر » رئيس الملائكة ، فسقطت حول البحر المحيط ، فى كل جهة منه أربعة . وفيما بين الثالث والرابع من جبالها التى سقطت فى الشرق نار تشرب ماء البحر ، ولولا ذلك لامتلأ وفاض بدوام انصباب الانهار فيه . وزعموا

أنها نار ملك قديم لهم يسمى « أورب » ورث الملك عن أبيـــه وقد قتل وهو جنين ، فلما ولد وترعرع وسمع خبر أبيه غضب على الملائكة ، وجرد سيفه لقتلهم ، بسبب اهمالهم حفظ العالم مع عبادة الناس لهم ، وتقربهم اليهم ، فتضرعوا اليه واستعطفوه حتى أمسك • فقال لهم : « ماذا أصنع بنار غضبى ؟ ،فأشاروا عليه بالقائها فى البحر ، فهى التى تشرب مياهـــه » • ومن زاعمهم فى منازل القمر أنها بنات تزوج بهن ، وأولـــع من بينهن باحداهن وآثرها عليهن ، وحملت الغيرة أخواتهـــا على شكايته الى أبيهن ، فأغلظ عليه فى التسوية بينهن ووعظه فلم ينجع فيه وعظه وحينئذ لعنه فأصاب وجهه البرص • وندم القمر على فعله ، فجاءه تائبا عن ذنبه ، فقال له الاب : « ان قولى واحد لارجوع فيه ، ولكنى أستر فضيحتك فى كل شهر مدة نصفه فلا تظهر للناس » • فقال القمر : « فالذنب السالف كيف ينمحى عنى أثره ؟ » قال : « أنصب مخدومـــا لك ، ونصب له مخدوما أو صاحبا ، وهو الذى يرمز اليـــه صنم « سومناة » وسوم هو القمر ، ونات الصاحب ، فهو صاحب القمر ، وهو من أكبر اصنامهم » • وقد قلعه محمودالغزنوى فى سنة ست عشرة واربعمائة وكسر أعلاه

وميثولوجيا الهند واسعة ومعقدة • وعلى هذا النحو يمضى البيرونى فى تصويرها من جميع أطرافها ، وقد وقف طويلا عند رسوم البراهمة فى دينهم وصدقاتهم ومجاهداتهم ، وما كانوا يبيحونه ويحرمونه من المطاعم ، كما وقف عند قرابينهم وكيف كانوا يقدمونها الى النار لتقدمها بدورها الى الآلهة ، وزعموا فى سبب ذلك أنها خجلت فى أول الزمان من آلهتهم فسقطت الى الارض السفلى ، وأقبل بعض الآلهة ، يبحث عنها

فدلته عليها الضفدع ، فدعت عليها أن تكون ناقصة الصياح وتوارت فى شجرة فدلته الببغاء على مكانها ، فدعت عليها بانقلاب اللسان · وأخيرا عثرت الآلهة عليها فأصلحتها وقومتها ، وجعلتها واسطة بينهم وبين الناس ، تأخذ قربانهم منهم وتوصله اليهم

ويقص البيرونى حجهم الى الاصنام المقدسة ، والانهار المعظمة ، وعلى رأسها نهر الكنج ، ويزعمون أنه من أنهار الجنة ، حملته الآلهة الى الارض ، وجميعهم يرون من حق الميت على الورثة أن يغسل ويعطر ويكفن ثم يحرق بما أمكن من صندل أو حطب ، وتحمل بعض عظامه المحترقة الى نهر الكنج ليلقى بها فى الجنة . ومن عجز عن الاحراق ألقى الجثة فى الماء الجارى · وتحرق الارملة التى تؤثر اتباع زوجها ، وكذلك يحرق كل من مل حياته أو تبرم بجسده من مرض عياء أو شيخوخة وضعف ، وكأنما يرون فى النار باب خروجهم الى عالم وجودهم الحقيقى · ومن شعائرهم الصوم ، ومنهم من يطيله تقربا الى الله أيام شهر متوالية ، لا يفطر فيها البتة ، ويعتقدون أن من واصل جميع الشهور صائما ، فلم يفطر فى السنة الا اثنتى عشرة مرة ، مكث فى الجنة عشرة آلاف سنة ثم عاد الى الحياة فى أهل بيت ذى شرف ورفعة وحسب

◘

ولنترك البيرونى الى ما يقصه القزوينى من عجائب الهند فمن ذلك شجرة كسيوس ، وهى شجرة حلوة الثمرة يقع الحمام عليها ، ويأكل من ثمرتها فيغشى عليه ، وتراه الحيات فتقصده ، تريد أكله ، ولكنها لا تستطيع الاقتراب من الشجرة ما دام على أحد اغصانها أو فى ظلها · ومن ذلك البيش

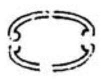
وهو نبت سام قاتل ، اذا أكل منه أى حيوان مات ، ومن غرائبه أن فأرة تتوالد تحته ، اذا أكلت منه لم يصبها أى ضرر ، ويقال ان ملوك الهند اذا أرادوا الغدر بأحد عمـدوا الى الجـوارى اذا ولدن وفرشوا من هذا النبت تحت مهودهن زمانا ، ثم تحت فراشهن زمانا ثانيا ، ثم تحت ثيابهن زمانا ثالثا ، ثم يطعمونهن منه فى اللبن ، حتى اذا كبرت الجارية وتناولت منه شـيئا لم يضرها ، ثم يبعثون بها مع الهدايا الى من أرادوا الغـدر بهم من الملوك ، فاذا اقتربوا منها ومسوها ماتوا فى الحال . وبها من يرقون من تلسعهم الحيات فيبرءون ولا يؤذيهم السم ! . وبها طير عظيم الجثة جدا ، اذا مات اتخذوا من نصف منقاره مركبا يركبونه فى البحر ! وببعض أرضهم نوع كبـير من النمل أسرع عدوا من الكلب ، وهو يأكل من يقترب منه ! . وبها جبل عليه صورة أسدين ، يخرج من فم كل منهما ماء كثير تدور عليه ساقيتان كل ساقية تروى قرية . وبها طائر على هيئة القمرى ، اذا أحضر الطعام وكان مسموما دمعت عيناه وجرى منهما ماء وتحجر ، فاذا تحجر سحق ، وجعل على الجراحات فتلتئم فى الحال . وبهـا معبد سومنات (فى شـمالى الهند) يحجون اليه عند خسوف القمر ، ويزعمون أنه هو الذى ينشىء الارواح بعد مفارقتها لاجسادها فيمن شاء ، على مذهبهـم المشهور فى التناسخ ، ويؤمنون بأن مد البحر وجزره عبادة له ، وبينه وبين الكنج مائة فرسخ وفى كل يوم يحملون اليه منه جرارا يغسلونه بها ، ويقوم على سدانته ألف رجل من البراهمة . وبيت المعبد مبنى على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص ، وقبته مظلمة وهى تضىء بقناديل الجوهر الفائق . ومن عجائب الهند حجر اذا ألقى على النار ونظر

اليه الانسان انتفخ ،حتى يصبح ضعف ما كان ، ويروى أن بعض الهنود جلب منه عودا ووضعه فى مجمرة أمام بعض النـــاس ففزع اذ رأى وجه من كان قاعدا معه انتفخ ، وشخصت عيناه وتغير فى الحال • فأمر برفع المجمرة ، فرجع جليسه الى حاله الاول ، فقال له : انى رأيتك قد انتفخت انتفاخا عظيما ، فقال له : وأنا أيضا رأيت منك ذلك • فعرفوا أنه من خاصية العود الذى القى فى المجمرة

وقد أقام ابن بطوطة فى الهند ثمانى سنوات تبدأ بسنة ٧٣٤ هـ واتصل بســـلطانها محمـــد بن تغلق ، فأكرم وفادته عليه وولاه منصب القضاء ، وقد وصف فى رحلته مدن الهند وعجائبها وصفا مسهبا ، وزعم فيما زعم أنه رأى على بعد سبعة أميال من مدينة لاهرى مدينة مسخ أهلها حجارة كما مســـخت حيـــواناتهم وحبـــوبهم من القمح والحمص والفول والعدس • وتحدث عن احراقهم لاجسادهم ، واغراقهم لانفسهم فى نهر الكنج المقدس ، كما تحدث عن الســـحرة الجوكية ، وأن منهم من يستطيع أن يتصور فى صورة سبع ، ويهجم على الدور ليلا ويفترس الصبية ، وهم يقتدرون قدرة غريبة على الصيام حتى ان منهم من يقيم الشهور المتعاقبـــة لا يأكل • والناس يذكرون أنهم يعتمدون على حبوب خاصـــة يأكلون الحبة منها لايام وأشهر معلومة ، فلا يحتاجـــون الى طعـــام ولا شراب ، ويخبرون بأمور مغيبـــــة وســـلاطينهم يعظمونهم • ومنهم من يقتصر فى أكله على البقـل ولا يأكل اللحم ألبتة

يقول ابن بطوطة : والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم

الرياضة على ذلك ، وهم يعزفون عن الدنيا وطيباتها ، ويزعم أن منهم من ينظر الى الانسان فيقع ميتا من نظرته . وتقول العامة هناك : انه اذا قتل انسان بالنظر من هؤلاء السحرة وشق عن صدره وجد دون قلب ! . وأكثر ما يكون هذا السحر فى النساء ، والمرأة التى تشتهر بذلك تسمى « كفتار » ويظل ابن بطوطة يهرف ويبالغ على هذا النحو الذى يجعل رحلته فى بعض جوانبها حديث خرافة



فى ايران وآسيا الوسطى

ربما كان أول من تكلم بالتفصيل عن عجائب ايران وآسيا الوسطى أبو دلف مسعر بن مهلهل الخزرجى ، وكان ـ كما قدمنا ـ قد رحل من بخارى الى الصين ثم رجع من الهند ، وذكر بعض أعاجيب رآها فى رحلته نقلنا أطرافا منها فيما مر من حديثنا عن بلاد الهند والصين ، وقد تغلغل فى التركستان وايران ، وسجل فى رسائل مختلفة مشاهداته الغريبة ، ونقلتها عنه كتب الجغرافيا وكتب العجائب ، وقد طبعت وزارة التربية والتعليم احدى رسائله ، وفيها يصف كثيرا من مدن ايران وآسيا الوسطى ، متحريا ذكر المعادن والنباتات والحيوانات والمنتجات المختلفة، وأول مدينة تحدث عنها فى هذه الرسالة مدينة شيز فى شرقى ايران ، وقد ذكر أن بها بيت نار لعبادة المجوس ، على رأس قبته هلال فضة هو طلسمه ، ويقول انه يوقد منذ سبعمائة سنة فلا يوجد فيه رماد ، ولا ينقطع عنه الوقود ساعة من الزمان ! وفى وسط هذه المدينة بحيرة لايدرك لها غور ، واذا قصدها عدو ونصب منجنيقه على سورها فان ما يقذف به من حجارة يقع فى البحيرة

وواضح من هذين الخبرين عن البحيرة وبيت النار مدى ما يدخله أبو دلف على وصفه من مبالغات ، وكان له خيال

يستطيع ان يقلب به الحقيقة الى عجيبة غريبة ؛ وهـــو أول من خط هذا الاتجاه ووسع فيه ، ليتحول فيما بعد الى كتب العجائب التى نوهنا بها فى القسم الاول من هذا الـكتاب ٠ وكان يكثر من ذكر الطلاسم التى تمتاز بها المدن ، فكل تمثال وكل هيئة غريبة طلسم ، وأيضا فانه تحـــدث عن تاريخ البلدان ومنشئيها من ملوك الفـــرس أو من غيرهم ، وهو تاريخ شعبى ان صح هذا التعبير ، وقد زعم أن الذى بنى مدينـــة شيز هو هرمز ملك الفرس

وألم أبو دلف بمدينة قرميسين وبجبل بيستون القريب منها ، ومعروف أنه نحتت به صور وتماثيل هى من عجائب الدنيا ، وبينها تمثال عظيم لدارا الاكبر ، يشير الى انتصاراته على ملوك ماثلين بين يديه . وبالقرب من ذلك طــاق بستان وبه تمثال لكسرى الثانى أبرويز على فرسه شبديز وصورة شيرين زوجته ووصيفاتها ومواليها ٠ وقد أورد ابن حوقل تفسيرا عجيبا لتمثال دارا والملوك القائمين بين يديه ، فقـــال ان هذه الصورة تمثل دارا اســـتاذا ، ومن بين يديه من الملوك تلاميذه ، وزعم أن الانحناء البادى فيه هو انحناءة الاستاذ فى يده سوط

ويمضى ابو دلف فيمر بهمذان ويذكر انها كانت مدينة دارا الاصغر الذى هزمه الاسكندر ، ولا تزال هذه المدينة فى وسطها، ويقول فى وصفها : « مدينة كبيرة مبنية على دكة (طوار فسيح) يكون ارتفاعها ثلاثين ذراعا ، ولها اربعة ابواب وطاقات عالية » ووصف أبى دلف للمدينة أو لقصر دارا غير دقيق ، ومعروف ان ملوك الفرس فى هذا التاريخ ، كانوا يتخذون لقصورهم درجا خارجيا يرقاه القادم الى الطوار الواسع الذى شيد عليه

القصر ببهوه الفسيح ، وغرفه ومقصوراته الكثيرة ، ويتراوح ارتفاع الدرج بين عشرين وخمسين قدما . ويستطرد ابو دلف فيذكر هذه الاسطورة التاريخية :

« قيل ان دارا لما زحف اليه الاسكندر شاور وزراءه فى مدينة حصينة يحرز فيها اهله وكنوزه ، فقال له بعضهم : أعرف مدينة خربة بين جبال شامخة وطرق وعرة ، أن بناها الملك واحرز فيها ذخائره ووكل بحفظها اربعة آلاف من ثقاته امتنعت على كل من رامها ، ووصفها له ، فسار اليها دارا حتى رآها وعلم انها تمتنع على من ارادها ، فبناها وجعل فيها خزائن جامعة لامواله وكنوزه ، وجمع فيها اهله ووكل بها ثقاته . فلما كان من أمر الاسكندر مع دارا ما كان ، أنفذ اليها جيشا عظيما ، فأقام عليها مدة لايقدر على فتحها ، فهم رئيس الجيش بالانصراف ، فقال له نصحاؤه : كاتب الاسكندر فى انصرافك وعرفه أمرها . فكتب اليه فى ذلك . وكتب الاسكندر الى مؤدبه أرسططاليس يعرفه أمرها ، فأجابه : صورها لى بطرقها وجبالها وأنهارها . ففعل ذلك ، وانفذ الصورة اليه . فكتب يأمره بسد نهرها على نحو فرسخ منها سنة بطولها ، ويوثق سده ، فاذا كان بعد سنة فتح ماءه وقرن البقر والجواميس والبغال والدواب بعضها مع بعض وارسلها فى الماء فانها تفتح السد ، واذا فتحته حمل الماء على المدينة فهدم سورها وتهيأ له دخولها . ففعل ذلك ، فاقتلع الماء بحدته لما انفتح السد سور المدينة وحمل معه صخورا كبارا لاتزال فى شوارعها ، ودخل اصحاب الاسكندر المدينة واستولوا عليها »

ويصل ابو دلف الى جبل دنباوند فى شمالى ايران ، وهو

أعلى جبالها ، اذ يبلغ ارتفاعه نحو ٢١ الف قدم ، ولا يفارق الثلج قمته صيفا ولا شتاء ، وهو يرى على مسيرة عدة أيام ، ويبعد من طهران الى الشمال الشرقى نحو خمسين ميلا ، وهو جبل بركانى كان لايزال يرسل حممه فى العصور الوسطى ، وقد وصفه جغرافيو العرب بأنه ينفث الدخان نهارا والنار ليلا ، وسيوله غنية بالمواد المعدنية ، وخاصة الكبريت ، وبه عيون كثيرة . وللفرس أساطير كثيرة ، حول الجبل تتصل بملوكهم الاسطوريين ، أمثال أفريدون ، ويقال انه سجن فيه الملك الظالم بيوراسب (الضحاك) باحدى قممه وانه لايزال حيا به على الدهر لايموت ، ويظنون أن الاصوات الكئيبة التى تسمع من البركان هى أنينه وتأوهاته ، وان الدخان الذى يتصاعد من شقوق الجبل والعيون التى عليه هما أنفاسه . وهناك أسطورة تزعم ان سليمان حبس بهماردا ، واخرى تزعم انه الجبل الذى رست عليه سفينة نوح . ولنترك أبا دلف يحدثنا عنه :

« بدنباوند جبل عال مشرف شاهق شامخ ؛ لايفارق أعلاه الثلج شتاء ولا صيفا ، لايقدر أحد من الناس أن يعلو ذروته ولا يقاربها ، يعرف بجبل بيوراسب . وتزعم العامة ان سليمان بن داود عليهما السلام حبس فيه ماردا من مردة الشياطين يقال له صخر المارد . ويزعم آخرون ان افريدون الملك حبس فيه بيوراسب ، وان دخانا يخرج من كهف فى الجبل تقول العامة انه أنفاسه . ويرون نارا فى بعض كهوفه فيقولون انها عيناه ، وان همهمته تسمع هناك . فاعتبرت ذلك وارتصدته ، ولزمت المكان وصعدت فى الجبل حتى وصلت الى نصفه بمشقة شديدة ومخاطرة بالنفس . وما اظن احدا

تجاوز الموضع الذى بلغت اليه ، بل لم يصل اليه انسان فيما اظن . فتاملت الجبال ، فرايت عينا كبيرة نقية وحولها كبريت مستحجر ، فاذا طلعت عليه الشمس والتهب ظهرت فيه نار . والى جانبـــه ماء (سيول) يمر تحت الجبل ، تخترقه رياح مختلفة ، فتحدث أصواتا متضادة على ايقاعات متناسبة ، فمرة مثل صهيل الخيل ومرة مثل نهيق الحمار ومرة مثل كلام الناس . وهى مثل الكلام الجهورى دون المفهوم وفوق المجهول ، يتخيل السامع انه كلام يدوى ولغة انسى ، وذلك الدخان الذى يزعمونه بخار تلك العين الكبريتيـــــة . وهذا الحال يحتمل على ظاهر هذه الصورة ماتدعيه العـــامة ! وما رأى احد راس هذا الجبل فى وقت من الاوقات منحسرا عنه الثلج ، الا وقعت الفتنة واريقت الدماء من الجهة التى يرون الثلج منحسرا عنها ! »

وقلما يذكر ابو دلف بلدا الا يعود ببنائها الى ملوك ايران أو بعض التبابعة اليمنيين أو جن سليمان . وتكثر هذه النسبة الاسطورية فى كتب العجائب ، كما تكثر معهـــا الخرافات

□

ولنستعرض بعض ماجاء فى كتابات القزوينى ، يقـــول عن « أبهر » احدى مدن ايران ان سابور هو الذى بناها ، وكانت كلها عيونا ،فسدها بالصوف والجلود وبنى المدينة عليها ، أما أصبهان فقد بناها الاسكندر المقدونى وعمرها بختنصر بأسراه من بيت المقدس. وقد نزل فى قديم الزمان عسكر فى « بروجرد » فمسخ حجارة صلدة . وبقرب نهاوند جبل عليه طلســـمان : صورة ثور وسمكة ، وجبل آخر عليـــــه ايوان كبير يســـع الف نفس ، وفى آخره أربعـــــة أحجار تشـــــبه أثداء

النساء يتقاطر من ثلاثة منها الماء • وبالقرب من قزوين جبل عليه صور حيوانات وأناس مسخت أحجارا ، منها راع متكىء على عصاه يرعى غنمه ، وامراة تحلب بقرة . وبجرجان عين بقربها دودة ، من اخذ من العين ماء ومست رجله تلك الدودة أصبح الماء مرا لايمكن شربه . ومن عجائب جيلان أن المطر يسقط بها مدرارا ، فاذا سمعوا بالليل صوت ابن آوى وأعقبه نباح كلب ، بشر بعضهم بعضها بصحو الغد • وبالقرب من طبرستان حصن الطاق ، وكان فى قديم الزمان خزانة ملوك الفرس ، وأول من اتخذه منهم منوجهر ، وهو نقب فى موضع عال فى جبل صعب المسلك ، والنقب يشبه بابا صغيرا ، فاذا دخله الانسان مشى نحو ميل فى ظلمة شديدة ثم يخرج الى موضع واسع شبه مدينة قد أحاطت بهالجبالمن جميعالجوانب، وهى جبال لايمكن صعودها لارتفاعها . وكان يحفظ هذا النقب فى ايام الفرس رجلان معهما سلم يدلونه من الموضع الذى هما فيه اذا اراد أحدهما النزول ، فلا يصل الى الارض الا فى دهر طويل !

وفى طبرستان على بحر الخزر شجرة اذا القيت شيئا من عيدانها فى الماء يموت ما فيه من السمك ، ويطفو على وجهه ، وفيها جبل به مغارة فيها دكة اذا لطخت بشىء انفتحت السماء وامطرت مطرا شديدا . وفيها حشيش من قطعه ضاحكا واكله ، غلب عليه الضحك ، ومن قطعه باكيا واكله غلب عليه البكاء ، وكذلك من قطعه راقصا ، فكل من قطعه وهو على حال غلبت عليه • ويقولون ان بها طائرا يسمى ككو ، ذيله يشبه ذيل الببغاء ، يظهر ايام الربيع ، فاذا ظهر تبعه صنف من العصافير موشاة الريش ، يخدمه طول نهاره ، ويأتى له

بالغذاء حتى اذا أمسى المساء أكل ماحوله من تلك العصافير ، واذا اصبح صاح فجاءته عصافير اخرى ، تقوم على خدمته حتى اذا جاء المساء اكلها ، وما يزال هذا شأنه طوال الربيع ، فاذا زال الربيع فقد ذلك النوع الى الربيع القابل

ومن بلاد التركستان طمغاج واهلها يتخذون من الذهب اوانيهم ، وهم زعر لاشعر على جسدهم ، رجالهم ونساؤهم . وفى مدينة تسمى الغور عين يذهب اليها الناس فى يوم معين من السنة ، فيرمون فيها بسهامهم ، فاذا اصبحوا وجدوا السهام خارج العين ، وعلى نصل بعضها رءوس الحيوانات من الذهب ، اما رأس طير أو سمك أو اوز أو حيوان آخر ، وبعض السهام تخرج وليس على رأسها شيء . وبها السمندل وهو حيوان كالفأر يدخل النار ولا يحترق ، ويخرج والنار قد ازالت وسخه وصفت لونه وزادته بريقا ، ويتخذ من جلده مناديل ثمينة ، واذا اتسخت القيت فى النار فزال وسخها . وفى التركستان ثلج وبرد كثير ، وحصى اذا حركوه سقطت عليهم الامطار الغزيرة

ويروى القزوينى ان فى قزوين مقبرة ، يأتيها الناس فى ليلة الجمعة ، فيرون بها أنوارا غريبة تصعد من القبور وتنزل فيها ، يقول : ولقد رأيت فى بعض الليالى عجبا ، وذلك انه قد طلع من بعض قبورها كرة قدر ابريق ، وصعدت نحو الهواء أكثر من عشرين ذراعا ، واضاءت الجوانب بنورها ، ورآها غيرى خلق كثير ، ولم تكن على لون النار ، بل كانت على لون القمر ضاربة الى الخضرة ، ثم عادت الى مكانها . وبسمرقند جبل به غار يتقاطر منه ماء بارد صيفا وحار شتاء ، وفى طشقند جبل حجارته سود تحترق مثل الفحم ، واذا احترقت اشتد بياض

رمادها ، فيستعمل فى تبييض الثياب ، ولا يعرف مثله فى شىء من البلاد ! • وفى فرغانة نبات على صورة الآدميين ، منه مايكون على صورة الرجال ، ومنه مايكون على صورة النساء . وقد مرت بنا أسطورة جبل دنباوند عند أبى دلف مسعر بن مهلهل ، وانتهت عند القزوينى وسط هذه الخرافات والتهويلات الى هذه الصورة :

« ذكر محمد بن ابراهيم أنه شخص الى دنباوند ليقف على المحبوس به ، فوافى القرية التى فى حضيض الجبل ، ومعه بعض عساكر الخليفة المأمون ، فظلوا اياما يرومون الوصول الى بيوراسب ولا يهتدون اليه ، حتى أتاهم شيخ كبير عمره نيف وتسعون سنة ، فأعلموه مرادهم ، فقال لهم : أما الوصول الى هذا الملتمس فلا سبيل اليه ، لكن ان احببتم الوقوف على صحة ذلك اريتكم برهانه ، فاستحسن محمد بن ابراهيم رأيه . وصعد الشيخ ، قال محمد بن ابراهيم : وصعدنا خلفه الى الجبل ، واوقفنا عند موضع ، وقال : بالغوا فى حفره ، فحفرنا حتى انفتح لنا عن بيت منقور من الحجارة وفيه تمثال على صورة عجيبة ، وهو يضربه على أغلاله وقيوده ساعة بعد ساعة من غير فتور . فسألنا الشيخ عن شأنه ، فقال : هذا طلسم على بيوراسب المحبوس هاهنا ، لئلا ينحل من وثاقه ، فانه لايزال يشد فى أغلاله حتى ترق وتلين ، فاذا ضربتها بمطرقتى عادت اغلاله كما كانت فى غلظها وثخانتها . ثم أمرنا ألا نتعرض للطلسم وأن نرده الى ما كان عليه ، ففعلنا كما قال ، ثم انتهينا الى سلالم أطول ما تكون ، فأمر الشيخ بشد بعضها الى بعض ،حتى بلغت قريبا من مائة ذراع ، ثم أمرنا برفعها وبنقب موضع فى الجبل ، فظهر باب عليه مسامير حديد

مذهبة وفوقه كتابة بالذهب تنطق بأن فى قمة الجبل سبعة أبواب من حديد ،وأن من فتح أحدها هجم على الاقليم آفة لاتندفع ، وحادثة لا تمتنع . فقال محمد بن ابراهيم ، حين رأى ذلك لمن معه : لاتتعرضوا لشيء حتى نستأذن الخليفة . وكتب الى المأمون بما شاهد هو ومن معه من العسكر ، فكتب اليه المأمون: لاتتعرض لشيء من ذلك واتركه على حاله »

واكبر كتاب يعرض لهذا التاريخ الاسطورى لايران وللفرس هو كتاب « غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم » لابى منصور الحسين بن محمد المرغنى الثعالبى ، وهو غير الثعالبى مؤلف كتاب اليتيمة المشهور ، وكان يعاصره كما كان يعاصر الفردوسى الذى نظم قصيدة قصصية طويلة تربو على أربعين الف بيت من الشعر فى تاريخ الفرس من أول نشأتهم وقد ضمنها كثيرا من الاساطير .

وكتاب الثعالبى المذكور يعرض كذلك تاريخ الفرس منذ نشـــأتهم الاسطورية وما اقترن بهـــا من ملوك خرافيين ، وهو يعرض هذا التاريخ عرضا بديعا ، تسوده القصة والخرافة فى كثير من جوانبه ، وقد عرض فى أوائل كتابه للملك الاسطورى بيوراسب الذى يسميه العرب باسم الضـــحاك ، وكان ظالمـــا سفاكا للدماء ، وقد بدأ حياته بقتل أبيه ، وكأن ابليس كثيرا مايتصور له ، وقبل منكبيه يوما ونفخ فيهما من خبثه وسحره، فخرجت بهما حيتان ، كلما قطعتا عادتا كما كانتا وآلمتاه جدا ، وتصور له ابليس فى صورة طبيب ، وقال له ان هاتين الحيتين لاتهدآن الا اذا أطعمتا برءوس الآدميين ، فكان يقتل كل يوم شابين ليطعم الحيتين ، ومازال يفعل ذلك بشـــباب فارس عشرات السنين ، حتى ثارت به الرعية وعلى رأسها أفريدون ،

فقتله واستولى على الملك من بعده . يقول الثعالبى ، ويزعم الفرس انه حمله الى جبل دنباوند وحبسه فى بئر هناك .. وفى اكاذيبهم انه لا يزال يعد فى الاحياء بهذا الجبل وانه من المنظرين كابليس الى يوم القيامة

ويمضى الثعالبى على هذا النحو فى كتابه يقص اخبار ملوك الفرس قصصا اسطوريا خرافيا حينا ، وقصصا واقعيا حينا آخر ، ومن اساطيره التى لايقبلها العقل اسطورة اسفنديار وانه اخترق الى مدينة الصفرية طريقا لم يسلكه أحد ، به ذئبـــان كالفيلين واسدان كجبلين وثعبان يهجم من السحاب (التنين)، وساحرة تسحر من يمر بها وعنقاء (الرخ) قاتلة ، ويقتحم اسفنديار الطريق ويقتل كل هذه الدواهى ، ويدخل مدينة الصفرية ويتغلب على ملكها أرجاسف

فى بلغار الفولجا وشرقى أوربا

من المعروف أن البلغار أسسوا فى أوائل العصور الوسطى دولتين اولاهما على نهر الفولجا وفى شماليها وغربيها الروس ، والثانية فى حوض نهر الطونة ، وهى التى لايزال يطلق عليها اسم البلغار او بلغاريا ، وقد يطلق العرب على كل المنطقة الممتدة على البحر الاسود فى أوربا اسم الصقالبة ، ويليهم الروم فى القسطنطينية قبل استيلاء العثمانيين عليها ، ومن وراء الروم الباشغرد أو المجر ، أما بحر قزوين فيطلقون عليه اسم بحر الخزر

وأول من ترك لنا وصفا مسهبا لهذه الاقاليم ابن فضلان الذى أرسله الخليفة المقتدر فى سنة (٣٠٩ هـ) مبعوثا دينيا مع وفد الى ملك البلغار على نهر اتل أو اتلا (الفولجا) وكان هذا الملك قد كتب الى الخليفة يسأله أن يبعث اليه من يفقهه وقومه فى الدين الاسلامى . فأرسل اليه المقتدر ابن فضلان المذكور مع وفد كبير ، ووصل هذا الوفد الى البلغار فى ١٢ من شهر المحرم سنة ٣١٠ للهجرة . ولما عاد ابن فضلان الى بغداد كتب رسالة فى وصف هذه البلاد وما اتصل بها من بلاد الخزر والصقالبة والباشغرد والروس . وتغلب على رسالته روح المبالغة ، بل روح التهويف والتخريف ، ومع ذلك استمرت أهم مصدر لوصف هذه الاقاليم مدة طويلة من الزمان ، واعتمد عليها كثير من مؤرخى العرب وجغرافييهم .

وقد احتفظ ياقوت فى كتابه معجم البلدان بكثير من جوانب هذه الرسالة

وأول شعب تحدث عنه ابن فضلان فى أوربا الشرقية هو الخزر ، وكانوا قد أقاموا مملكة فى جنوبى نهر اتلا (الفولجا) وكانت تسمى عاصمتها اتل وبها سمى النهر ، وكانت على مصبه . ويحدثنا ابن فضلان انها كانت على جانبى النهر ، وفى أحد الجانبين المسلمون ، وفى الجانب الآخر الملك واصحابه من غير المسلمين ، ويقول انه كان هناك خزر سود وخزربيض، وأن ملكهم يلقب بالخاقان ، ومن رسمهم انه اذا مات بنيت له دار كبيرة ، فيها عشرون بيتا ، ويحفر له فى كل بيت قبر ويخفون الدار فى جانب النهر ، حتى لايصل اليه فيما زعموا شيطان ولا انسان ولا هوام

ويقول ابن فضلان : الرحلة من اتل عاصمة الخزر الىالبلغار تستغرق شهراً فى البر وشهرين فى النهر ، وكانت عاصمتهم تبعد عن الفولجا نحو ستة فراسخ بالقرب منمدينةقازانالحالية وقد استقبل ملكهم الوفد استقبالا حافلا . ويأخذ ابن فضـــلان فى سرد ملاحظاته ، وهى تدل على أنهم كانوا لا يزالون متأخرين بالقياس الى العالم الاسلامى ومدنيته ، ومما لاحظه أن كلا منهم يأكل على مائدة منفردة ، وأنهم يحيون ملكهم بانحناء الرأس ، ورفع القلانس ، وجعلها تحت الابط ، وهم لا يدفعون له شيئا مما تنتجه أراضيهم ، انما يؤدى له كل بيت جلد ثور ، كمـــا يقدمون له حصة من غنائم الحرب . ولاحظ أن النهـــار يطول عندهمصيفا ،حتى ليتعذر تحديد موعد صلاةالعشاء ، اذسرعان ما تتفلت فى الافق تباشير الصباح . يقـــول : « ورأيت من العجائب مالا أحصيها كثرة ، فمن ذلك أن أول ليلة بتناهـــا

هناك ، رأيت قبيل مغيب الشمس بساعة أفق السماء وقداحمر احمرارا شديدا ، وسمعت فى الجو أصواتا عالية وهمهمة ، فرفعت رأسى ،فاذا غنم أحمر مثل النار قريب منى ، واذا تلك الهمهمة والاصوات منه ، واذا فيه أمثال النـــاس والدواب ، واذا فى أيدى الأشباح التى فيه قسى ورمـاح وســـيوف ، أتبينها وأتخيلها • واذا قطعة مثلها أرى فيهـــا رجــالا أيضا وسلاحا ودواب ، فأقبلت هذه القطعة على تلك ، كماتحمل الكتيبة على الكتيبة ، ففزعنا ، وأقبلنـــا على التضرع والدعاء •• وكنا ننظر الى القطعة تحمل على القطعة فتختلطان جميعـا ساعة ثم تفترقان ، وما زال الامر كذلك شطرا من الليـــل ثم غابتا • وسألت الملك عن ذلك فزعم أن أجداده كانوا يقولون هؤلاء من مؤمنى الجن وكفارهم يقتتلون كل عشية ،وأنهم لا يعدمون ذلك فى كل ليلة • ورأيتهم يتبركون بعـواء الكلب ، والحيات عندهم كثيرة ، وكذلك الصواعق • وينزل الرجـال والنساء النهر ، فيغتسلون جميعا عراة ، لا يستتر بعضهم من بعض ، واجتهدت أن تستتر الرجال من النساء فما اســتقام لى ذلك »

وقال ابن فضلان عنـــد ذكر الباشـــغرد انهم وثنيون وكل منهم قد نحت خشبة وجعل منها صنما يحمله دائـما معه وكلما أراد أحدهم سفرا أو لقاء عدو قبل هذا الصنم وسجد له، وقال ان منهم من يعبد الحيات ومنهم من يعبد السمك ومنهم من يعبد الكراكى ، وزعم الاخيرون أنهم كانوا يحاربون قوما من أعدائهم فهزموهم ، وصاحت الكراكى من ورائهم ، فعبدوها وقالوا هذه ربنا ، لانها هزمت أعداءنا

وزار أبوحامد الغرناطى الرحالة الاندلسى المشهور هــذه

الانحاء فى القرن السادس الهجرى ، وتحدث عنها حديثا تغلب عليه الخرافة والاسطورة بأكثر مما يغلبان على حديث ابن فضلان، وسجل ذلك فى كتابه «تحفة الاصحاب ونخبة الاعجاب» وقد نشرت قطع منه ، وصف فيها شرقى أوربا ، ولانزال ننتقل فيها من خرافة الى خرافة ، يقول :

« ودخلت البحر الى بلاد الخزر ، فوصلت الى نهر عظيم (لعله نهر الفولجا) كأنه بحر تخرج منه أنهار عظيمة ، وفى هذا النهر من أنواع السمك مالم أشاهد قط فى الدنيا مثله ، السمكة الواحدة حمل رجل قوى ، بل حمل جمل قوى ! • وقد عملت الجن لسليمان فى جانب ذلك النهر ألف نهر مقدار ميل ، وأخرجوا ترابه ، فصار كأنه جبل بجانب ذلك النهر

وبلغار مدينة عظيمة جميعها مبنية بخشب الصنوبر وسورها من خشب البلوط ، والنهار عندهم فى الصيف عشرون ساعة •• ويوجد فى أرضهم من عظام قوم عاد ، السن الواحد ، عرضه شبران وطوله أربعة أشبار ومن رأسه الى منكبه خمسه أبواع ، ورأسه مثل القبة العظيمة • وتوجد تحت الارض أنياب الفيلة • وتحدث عن الاقاليم الممتدة شمالى بلغار الفولجا الى المحيط المتجمد الشمالى ، وهو يسميها ويسوا ويورا على الترتيب• ويقول فى «ويسوا» القندز والقماقم والسنجاب • وما يلبث أن ينسج بعض أساطيره قائلا : «والقندز حيوان عجيب يتخذ بيوتا فى البر الى جانب النهر ، ويجعل لنفسه غرفة عالية وعن يمينه لامرأته درجة دون التى له ، وعن شماله لاولاده ، وفى أسفل ذلك البيت موضع لعبيده وللبيت باب الى النهر وباب الى البر ، ويأكل تارة السمك وتارة خشب الخلنج ، ويغير بعضهم على بعض ، ويسبى بعضهم بعضا ••

ووراء ويسوا ويورا بحر الظلمات (بحر البلطيق أو المحيط الاطلسى) وعندهم لا تغيب الشمس أربعين يوما وكذلك الليل فى الشتاء ، وهم يدخلون فى تلك الظلمة بالمشاعل ، فيجدون شجرة عظيمة مثل القرية ·· وهم فى أرض لايفارقها الثلج أبدا ، ويتخذ الناس لارجلهم ألواحا ينحتونها ، طول كل لوح باع وعرضه شبر ، مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعـــان عن الارض ، وفى وسط اللوح موضع يضع الماشى فيه رجله ، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم، ويقرن الرجل بين اللوحين اللذين يكونان فى رجله بشندال (بحبل) طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه فى يده الشمال ، وفى يده اليمنى عصا بطول الرجل ، وفى أسفل العصا مثـل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الانسان خفيفة · ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج ، ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح فى السفينة ، فيذهب على ذلك الثلج بسرعة · ولولا تلك الحيلة لم يستطع أحد أن يمشى هناك ألبتـــه ، لان الثلج على الارض مثل الرمل لا يتلبد ، وأى حيوان مشى عليـــه يغوص فيه ، فيموت ، ألا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والارنب ، فانها تمشى عليه بخفة وسرعة · ويحمل الى ويسوا السيوف من بلاد الاسلام ، وهؤلاء يحملونها الى يورا · وكل آدمى هناك يحتاج كل سنة الى سيف يلقيه فى بحر الظلمات · واذا ألقوا سيوفهم فيه أخرج الله لهم منه سمكة مثل الجبل العظيم ، تطردها سمكة أخرى أكبر منها أضعافا مضاعفـــة ، تريد أكلها فتفر الصغرى من الكبرى ، فتقرب من البر وتصير فى موضع لا يمكنها الرجوع منه الى البحر ، فتبقى هنـــاك ، وترجع الكبرى الى البحر · ويدخل أهل يورا الى البحر فى

السفن ويقطعون من جوانبها ، وهى لا تحس ولا تتحـــرك ، فيملئون بيوتهم من لحمها ، ويصعدون على ظهرها وهى كالجبل العظيم ·· وفى بلادهم نوع من الطير الكبير ، له مناقير طوال مقلوبة على اليمين وعلى الشمال ، الاعلى على اليمين ستة أشبار والاسفل على الشمال ستة أشبار مثل لام ألف· واذا وقعت بيضة هذا الطير على الجمد أو على الثلج أذابته كما تذيب النار»·ويركب البحر الاسود الى بلاد الصقالبة ، ويقول ان فيه حيات سوداء كبيرة بعضها على بعض ! وينزل بين الصقالبة ويروى عنهـم بعض العجائب ، فمن ذلك أنه يكثر السحر عندهم على رأس كل عشر سنوات ، وهم يعتقدون أن عجائز النســـاء هن اللائى يصطنعنه ويشعنه ، ولذلك يأخذون كل عجوز منهن بينهـم ، فيشدون يديها ورجليها ويلقون بها فى النهر عنـــدهم ، فمن رسبت فى الماء تركوها وعلموا أنها ليست بساحرة ، ومن طفت على الماء حرقوها بالنار · ويتغلغل فى بلاد باشغرد ويذكر أن عندهم بقرا وحشيا مثل الفيلة ، لعله التيتل ، ويقول :

« رأيت فى تلك البلاد من قبـــور قوم عاد قبورا كثيرة ، وأخرجوا لى نصف أصل ثنية واحدة (الثنية الاضراس الاربع فى مقدم الفم) منهم عرضها شبر ووزنها ألف ومائتا مثقـال، وأخرجوا لى رأس رسغ (مفصل ما بين الذراع والكف) واحد منهم ، فما استطعت أن أرفعه من الارض بيد واحـــدة ! ·· ورأيت فى بلغار رجلا من نسل العاديين ، طوله أكثر من سبعة أذرع ، وكان قويا يأخذ الفرس المذبوح فيكسر عظمه ، ويقطع جلده وأعصابه فى سرعة خاطفة · وكان ملك البلغار قد اتخـذ له درعا يحمل معه فى الحروب على عجلة كبيرة ، وله خوذة من حديد مثل المرجل الكبير »

وأكبر رحالة زار هذه البلاد بعد أبى حامد هو ابن بطوطة الطنجى ، وقد عبر اليها البحر الاسود من الاناضول بعد أن تجول فى كثير من بلاده قبل أن يصبح دولة واحدة على يد العثمانيين ، وراعه فى بلدانه نظام من نظم الفتوة كانوا يسمونه الأخية ، جمع أخى بالياء ، وهم جماعات تضم أبناء حرفة واحدة يقدمون عليهم رئيسا ، وكلهم من الشبان الاعزاب ، ويتخذون مقرا لجمعيتهم زاوية من الزوايا ، ويتعاونون على الخير واكرام الضيف ، وهو نظام يتصل بنظام الفتوة فى الاسلام ، ويقول ابن بطوطة انهم بجميع البلاد التركمانية فى كل بلد ومدينة وقرية • وما زال يتنقل بين هؤلاء الاخية فى بلاد الاناضول حتى وصل الى « صنوب » على البحر الاسود فركب منها سفينة الى شبه جزيرة القرم ، وكانت تابعة للسلطان محمد أوزبك خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية ، وكانوا قد دخلوا فى الاسلام بعد هجماتهم المشهورة على العالم الاسلامى فى آسيا • وغادر القرم الى أزاق والماجر بالقوقاز ، حيث زار معسكر السلطان أوزبك ، ووصفه بأنه يشبه مدينة عظيمة ، فيها المساجد والاسواق والمطابخ ، وتوسع فى الكلام وأسهب عن مواكب السلطان ومواكب زوجاته الاربع • وتوجه الى مدينة بلغار على الفولجا ، وكان بينها وبين معسكر السلطان عشرة أيام وهناك فكر فى اقتحام أرض ويسوا ويورا فى الشمال ، ولكنه أحجم لعظم المئونة وبعد الشقة وتعب السفر • قال نقلا عمن دخلوا فيها من التجار :

« السفر اليها لا يكون الا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار فان تلك الارض فيها الجليد ، فلا تثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها ، والكلاب لها الاظفار فتثبت أقدامها فى الجليد •

واذا كملت للمسافرين بهذا الاقليم أربعون مرحلة نزلوا عنـد الظلمة وترك كل واحد ما جاء به من المتاع هنالك ، وعادوا الى منزلهم المعتاد ، فاذا كان الغد عادوا لتفقد متاعهم فوجدوا من فراء السمور والسنجاب والقاقم ، فان أرضى صاحب المتـاع ما وجده ازاء متاعه أخذه ، وان لم يرضه تركه ، فيزيدونه ٠ وهكذا بيعهم وشراؤهم



فى العالم العربى

أكثر الجغرافيون والرحالة وهواة العجائب من ذكر الاعاجيب والاساطير عن العالم العربى وأممه القديمة وآثاره ، وحتى صحراء جزيرة العرب أفردوا لها فصولا فى القصة ، وهى فصول لا تتحدث غالبا عن عالم الانس ، وانما تتحدث عن عالم الجن فقد كانوا يزعمون أن أرض « وبار » سكنتها الجن وحمتها من كل من يريد الدخول فيها ، وزعموا أنها أخصب بلاد الله وأكثرها شجرا وأطيبها ثمرا ، فان دنا منها انسان متعمدا أو مخطئا حثوا فى وجهه التراب ، فان لم يرجع خبلوه أو قتلوه. وليست أرض وبار وحدها التى تمتلىء بالجن ، فكذلك تمتلىء بها الدهناء والصمان ويبرين ، فهى مبثوثة بكل مكان ، وهى تتراءى فى صور من الانس والحيوان ، ومنها جنس على صورة نصف الانسان يسمونه شقا ، وهو يتربص للمسافرين وقد يفتك بهم

وفى الشعر الجاهلى أحاديث كثيرة عن الجن والعفاريت ، استغلها مؤلفو كتب العجائب ، كما استغلوا ما جاء فى القرآن الكريم عن جن سليمان الذى سخرهم الله تعالى له ، فقصوا أقاصيص كثيرة عن تزاوجهم بالانس ، واختطافهم لبعض الفتيات أو بعض النساء ، وكم من شخص عبثت به الجن والشياطين أو استهوته ، وكانوا يزعمون أن عين الجان

أشد من عين الانسان ، وأنها جميعا تتحول فى أى صـــورة شاءت ، الا الغول فانها تتحول فى صـــورة المرأة وثيابهـــا الا رجليها فلابد أن تكونا رجلى حمار ، وتتراءى غير الغول فى صورة الثيران والنسور والنعام والكلاب ، وحـــديثهم عن شياطين الشعراء مشهور

واذا تركنا بلاد العرب الى اليمن والعراق والشام ومصر والاندلس ، تلك البلاد التى تمتلىء بأطلال مدنيات قديمـــة وجدناها تزخر بالعجائب ، فليس بها تمثال أو كتابات الا وهى طلاسم وأرصاد ، اما من عمل الجان أو من عمل الســحرة من الملوك والملكات ، ونسوق بعض ما سجلوه من هذه العجائب والغرائب الفريدة

فى اليمن

أما اليمن ففيها تمثال على هيئة فارس فى أرض كلهـــا ملحة ، فاذا دخلت الاشهر الحرم فاض من ذلك التمثـــال ماء كثير عذب ، وظل يجرى فى الفضاء الى انقضاء الاشهر الحرم وبها جبل الشب ، وهو جبل على رأسه ماء يجرى من كل جانب وسرعان ما ينعقد حجرا قبل وصوله الى الارض . ومن غريب ما قصوه عن مدينة ارم ذات العماد ، وهى احدى المدن اليمنية القديمة التى اندثرت ، هذه الاسطورة :

« بنى شداد بن عاد هذه المدينة بين صنعاء وحضرموت وكان جبارا من الجبابرة ، يقـال انه سمع بالجنة وما وعـــد الله تعالى فيها أولياءه من قصور الذهب والفضة التى تجرى من تحتها الانهار ، فقال : انى متخذ فى الارض مدينة على صفة الجنة ، ووكل عنه فى القيام بذلك مائة رجل وضع تحت يد كل منهم ألفا من الرجال والاعوان وقال لهم : « ابحثـــوا عن

أفضل مكان فى أرض اليمن وابنوا فيه هذه المدينة » ، وأمدهم
بالاموال ومثل لهم كيفية بنائها ، وكتب الى عماله فى سائر
البلدان الخاضعة له أن يجمعوا كل ما عنـــــدهم من الذهب
والفضة والجواهر النفيسة ، فجمعوا منها تلالا ، فأمربتحويلها
الى لبنات تبنى بها المدينة ، كما أمر أن ترصع حيطانها بجواهر
الدر والياقوت والزبرجد ، ثم أجرى اليها نهرا ساقه اليهـــا
من أربعين ميلا تحت الارض ، فظهر فى المدينة ، وأجرى منه
سواقى فى الشوارع والسكك ، وأمر بحافتى النهر والسواقى
أن تطلى بالذهب الاحمر ، وان يلقى فيها بالحصى من أنواع
الجواهر ، وينصب عليها أشجار من الذهب ، وان تجعـــل
ثمارها من الجواهر واليواقيت . وجعل طول المدينـــة اثنى
عشر ميلا ، وبنى فيها ثلثمائة ألف قصر ، مرصعة بواطنهـــا
وظواهرها بالحجارة الكريمة .. وجعـــل تراب المدينـــة من
المسك والزعفران ، وجعل خارجها مائة ألف منظرة من الذهب
والفضة لجنوده . ومكث فى بنائها خمسمائة عام ، فبعث الله
اليه هوداً عليه السلام ، فتمادى فى الكفر والطغيان ، ولـــم
يجب داعى ربه ، فأنذره هود بعذاب الله ، وخوفه زوال ملكه
فلم يرتدع ولم ينزجر ، فأخذته صيحة من السماء فمـــات هو
وأصحابه .. وأخفى الله المدينة فلم يدخلها أحد ، الا رجـــل
فى زمن معاوية ، يقال له ابن قلابة ، ذكر فى قصة طويلة أنه
خرج من صنعاء فى طلب ابل له ضلت ، فأفضى به الســـير
الى مدينة هذه صفتها ، فأخذ منها شيئا من المسك والكافور
وشيئا من الياقوت ، وقصد الشام ، وأخبر معاوية بالمدينـــة
وعرض عليه ما أخذه منها من الجواهر . وارم ذات العمـــاد
حق لامرية فيه ، ذكرها القرآن الكريم ، وكذلك رسالة هود

الى عاد ، ولكن قصة المدينة وبنـــاءها هى التى دخلتهـــا الاسطورة

فى العراق

وفى العراق كثير من هذه المدن التى اتخذت مسرحـــا للاساطير من مثل مدينة بابل ، وقد قالوا انه كان بهـــا سبع مدن ، وفى كل مدينة أعجوبة : أما المدينة الاولى فكان ينزلها الملك ، وكان فيهـــا بيت به صـــورة الارض بقراها ومزارعها وأنهارها ، فمتى امتنع أهل بلدة من حمل الضرائب والاموال اليه خرق أنهارهم فى تلك الصورة ، وأغرق زروعهم، فيحدث ذلك بأهل البلدة حتى يؤدوا اليه ما عليهم من المال ، فيسد أنهارهم فى الصورة ، فينسد النهر فى بلدهم • والمدينة الثانية كان بها حوض عظيم ، اذا جمع الملك قومه حمل كل واحد منهم معه شرابا يشربه عنده وصبه فى ذلك الحوض فاذا جلسوا للشرب تناول كل منهم من الحوض شرابه الذى حمله معه من منزله • والمدينة الثالثة كان على بابها طبـــل معلق ، فاذا غاب انســـان من أهل بابل ، ولم يعـــلم أحى هو أم ميت ، دقوا ذلك الطبل على اســـمه فان كان حيـــا ارتفع صوت الطبل ، وان كان ميتا لم يسمع منه صـــوت ألبتة • والمدينة الرابعة كان فيهـــا مرآة من حـــديد ، فاذا غاب رجل عن أهله وأرادوا أن يعرفوا حاله التى هو فيهـــا ، أتوا تلك المرآة على اسمه ونظروا فيها فرأوه على الحالة التى هو فيها • والمدينة الخامسة كان على بابها عمود من نحاس وعلى رأسه اوزة من نحاس ، فاذا دخلها جاسوس صـــاحت صيحة سمعها كل أهل المدينة ، فعلموا ان جاسوسا دخـــل بلدهم • والمدينة السادسة كان بها قاضيان جالسان على طرف

ماء ، فاذا اختصم اليهما شخصان قرآ شيئا وأمرهما بالعبور على الماء ، فيغوص فيه المبطل وينجو المحق • والمدينة السابعة كانت بها شجرة كثيرة الاغصان ، ان جلس تحتها الف شخص أظلتهم ، فان زادوا واحدا انحسر عنهم ظلها وأصبحوا جميعا فى الشمس !

فى الشـــام

وفى الشام عجائب كثيرة منها مدينة بناها جن سليمان له هى مدينة تدمر • ومنها بئر فى بعض ضياع حلب ، اذا شرب منها من عضه الكلب المريض برىء • وفى حمص صورة نصفها الاعلى انسان والاسفل صورة عقرب ، من لدغته حية أوسام وأخذ طينا وطبع به على تلك الصورة ، وألقاه فى المـاء ، ثم شربه برىء فى الحال • وفى موضع من أعمال طبرية هيكل يخرج الماء من صدره من اثنتى عشرة عينا ، وكل عين مخصوصة بمرض ، اذا اغتسل فيها صاحب هذا المرض عوفى باذن الله تعالى • وبها نهر عظيم ، يجرى فيه ماء نصفه حار ونصـــفه بارد ولا يمتزج أحدهما بالآخر • وبها موضع به سبع عيون ينبع الماء منها سبع سنوات متوالية ، ويجف سبعا أخـــرى متواليات ، وهكذا على مدى السنين والايـــام • وتقص كتب العجائب كثيرا عن مدن الشام ومزاراتها ومن مات بهـا من الصـــحابة والصـــالحين ، وقد أكثروا من القصص عن أصحاب الكهف والرقيم الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم فمن قائـــل ان موضـــع الـــكهف والرقيم فى البلقـــاء، ومن قائل أن موضـــعها بالقـــرب من افسوس وهـــذا هو الصحيح • ويقول القزوينى ان الكهف على بعد فرسـخين من المدينة ، لا تدخله الشمس ، وفيه رجال موتى لم يتغيروا

وعددهم سبعة ، ستة منهم نيام على ظهورهم ، والسابع فى آخر الكهف مضطجع على يمينه ، وظهره الى جدار الكهف ، وعند أرجلهم كلب ميت ٠٠ وعلى الكهف مسجد يستجاب فيه الدعاء يقصده الناس

فى مصر

وامتلأت كتب الرحلات والجغرافيا والعجائب بالاحاديث عن مصر وما فيها من الغرائب ، ومن أهم ما عرضت له هذه الكتب الاهرامات وأبو الهول ، وفيهما يقول عبـــد اللطيف البغدادى ، بعد أن زار مصر بين سنتى (٥٩٧ هـ و٥٩٩ هـ):

« من الآثار القديمة الاهرام ، وقد أكثر الناس من ذكرهـا ووصفها ومساحتها ، وهى كثيرة العدد جدا وكلها ببر الجيزة وعلى سمت مصر القديمة ، وتمتد فى نحو مسافة يومين ،وفى بوصير منها شىء كثير وبعضها كبار وبعضها صغار ٠٠ وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس ٠٠ والاهرام المتحدث عنهـا المشار اليها الموصوفة بالعظم ثلاثة موضوعة على خط مستقيم بالجيزة ، قبالة الفسطاط ، وبينها مسافات يسيرة ، زواياها متقابلة نحو المشرق ، واثنان منها عظيمان جدا وفى قدرواحد ، وبهما أولع الشعراء وشبهوهما بنهدين ، قد نهدا فى صـــدر الديار المصرية ٠ وقد سلك فى بناية الاهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان ولذلك صبرت على ممر الزمان ، بل على ممرها صبر الزمان ، فانك اذا تبصرتها وجدت الاذهان الشريفـــة قد استهلكت فيها ، والعقول الصافية قد أفرغت عليهـــا مجهودها ، والانفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها ، والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثلا هو غاية امكانها ، حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم ،

وتنطق عن علومهم وأذهانهم . وفى أحد هذين الهرمين مدخل يلجه الناس يفضى بهم الى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة ، وآبار ومهالك ، وهذا المدخل ليس هو الباب المتخـــذ له فى أصل البناء ، وانما هو منقوب نقبا صودف اتفاقا . وهـــذه الاهرام مبنية بحجارة يكون طول الحجر منهـــا ما بين عشرة أذرع الى عشرين ذراعا ، وسمكه مابين ذراعـــين الى ثلاث وعرضه نحو ذلك . والعجب كل العجب فى وضع الحجر على الحجر بهندام ، ليس فى الامكان أصح منه ، بحيث لا تجـــد بينهما مدخل ابرة ولا خلل شعرة ، وبينهما طين كأنه الورقة لا أدرى ما صنفه ولا ماهو . وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمـــع بمن يعرفه . وهذه الكتابات كثيرة جدا .. وعند هذه الاهرام صورة رأس وعنق بارزة من الارض فى غاية العظم يسميه الناس أبا الهول . وفى وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليـــه رونق الطلاوة ، وهو حسن الصورة مقبولها ، عليه مسحـــة بهاء وجمال كأنه يضحك مبتسما . وسألنى بعض الفضلاء ما أعجب ما رأيت ؟ فقلت تناسب وجه أبى الهول ، فان أعضاء وجهه كالانف والعين والاذن متناسبة كما تصـــنع الطبيعة الصور متناسبة . والعجب من مصوره كيف قـــدر أن يحفظ نظام التناسب فى الاعضاء مع عظمها ، وأنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه وينقله » . وتحدث عبد اللطيف ، وكأنه عالم عصرى من علماء الآثار ، عن عين شمس وصورهـــا وتماثيلها ومسلتيها المشهورتين ، ووصف المسلة بأنها قاعدة مربعة ، طولها عشرة أذرع فى مثلها عرضا فى نحوها سمكا ، قد وضعت على أساس ثابت فى الارض ، ثم أقيم عليها عمود

مربع مخروط ، ينيف طوله على مائة ذراع ، يبتدىء من قاعدة لعل قطرها خمسَ أذرع ، وينتهى الى نقطة ، قد ألبس رأسها بقلنسوة نحاس ، الى ثلاث أذرع منها كالقمع » . وأطال عبد اللطيف فى وصف مدينة منف وآثارها ، وعرض لمقابر الفراعنة التى تملأ الصعيد ذاكرا تخريب الناس لها بحثا عن الذهب المدفون مع الموتى ، وانحى باللائمة على من يحاولون نقض هذه الآثار . وتكلم عن الاسكندرية ووصف عمود السوارى بها وصفا دقيقا

وممن أسهب فى وصف هذه العجائب بمصر أبو الحسن الهروى المتوفى بحلب سنة (٦١١ هـ) وذلك فى كتابه « الاشارات الى معرفة الزيارات » وقد قال ان المأمون فتح الهرم الاكبر فوجدوا فى داخله بئرا مربعة فى تربيعها أبواب ، يفضى كل باب منها الى بيت فيه موتى بأكفانهم . وذكر أنهم صعدوا فى الهرم ، ووجدوا فى رأسه بيتا فيه حوض من الصخر ، على مثال القبر ، وفيه صنم كالآدمى وفى وسطه انسان عليه درع من ذهب مرصع بالجوهر وعلى صدره سيف لا قيمة له ، وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة ، ضوءه كالنار . وعرض للبرابى (المعابد) بالصعيد وغير الصعيد وما عليها من كتابات بقلم الطير (الكتابة الهيروغليفية) وقد استطرد يتحدث عن عجائب تدخل فى باب الاسطورة أو الخرافة فزعم أنه فى شمالى المنيا بالصعيد جبل يسمى الطيلمون ، وهو جبل الطير ، تجتمع اليه الطيور فى كل سنة ، وهى تسمى بوقير ، وترى وهى تدخل رأسها فى ثقب صغير بأعلاه، ولا تزال كذلك حتى يقبض ذلك الثقب على طير منها فيبقى معلقا بمنقاره الى أن يموت . وبالصعيد جبل الساحرة ، وله

قصة طويلة ، وبه مغائر مليئة بالموتي من الناس والطيـــور والسنانير والكلاب وقد رأى بها جارية ، نزع عنها كفنها وفى يديها ورجليها آثار خضاب بالحناء

فى الاندلس

وفى الاندلس عجائب كثيرة ، منها جبل عليه عينان ينبع من احداهما ماء حار ومن الاخرى ماء بارد ، أما الحار فلو رميت فيه بدجاجة انطبخت فى الحال ، وأما البارد فمثلج لا يستطيع أحد شربه • وبها جبل الكحل ، وهو يخرج منه فى هيئة نفس قوى ، ويظل الى نصف الشـــهر ، ثم ينقص ، حتى اذا كان الشهر الثانى عاد الى قوته ، ثم يأخذ فى النقصان وهـــكذا دواليك • وبقرب طليطلة حجر اذا أقاموه أمطرت السماء ، ولا تزال تمطر الى أن يلقوه ، وكلما أرادوا المطر أقاموه ، وبهـــا صورة ثورين من حجر صلد ، يقال انهما طلسمان • وتكثر الطلاسم فى الاندلس مثل غيرها من البلاد . وبقرب غرناطة عين ماء وشجرة زيتون ، يقصدهما الناس فى يوم معلوم من السنة ، تفيض العين فيه بالماء حين تطلع الشمس ، ويظهر على الشجرة زهر الزيتون ، وينعقد زيتونا ويكبر ويسود فى نفس اليوم ، فيأخذون منه كفايتهم ، كما يأخذون من مـــاء العين حاجتهم للتداوى • وبقادس طلسم مشهور ، عمل لدفع المغاربة عن الاندلس !

□

وللبر ـ كما للبحر ـ حكاياته وأقاصيصه ، وهى تستمد من عالم الحقيقة حينا ومن عالم الخيال والخرافة حينا آخر ، واذا كانت جزر بحر الهند قد أمدت القصاص بمادة وفيرة فى هذا الباب ، فان الهند نفسها وما وراءها من الصين وايران ،

قد أمدتهم بمادة لا تقل وفرة ولا قيمة قصصية عما أمدهم به عالم البحر ، وكذلك الشأن فى بقيـة البلدان والبقاع بآسيا وافريقا

وفى كتب العجائب كثير من هذه الحكايات الخيالية ، لا عن الملوك والامم البائدة فحسب ، بل عن كل مشـاهد البلدان ومظاهر الطبيعـة فيهـا من جبال وغير جبال ، ويخيل الى الانسان انهم لم يتركوا كهفا فى جبـل ، ولا بئرا ولا نهرا الا قصوا عنه غرائب القصص . ودخل هذا كله فى نسيج كتب الرحلات والجغرافيا . وسنقف أولا عند بعض حكايات عرضها الثعالبى فى كتابه غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ، ثم نتحول الى كتب العجائب ، ومنها الى رحلة ابن بطوطة التى تمتلىء بالقصص والنوادر



من كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم :

اسفنديار يقتل تنينا

لما شارف الامير الفارسى اسفنديار المرحلة الثالثة فى طريقه المخوف الى بلاد الترك تقـــدم الجيش وأسرع بالســـير حتى انتهى الى موضع تنين، فلبس اسفنديار السلاح وأمر بتحول العجلة والصندوق الى فرسين آخرين اقوى من الاولين ، وركب فى الصندوق وفتح الباب الامامى وصاح بالفرسين فجريا وجرا العجلة بما عليها ، وكأنهما اتخذا الرياح الاربع نعالا لهمـــا . وحين اقتربا من التنين سار اليهما كأنه سحاب أسود فجذبهما بأنفاسه ، واراد أن يبتلعهما فغص (شرق) بالصندوق ونشبت النصول فى حنكه ، فلم يقدر على البلع ولا على التخلص من الصندوق وفتح اسفنديار بابه المتأخر ووثب منـــه ، وطفق يضرب التنين بسيفه ، حتى قطعه ، غير انه سقط صعقا من هوله ومن الرائحة المنتنة التى وجدها من جســـمه . ولحق به جيشه ، ورآه القواد كاسف الوجه ، فظنوا أن التنين قد عمل عمله ، وانه مات ، وأمر بعضهم برش الماء البارد على وجهه وصدره ، فأفاق ، وقال : لاتهتموا فانى سالم ولم يمسسنى سوء ، وانما ساءتنى الرائحة المنتنة للتنين ، واجتمع الجيش ينظر الى هذا الثعبان المهول وهو لا يزال يتحرك ، فتعجبوا من كبر جســـمه وهول منظـره وكثرة دمائه ، واثنوا على اسفنديار ودعوا له

اسفنديار يقتل ساحرة

أمر اسفنديار بالرحيل بعـد قتله للتنين ، وحين ارتفع الحجاب عن حاجب الشمس شارف المرحلة الرابعة ، فتقدم الجيش كعادته ، واخذ معه بعض الطعـام والشراب وعودا لطيفا ، وسار مسرعا حتى انتهى الى منزل ساحرة كان سمع عنها انها تعيش فى هذا الطريق وتفتك بمن يمر فيه ، ولماانتهى الى منزلها رأى روضا وغديرا وأشجارا كأن الحور اعارتها قدودها وكستها برودها ، فنزل فى ظل شجرة ملتفة الاغصان علىغدير صاف ، وقيد فرسه ، وتناول بعض طعـــامه ، ثم اخذ العود ، فنقره واستنطق وتره ، وغنى غناء معناه : الى متى تترامى المغاوروالجبال بى ، وتنبو الاوطانوالاوطار عنى ؟ حتى متى خوض الحروب ومعاناة الخطـوب ؟ واين السرور بوجوه الحسان ومغازلة الغزلان ؟ ان الذى انزلنى هذا المكان الذى يحكى الجنان ، قادر على أن يقر عينى بجارية وسيمة ، تسرنى بطلعتها وتؤنسنى بمساعدتها . وكل ذلك على مرأى ومسمع من الساحرة ، فقالت فى نفسها : قد وقع الاسد فى الحبالة ، وجاءتنى الغنيمة ، ولم تلبث أن برزت فى صـــورة جارية كأنها فلقة قمر على برج فضة ، وعليها من الحلى والحلل ما يروق ويشوق . واقبلت فجلست بجواره ، فرفع يده وقال : سبحانك ما اعظم شـأنك واتم سلطانك وانعامك اذ رزقتنى فى مثل هذه البقعة مثل هذه الصورة المقصورة على الجمال والكمال ، وصب من زق خمر كان معه كأسا ، وشربه على وجههـا ، وملأ الكأس فناوله اياها ، فشربته ، واخذا يتنادمان . وكانت مع اسفنديار سلسلة لا يعمل فيها السحر ، فأخرجها فى خفية منها ، واعدها ، حتى اذا عطست الساحرة

ألقاها فى عنقها ، واوثقها بها ، فتحولت فى صـورة أسـد ، تخرج النار من فمه ، وجعلت تجذب نفسها من يده ، فقال لها انى أنا اسفنديار ، وهذه سلسلة لا يعمل فيها السحر ، ولن تفلتى من يدى ، فأظهرى نفسك كما أنت لى . فظهرت عجوزا شوهاء اقبح من زوال النعمة ، وأوحش من موت الفجاءة ، وقالت له : يا اسفنديار لا تكن ضيف سوء ، ولا تنس حرمة المنادمة ، واطلقنى أنفعك ، فضربها بسيفه ضربة فرقت بين راسها وجسدها ، فثارت غبرة شديدة وانتشرت ظلمة اعادت النهار ليلا ، وتجلت عما قليل . ونصب رأس الساحرة على خشبة وركزها فى تل حتى اقبل العسكر فنظروا الى راس كهول طلوع الروح ، ووجه كقضاء السوء ، وشكروا الله على جميل صنعه

اسفنديار يصيد العنقاء.

ورحل اسفنديار بجيشه حتى قارب منزل العنقاء (أنثى الرخ) فى المرحلة الخامسة من طريقه، فأمر باعداد العجلة التى يركبها وتركيب السيوف الحداد والاسنة الشداد فى الصندوق الذى عليها واحكامها من خارج ، ثم حملها على فرسين مستوفيين شرائط العتق وجودة الجرى ، وقعد فى الصندوق وصاح بهما ، فجريا كالهواء العاصف ، وانتهيا الى شجرة باسقة ، فوقفهما فى ظلها ، وأقبلت العنقاء من الهواء كالسحابة المرعدة لعظم جسمها وحفيف أجنحتها . وانقضت على العجلة تريد ان تخطفها هى والفرسين ، فلما أهوت اليها وضربت نفسها بها نفذت فيها السيوف والاسنة المركبة فى الصندوق ، وكلما زادت ضربا بأجنحتها ازدادت النصول نشوبا فى جسمها وأجزائه . ووثب اسفنديار من تلك العجلة ، فرشقها بالسهام

المسمومة حتى ضعفت ، ثم واصل ضربها بسيفه حتى سقطت وخمدت . ووصل الجيش ، فرآها العسكر ســـاقطة كالطود العظيم ، ومنقارها كأعظم ما يكون من المعاول ، ومخالبها كأطول ما يكون من الحراب ، فتعجبوا من أمرها وأثنوا على اسفنديار ثناء كثيرا

العنقاء تشفى رستم من جروحه

لما ملك منوجهر ، كان عمدة أمره وعدة ملكه ووجه قواده سام يل ، وكان سام يتمنى على الله ان يرزقه ابنا ، فلما طعن فى السن ، ولد له مولود ابيض شعر الراس والحاجب ، فأنكره وأنف منه ، وأمر بنبذه وطرحه فى بعض الجبال الشـــــاهقة الشاسعة ، ليقضى الله فيه ما هو قاض ، فامتثل بعض أصحابه أمره ، ورأت العنقاء(أنثى الرخ)هذا المولود ،فحملته ونقلته الى وكرها وربته مع فراخها الى أن بلغ سبع سنين ، فرأى سام يل فى منامه من أخبره بحياة ابنه ، ودله على مكانه ، فتوجه فى طلبه ، حتى وصل اليه ، وعرفت العنقاء انه أبوه ، فردته عليه وزودته من ريشها ما يحرقه اذا نابته نائبة ، فانها حينئذ تأتى لتغيثه

ومرت الايام وشب « زال » وخدم منوجهر مع أبيـــه ، وأصبح له أمر سجستان. وفى يوم سار متصيدا يقطع الاصقاع والبقاع حتى وصل الى غزنة فاخترقها الى كابل، وحين شارفها استقبله سلطانها مهراب ، وسمع بابنته وجمالها وسمعت به وبشجاعته ، فعشق كل منهما صاحبه قبل رؤيته ، وتزوجا وولدا رستم طفلا جميلا قويا كأنه الاسد ، وجعـــــل يزداد جماله مع بسطة فى العقل والجسم ، فقد كان يجمع ضخامة الفيل الى قوة الليث ، وتأدب بآداب الفرسان ، وبز الابطال والشجعان ، حتى أصبح جيشا فى فرد ، لا يغلب ولا يقهر

وكان رستم من ضخامة الجسم وامتداد القامة واشتداد

القوة بحيث لايستطيع فرس ان يحمله ، حتى يقال انه عرض عليه خمسون ألف فرس ، فلم يوجد بينها ما يستطيع حمل ركابه ، واتفق يوما أنه رأى خيلا مجلوبة من قشمير فى الهند، فوقع بصره على مهر اصيل ، فأمر برده عليه ، فقال جالبه : انه لامطمع فيه ، فقال: ولم ؟ قال : انه لرستم قال : وما يدريك؟ قال : انه منذ وضعته امه يسمى رخش رستم ويدعى به ، وقد أركب منذ سنتين فلم يمكن احدا من ركوبه ، فوضع رستم يده على ظهر المهر ، فلم يضطرب ، فقال : هذا هو فرسى الذى يحملنى ، فقال لهجالبه : ان كنترستم فهو حقك وقد قادته السعود اليك ، فضحك وأمر له بصلة كبيرة . وأحسن تعهد فرسه وتفقده ، وكان اذا ركبه حكى الطود الموثق وتحته السيل المتدفق

وكان أول انتصارات رستم التى شاع بها اسمه واشتهر، ظفره « بأفراسياب » ملك الترك بعد أن دوخ الفرس حتى اصبح الشجعان يرهبون اسمه ، وانقاد له الحكام والامراء فى شرقى ايرانالى الهند والى بلاد الترك • وحدثان دبالخلاف بين رستم وملك الفرسبشتاسف ، فأرسل اليه ابنه اسفنديار وكان هو الآخر بطلا مغوارا ، فجمع لرستم الجيوش ، وذهب اليه يطلب منه تسليم نفسه او الحرب ، فأبى رستم ان يعطى عن يد صاغراً • وبارزه اسفنديار وحمى الوطيس بين الجيشين وتصاول الابطال ، وجرت الدماء ، وقتل ابنا اسفنديار ، فاجتمع عليه الحزن والغيظ ، وأخذ يرمى رستم بسهام نافذة، ورمى فرسه رخشا بسهم خاط فخذيه ، فانقطع لجامه وانقد حزامه ، وسقط رستم عن ظهره ، ونفر الفرس راجعا الى منزله والدم يسيل من جراحه ، وانحاز رستم الى تل وهو

يجر قدمه ويقاسي من آلام جروحـــه ، وانسحب موليا الى عسكره ، فحملوه على عجلة الى داره ، وارتفعت منها الاصوات بالبكاء والعويل من اجله

وجزع أبوه «زال» حين رآه ودمعت عيناه ، ولم يلبث أن تذكر ريشة العنقاء التى كانت أعطتها اياه فى صباه ، وامرته باحراقها والتدخين بها اذا نابته نائبـــة ونزلت به نازلة ، فأمر بذبح الاغنام والخرفان لاستقبالها ، ولم تلبث ان اقبلت كأنها سحابة مرعدة ، وهبطت على تل عظيم فى بستان زال ، فتقدم اليهـــا وسجد لها ، وقدم لها ذبائح الاغنام والخرفان فنالت منهـــا ، ثم بكى بين يديها ، وقص قصته عليها ، وقدم رستم اليهـــا ، فتأملت جراحاته، ثم اهوت عليه بمنقارها ومخالبها فنزعت عن اعضائه اكثر من عشرين نصلا ، يقال انها كانت قرابة حمل بعير من الحديد ، ثم مسحت مواضعها بجناحها ، فالتحمت فى الوقت والساعة ، ثم لحستها بلسانها ، فأبل رستم ، وعاد أصح مما كان ، ولبس أثواب العافية باذن الله ومشيئته . وفعلت العنقاء بفرسه «رخش» فعلها به ، فنزعت منه نصولا كثيرة ، ثم مسحته بجناحها ولحسته بلسانها ، فصح وصلح ، وانتفض وصهل ، ونشط وانبسط . وكان زال يعرف منطق العنقاء اذ كانت مرضعته ومربيته ســبع سنين فقالت له : ينبغى الان ان يركب رستم ظهرى لاطير به الى جزيرة تشتمل على شجرة الطرفاء ، وأدله على غصن منها يقطعه ويتخذ منه سهما ، حتى اذا بارز اسفنديار ، رماه به فى عينه ، فيكفى أمره ، لان دروعه لا تدخل فيها السهام ، وليس فيه حيـلة سوى هذه . فترجم زال لرستم قولها ، فسر بذلك واستعد ، واستصحب سكينا اقطع من الفراق ، وانفذ من القضـــاء ،

وركب ظهر العنقاء ، فطارت به الى الجزيرة فى سرعة البرق ، ودلته على الغصن الذى وصفته ، فقطعه ، واحتفظ به محتاطا عليه ، وكرت به راجعة الى منزل أبيه وقد أعد لها ذبائح الاغنام والخرفان المشوية . فلما هبطت ووضعت رستم على الارض سجد لها زال وقدم اليها الذبائح ، فنالت منهـا ، وأوصت بالتلطف مع اسفنديار ومصالحته وسل سخيمته ، فانه أوحد عصره فى الشرف والشهامة ، ثم قالت : وان ابى الا الحـرب فهلاكه فى هذا السم وودعت زال وطارت

فاتخذ رستم من ذلك الغصن سهما وركب فيه نصلا ، ولما اصبح من غد لبس السلاح وركب رخشا بنشاط واغتباط ، واقبل الى سرادق اسفنديار فناداه ، وقال له : قد عاودك القرن فابرز اليه ، فتعجب اسفنديار من بكوره وقوة كلامه ، وكان يعتقد انه نكأ فيه نكاية اليمـة ، اما أن يموت بها أو يستأسر معها ، ثم تذكر ما سمعه من سحر زال ومهارته فى السحر ، فصح عنده ما سمعه ، فقد ابرأ رستم بهذه السرعة بعد أن فارقه بالامس جريحا هضيما ، وهاهو ذا يعود صحيحا نشيطا يجر ذيل خيلائه ، ثم قال فى نفسه : سأصنع به اليوم ما لا يقدر زال معه على مداواته . ودعا اسفنديار بسـلاحه فلبسه وبفرسه فركبه ، واقبل الى رستم ، فتلطف له ونصحه الا يؤثر الشقاء على السعادة ، ولكن اسفنديار لم يستمع اليه ، وطلب منه احدى اثنتين : اما ان يستأسر واما أن ينازله ، فتضرع اليه رستم ، ولم يدخر وسعا فى استكفاف غائلتـه واستمالته ، غير ان اسفنديار اصر على غلوائه ، ولم يزدد الا جدا فى مقارعته ، وحمل عليه برمحه ، فاحتال رستم لدفعه عن نفسـه ، ثم صوب اليه سهم الطرفاء من وتر قوسه ومد فيه

بقوته ورماه به رمية نفذت فى عينه الى قفاه ، فاتكأ اسفنديار على سرجه ونزع السهم من عينه ، واخذه بيده ، وسال من دمه ما اضعفه واسقط قوته ، ولم يتماسك معه ، فترجل عن فرسه وتوسد ذراعه ، وترجل رستم وبكى بأعلى صوته ، ومزق ثيابه ودرعه على نفسه . وجاء زال وقواده والايرانية ، يسيلون العبرات ، ويطلقون الزفرات ويعلنون الصـــياح ويمزقون الثياب ، واحدق الجميع به وفرشوا له واضجعوه . فدعا بماء فشربه ، وقال : على برستم ، فتقدم اليـه وقعد عند راسه ، وقال : يا رستم اعلم ان أبى بشتاسف هو الذى قتلنى لا انت ، وقد أهلكنى على يدك ، واذ عمل القدر عمله فانى أستودعك ابنى بهمن واسلمه اليك لتؤدبه بآدابك ، فقال رستم : سمعا وطاعة لك وقد تسلمته منك ، وسابذل جهدى فى اكرامه وتهذيبه وصيانته ، ولم يلبث أنْ فاضت نفسه

الاسكندر المقدونى فى الهند

لما فرغ الاسكندر من حرب دارا ملك الفرس ، وفور ملك الهند الكبير ، هابته الملوك فأذعنوا له وتلقوه بالسمع والطاعة ، واقتدى بهم « كيد » أحد ملوك الهند الاباعد ، وحين كاتبه الاسكندر فى الزامه الضريبة ، أجابه باظهار الخضوع والاذعان لسلطانه ، وقال : ان عندى اربعة أشياء من عجائب الدنيا وغرائبها ليست لاحد من الملوك ، وانا متقرب اليك باهدائها وايثارك بها ، فانها لا تصلح الا لك ، ولا تحسن الا لديك ، فمنها ابنة لى لم تطلع الشمس على مثلها جمالا وكمالا ، فهى قيد الابصار ونهاية الابداع ، ومنها طبيب لى كأنما أوحى اليه فى الطب ومعرفة الادواء (الامراض) والادوية ومعالجة العلل المزمنة ، ومادام عندك فثق بحفظ صحتك ، ومنها نديم لى فيلسوف أوتى جوامع الحكمة ، فهو ينظر الى الغيب من وراء ستر رقيق ، ومنها قدح من خشب الجنة ، اذا ملىء مرة ماء أروى العساكر من غير أن ينفد ماؤه

فلما ورد كتابه على الاسكندر بذلك سر به وكتب اليه فى انفاذ الاربعة ولو على اجنحة الطير واعناق الرياح ، فامتثل أمره ووصلت الجارية واسمها كنكة ، فلما رآها الاسكندر ملأت عينه وقلبه ، وملكت نفسه ولبه ، فلم يقدر على صرف لحظه عنها ، وافتتن بمحاسنها وامر باكرام مثواها ، واتخذها نزهة لعينه ومتعة لنفسه . ثم دعا بالطبيب واسمه منكت ،

فلم يسأله عن شيء من أصول الطب وفروعه الاأجاب بالصواب وشفى وكفى ووفى وأوفى ، ثم سأله عن أصل الادواء فقال : التخمة قال الاسكندر له : وما حقيقة معناها ؟ قال : الزيادة في الاكل والشرب على ما تحتمله الطبيعة ، ، وتقوى عليه القوة الهاضمة ، ثم سأله عن أعون الاشياء على حفظ الصحة ، فقال: الاقلال من الاكل والشرب والتمتع ، ثم سأله عن شرب الدواء فقال : مثله للجسم كالصابون للثوب ينقيه ولكن يبليه ، ثم قال له : أوصنى بأوجز ما يحضرك من الكلام فى حفظ الصحة ، فقال : اجتنب ثلاثا وعليك بأربع ولا حاجة بك الى الطبيب ، اجتنب الغبار والنتن والدخان ، وعليك بخبز الحنطة (القمح) ولحم الخرفان وحلواء السكر وشراب العنب مع الاقتصاد فى الوجبة . فأعجب الاسكندر بقوله واستخلصه لنفسه وأمر باجزال رزقه

وأمر الاسكندر باكرام الفيلسوف واحسان تعهده ، وكان اسمه شنكة ، ثم بعث اليه باناء ملىء سمنا ، فأخذه الفيلسوف بيده ونظر فيه وتأمله باتقاد بصيرته ثم غرز فيه الف ابرة ورده الى الاسكندر ، فأمر بأن تذاب الابر ويتخذ منها كرة سوداء ، وردها الى الفيلسوف ، فاتخذ منها مرآة مصقولة وردها اليه ، فأمر الاسكندر بالقائها فى الماء حتى صدئت وردها الى شنكة ، فجلاها وصقلها وردها الى الاسكندر ، فتعجب من فطنته واحاطته بفكرته . ثم استدعاه واستدناه ، وسأله ، فقال : حدثنى بما كان بينى وبينك من الرسائل : ما الذى أردت بانفاذ الاناء المملوء بالسمن اليك قال الفيلسوف : أردت أن تقول : ان قلبى مملوء من العقل والحكمة فلا مدخل فيه لشيء منهما ، قال الاسكندر : صدقت ، فما أردت أنت بالابر

التي غرزتها في السمن ؟ قال : اردت ان اقول : ان عندي من دقائق الحكمة الحسنة ما يتغلغل الى قلبك وان كان مملوءا من الحكمة قال : اصبت ، فما اردت باتخاذها كرة سوداء ؟ قال : اردت أن تقول ان قلبي قد قسا وغلظ من كثرة الدماء التي ارقتهـا ، قال الاسكندر : احسنت ، فما الذى اردت انت باتخاذك منها مرآة ؟ قال : اردت أن اقول : انى استطيع ان اتوصـل الى تغيير قلبك واصلاحه ومداواته بدوائه ، قال الاسكندر : أجدت فما الذى اردت بردها اليك صدئة ؟ قال : اردت أن تقـول : ان قلبى الفاسد لا تصلحه مواعظك ، قال الاسكندر : ما أردت سوى ذلك ، فما الذى أردت أنت بردها مجلوة ؟ قال : اردت ان أقول : ان كان قلبك قد صدىء فاني اصقله وأزيل عنه ما تغشاه بلطائف كلامى وبدائع ألفاظى، فقال الاسكندر : ما اعجب شأنك ولا خربت أرض أخرجت مثلك ، ثم خيره بين المقام معه والرجوع الى وطنه ، فاختار الرجوع ، فأمر له بصلة ، وسرحه الى بلده

ثم لما كان من الغد وفرغ الاسكندر من الاكل مع ندمائه دعا بالقدح وامر بأن يملأ ماء ، فشرب منه حتى ارتوى ولم ينقص الماء ، وامر بادارته على جلسائه ، فشربوا منه كلهم والماء بحاله ، فتعجب من تلك الخاصية ، وقال : قد قضى « كيد » ما عليه ، وقد بقى أن نقضى ما علينا له ، فأمر بمكاتبته فى الثناء عليه ، واقراره على عمله ، وانفاذ الهدايا اليه . ثم بدا له فى أمر كنكة ، وقال : هى فتنة عظيمة وعقيلة عجيبة ، تشغلنى عما أنا بصدده من فتح الدنيا ، وقهر الملوك ، وتدبير الممالك ، وقبيح بمن غلب الرجال أن تغلبه النساء ، وليس الراى الا ردها الى والدها ، فأمر بتجهيزها وتسريحها الى ابيها

الندم على الزمرد الفائق

ثم ان الإسكندر اخذ في التغريب برا وبحرا ، لما كان في نفسه من دخول الظلمات ، وتطلب ماء الحياة من عين الخلد ، واستمر طول طريقه على عادته في قهر الملوك والجبـــــابرة ، حتى بلغ مغرب الشمس فوجدها كما قال الله عز ذكره تغرب في عين حمئة ، فنظر اليها كيف تغرب في منازلها ، ثم دخل الظلمات مما يلي القطب الشـــمالي في أربعمائة من أصحابه ، وساروا فيها ثمانية عشر يوما على أرض من الحجارة لا يدرون ماهي ، فقال لهم الاسكندر : خذوا منها ، واعلموا أن من أخذ منهــا ندم ومن تركها ندم ، فأخذ منها بعض القوم ووضعوها في مخالي دوابهم ، ولم يأخذ منها أكثرهم . ولم يظفر الاسكندر بما أراد من عين الخلد ، ويقال ان الخضر عليه السلام عثر عليها ، وشرب منها ، ولم يخبر أحدا بمكانها لما كان في سابق قضاء الله تعالى من امتداد المـــدة في حياته الى يوم الوقت المعلوم . ولما خرجوا من الظلمـــات الى نور الشمس تأملوا الحجارة المأخوذة ، فاذا هي زمرد كلها ، فندم من أخذ على ترك الاستكثار منها ، وندم من لم يأخذ على عدم أخـــذه . يقال أن الذي في أيدي الناس الى الان هو من الزمرد الفائق ن هذه الارض البعيدة ، ويقال ان جبل المقطم بمصر معدن زمرد دون غيره من جبال الدنيا

بهرام جور

اشتهر بهرام جور ، وهو أحد الاكاسرة ، ببراعته ومهارته في صيد الظباء ، ويقال انه قسم أيامه بين اللهـــو والطـــرب والصيد واللعب ، فأراد أن يجمع يوما بين لذات الصـــيد والشراب والسماع الى الغناء ، فامتطى فرسا كريما ، وأخرج

معه جاريته آزاد الصناجة ومعها صنجها ، واستصحب زقا من الخمر وكأسا من الذهب ، وسار الى الصيد ، فجعل يصيد ويشرب ويسمع الى ضرب جاريتـــــه وغنائها . وعن له سرب من الظباء ، فقال لآزاد : ايها تريدين ان اصيده لك ؟ فقــالت : انما أريد ان تصير (تجعل) ذكرا منها كالانثى وانثى منهـــــا كالذكر ، فتحير بهرام ، وقال فى نفسه : ان لم استطع قيل انه منى جارية ولم يف بأمنيتهــا ، والتفت اليها قائلا : لشــــد ما اقترحت ، ورمى ظبيا بسهم له نصل على صورة الهلال ، فاستأصل به قرنيه ، حتى صار كالانثى التى لا قرن لها من غير ان يمس رأسه ألم ، ثم رمى ظبية فى راسها بنشابتين نشبتا فيه قائمتين كالقرنين حتى اشبهت ذكرا من الظباء ، فقالت آزاد : احسنت وبقى ان تجمع بين اذن تلك الظبية ورجلها ، فغضب بهرام من اشتطاطها ورمى رأس الظبية ببندقة ، فحين حكته برجلها أرسل فى التو سهما الصق اذنها برجلها وخاطها بها . ولما فرغ من هذه الرمية العجيبة ، والفعلة البديعة ، رمى بالجارية الى الارض وأوطأها فرسه وشتمها وقال لها : انك اردت ان تفضحينى بهذا الاشتطاط فى الاقتراح ، فاندقت ولم تصلح ، ويقال انها ماتت من تلك السقطة والوطأة الشديدة

الشطرنج والنرد

كان الملوك فى الزمن القديم يتراسلون ويتهادون ، ويسأل بعضهم بعضا عن المشكلات والغرائب ، فلما دان ملوك الاقاليم لكسرى أنو شروان ، وانفذوا اليه الهدايا ، انفذ اليه ملك الهند هدايا كثيرة نفيسة وفيها الشطرنج ورقعتها ، وسأله عن سرها ليرى هل يفطن اليها . ولما عرضت على أنوشروان علم انه لايستطيع معرفة كنهها سوى وزيره بزرجمهر الذى اشتهر بالذكاء والحكمة ، فبعث فى طلبه وعرضها عليه ، فتأملها وادق النظر فيها حتى فطن لسرها ، وعرف حقيقتها فى مجراها ومبناها ، فقال : هذه انما وضعت للحرب وجعل الاكبر منها الملك ، والذى يليه الوزير ، والقطع الكبار القواد والبياذق الرجالة أو العسكر ، وحركاتها مصاولة القتال .

فتعجب رسول ملك الهند من فطنته ، ولم يلبث بزرجمهر ان عارضه بوضع النرد (الطاولة) ، وانفذه الى ملك الهند ، فلم يفطن هو ولا حكماؤه له ، وكتب الى كسرى انوشروان يسأله ان يأمر بزرجمهر بتنبيهه عليه ، فصدع بأمره بزرجمهر ، وقال ان خطوطه الاثنى عشر على عدد الشهور وبروج الفلك وقطعها السود والبيض هى الليالى والايام والمكعبان (قطعتا الزهر) حظوظ الناس وجدودهم . ولما أبلغ ملك الهند ذلك استحسن النرد وزاد فى مواصلة الهدايا لملك الفرس .

وفى بعض الكتب ان اخوين من ابناء ملوك الهند تنازعا الملك

بعد ابيهما ، فتجاربا ، وهلك احدهما فى حومة الحرب ، فجزعت عليه والدته جزعا شديدا ، وأرادت ان تحرق نفسها ، فمنعت من ذلك . ومازالت تبكى وتلوم ابنها الباقى على اتلافه أخاه ، فأراد ان يدل امه على براءة ساحته وانه لم يقصد قتله ،وانما اتت عليه طبيعة المعركة ، اذ لابد ان يقتل احدهما . فأمـــر الحكماء بوضع مايصور الحـــرب والمعركة والمكافحـــة بين الجيشين ، وهلاك احد الملكين او الاميرين المتعاركين ، فوضعوا الشطرنج وصوروا هيئة الحال فى المبارزة والمصاولة والمغالبة، وكيفية الامر فى موت الشاه (الملك) ، ولعبوا بين يديها ، حتى احاطت بصورة المعركة وعرفت الكيفية فى تلف ابنها ، فعذرت ابنها الباقى ، واتخذت من لعبة الشطرنج بعض السـلوان لما نزل بها

※

عقاقير تحيى الموتى

كان لكسرى انوشروان مائة وعشرون طبيبـــا بين رومى وهندى وفارسى ، وكان برزويه من امهر اطباء الفرس واكثرهم دراسة للكتب ، فوجد فى بعضها ان ببلاد الهند جبالا ، فيهـا من غرائب العقاقير مايحيى الموتى . فمازال ذلك يدور برأسه، ويسمو بهمته الى تطلبه وتحصيله ، حتى اخبر انو شروان بما فى نفسه ، واستأذنه للنهوض والسعى فى الظفر ببغيته ، فأذن له واعانه على سفره ، وزوده بكتاب الى ملك الهند حتى يهتم بأمره ، ويعمل على انجاح مطلبه

ولما دخل برزويه الهند واوصل كتاب انوشروان الى ملكها اكرمه وحكمه فى مناه ، وانهضه لوجهته فى طلب العقاقير من مظانها ، فمازال يجد ويجتهـــد ويتعب ويدأب فى محـــاولة اجتنائها والتقاطها وتأليفها وتركيبها ، حتى كان مثله بعد حين من الدهر كما تقول عامة بغداد : مازلنا فى لاشىء حتى فرغنا . واستشعر الكآبة والانخزال لما فاته من مراده وما ضاع من ايامه ، وتصور الخجل من انوشروان اذا عاد مخفقا اليه ، فسأل عن اطب الاطباء واحكم الحكماء بأرض الهند ، فدل على شيخ عالى السن ، فأتاه ، وقص عليه قصته ، وذكر له ماقراه فى بعض الكتب من حديث جبال الهند واشتمالها من العقاقير على مايحيى الموتى ، فقال له : « يابرزويه حفظت شيئا وغابت عنك اشياء ، اما علمت ان ذلك رمز للقدماء ، والمراد بالجبال العلماء

وبالعقاقير كلامهم الشافي الكافي وبالموتى الجهال ، يعنون ان العلماء يؤدبون الجهال بحكمهم ، فكأنهم يحيون الموتى . وهـذه الحكم موجودة في كتاب معنون باسم كليلة ودمنة ، لايوجد الا في خزانة الملك ، فسرى عن برزويه وسر بما سمع

ورغب برزويه الى الملك في اعارته هذا الكتاب ، وتقليد الملك انو شروان بذلك منة مشكورة ، فقال له الملك : سـآمر باعارته لك ايجابا لصاحبك ، ورعاية لحقك ، على شريطة ان تقرأه بين يدي ولا تتخذ منه نسخة لنفسك ، فأجابه برزويه بالسمع والطاعة ، وجعل يحضر في كل يوم مجلسه ، ويدعو بالكتاب فينظر فيه ، ويتحفظ معانيه ، ويقيدها بالكتابة اذا رجع الى منزله ، حتى اتى على جميعه . واستأذن الملك للعودة الى صاحبه ، فأذن له وأهدى اليه وخلع عليه . وحين وصل الى انو شروان أخبره بقصته وبشره بحصول الكتاب لديه ، ثم عرضه عليه ، فأعجب به وأجزل صلته ، وأمر بزرجمهر بنقله الى اللغة الفارسية ، فتلطف برزويه وتضرع الى الملك في الاذن ، بافتتاح الباب الاول منه باسمه وذكره ، فأجابه اليه. ولم يزل الكتاب مخزونا عند ملوك الفرس حتى نقله ابن المقفع الى العربية

صندوق السر الغامض

لما نكب كسرى انو شروان بزرجمهر أمره بأن يختار لسكناه موضعا لايبغي عنه حولا في الصيف والشتاء ، ولطعامه شيئا واحدا لايستبدل به وللباسه ثوبا لايتعداه الى غيره ، فاختار السرب (البيت الذاهب تحت وجه الارض) لكونه في الصيف باردا وفي الشتاء حارا ، واختار اللبن لانه طعام وشراب ، وهو غذاء الصغير والكبير ، واختار الفرو ، ليلبسه في الشتاء حتى اذا دخل

الصيف قلبه . فطالت أيامه فى المحنة حتى كف بصره ، واتفق ان انفذ قيصر الى انوشروان صندوقا صغيرا مقفلا مختوما ، وسأله ان يحاول معرفة مافيه قبل فتحه ، فسأل انو شروان من ببابه من العقلاء عن ذلك ، فتساوت أقدامهم فى القصور عن الاجابة والاصابة . وعلم انو شروان ان ليس له الا بزرجمهر على عماه ، فأمر باطلاقه وادخاله الحمام والباسه ماكان يلبسه من ثياب الوزراء وادخاله . فامتثل أمره ، وأوصل بزرجمهر الى مجلسه ، فقربه ، واعتذر اليه ، وأخبره بحال الصندوق ، وسأله عما فيه ، فاستمهله ليلة . ثم ركب من الغد وقدم أمامه رجلين وأمرهما ان يخبراه بأول من يستقبله ، فاستقبلته امرأة فقال لها : أبكر أنت أم ثيب ؟ فقالت : بكر ، فانطلق فاستقبلته ثانية فقال لها : أأيم (لازوج لها) أم ذات بعل (زوج) فقالت : بل ذات بعل ، فقال ألك ولد ؟ قالت : لا ، وانطلق فاستقبلته ثالثة ، فسألها عن حالها ، فقالت ذات ولد . وانطلق بزرجمهر حتى دخل على أنوشروان ، وسأله الامر باحضار الرسول والصندوق المختوم فأحضرا ، فقال بزرجمهر : ان فى الصندوق ثلاث درر احداها غير مثقوبة والثانية منصفة ، والثالثة مثقوبة ، ففتح عنها ، فكانت كما وصف . وتعجب أنوشروان من فطنته وندم على نكبته ، وعاد الى قديم صلته والرفق به

صقر وعصفور

يحكى ان خسرو بن فيروز ، أحد ملوك الفرس ، جلس يوم مهرجان للهدايا ، فجاءه منها طبق ذهب مغطى بمنديل حرير ، أرسله اليه موبذان (من كهنة المجوس) فأمر بكشفه واذا فى الطبق فحمتان محترقتان ، فتعجب

من سخف الهدية مع شرف ظرفها (وعائها) ، ثم قال ما أراها الا مشتملة على حــــكمة فعلى بالموبذان ، فلم يلبث ان قدم ، وسأله خسرو عن الفحمتين ، فقال : اعلم ايها الملك انى اجتزت بروضة عالية الاشــجار ، قد اشتعلت فيها النار ، ورايت صقرا يتعقب عصفورا ، فهرب منه العصفور ، واقتحم النار من خوفه ، وتبعه الصقر حتى دخل فى النار على اثره حرصا على صيده ، فاحترقا معا ، وسقطا فحمتين ، فأخذتهما معتبرا بهما ، وقلت فى نفسى : لاينبغى للانسان ان يستشعر خــوف عدوه كل الاستشعار ، حتى يقدم من شدة الخوف على الاستجارة بما يهلكه كالعصفور الذى احرق نفسه لفرط خوفه . ولاينبغى للانسان ايضا ان يحرص جدا على متاع الدنيا ، حتى يمشى بقدمه على دمه فى ألتوصل اليه ، كالصقر الذى جنى على نفسه بشدة حرصه ، فقال خسرو : ما أوعظ هديتــك وما أحسن موقعها ، وماأهديت الى اليوم مثلها ، وبالغ فى اكرامه والاحسان اليه

من كتاب عجائب الهند

فيلة تخدم أصحابها

فى الهند فيلة تتصرف فى حوائج أصحابها ، فترى صاحب الفيل يدفع اليه الوعاء الذى يشترى فيه مايريد ، وفيه الودع ، وهو نقد القوم ، وانموذج (مثال) الحاجة المطلوبة كائنا ماكانت ، فيكون معه الانموذج والنقد ، ويمضى الى البقـــال ، فاذا رآه نزل من جميع شغله مهما كان على راسه ممن يشترى منــــه كائنا من كان ، واخذ الوعاء منه ، فعد الودع الذى فيه ، ونظر ما يريد بأنموذج وعائه ، ودفع اليه أجود ماعنده من ذلك النوع بأرخص سعر . ويستزيده ، فيزيده . وربما عد البائع الودع فغلط فيه ، فيشوشه الفيل بخرطومه ، فيعد البقال مرة ثانية . ويمضى الفيل بما اشتراه ، فربما استقله صاحبه فيضربه ، فيعود الى البقال ، فيشوش متاعه ، ويخلط بعضه ببعض ، فاما ان يزيده أو يرد عليه الودع . والفيل الذى هذا صورته يكنس ويرش ويدق الارز بمدقة ، يأخذها بخرطومه ، فيدق ، ورجل يجمع عليه الارز حتى يطحنه . ويستقى الماء ، وذلك انه يأخذ الوعاء الذى يستقى فيه الماء ، وفى الوعاء حبل مشدود يدخل خرطومه فيه ويحمله . ويقضى جميع الحوائج ، ويركبه صاحبه فى حوائجه البعيدة . ويركبه الصبى ويمضى عليه الى المزارع ، فيقطع الحشيش وورق الشجر بخرطومه ، ويدفعه

الى الصبى ، فيجمعه فى وعاء معـــه ، ويحمله ، فيكون ذلك طعامه . واذا كان الفيل على هذه الصفة بلغ مالا عظيما ، قيل عشرة آلاف درهم

صناعة الورود والرياحين بالصين

قال كاوان : ادخلنى باغ بور (ابن ماء السماء) ملك الصين الى بستان بخانفو (كانتون) مقدار عشرين جريبا (مزرعة) فيه نرجس ومنثور وشقائق وورد وسائر الانوار (الازهار) فعجبت من اجتماع أزهار الصيف والشتاء فى وقت واحد فى بستان واحد ، فقال لى : كيف ترى ؟ فقلت : مارايت حسنة الا وهذا أحسن منها ، ولا طرفة الا وهذا أطرف منها . فقال لى : جميع ماترى من الاشجار والازهار مصنوع من الحرير . فتفقدته بعد أن قال لى هذا ، فوجـدت الورق والازهار من الحرير الصينى ، قد عمل وضفر وحبك ونسج وسوى على هذه الصورة . ومن رآه لم يشك فى انه شجر وزهر حقيقى ، لايغادر شيئا من الواقع

اسلام ملك من ملوك الهند

كتب مهروك بن رائق ، أحد ملوك الهند ، وملكه بين قشمير الاعلى والاسفل ، الى صاحب مدينة المنصورة (فى الهند) سنة مائتين وسبعين ، يسأله ان يفسر له شريعة الاسـلام بالهندية ، فأحضر صاحب المنصورة رجلا عربيا حاد القريحة حسن الفهم شاعرا ، كان قد أقام ببلاد الهند وعرف لغاتهم على اختلافها ، فعرفه ماسأله مهروك ، فكتب قصيدة يمدحه بها ويعرفه ما يسأل عنه ، فلما قرئت عليه استحسنها وكتب الى حاكم المنصورة يسأله حمل صاحب القصيدة اليه ، فأرسله له ، فأقام عنده ثلاث سنين . ثم رجع فسأله حاكم المنصورة

عن امر هذا الملك وهل اسلم ؟ فشرح له أخباره ، وقال انه تركه وقد اسلم قلبه ولسانه ، ولكنه كتم اسلامه مخافة ذهاب ملكه . وكان فيما حكاه عنه انه سأله ان يفسر له القرآن بالهندية ، فانتهى من التفسير الى سورة يس وفسر له قوله عز وجل : « قل من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » وكان جالسا على سرير من الذهب مرصع بالجوهر والدر ، فقال له : أعد علي، فأعاد عليه تفسيره ، فنزل عن سريره ، ومشى على الارض ، وكان قد رشها بالماء وهى ندية ، فوضع خده عليها وبكى ، ثم قال : هذا هو الرب المعبود والاول القديم الذى ليس يشبهه احد . وبنى بيتا لنفسه ، واظهر انه يخلو فيه لمهمة . فكان يصلى فيه سرا حتى لايطلع على ذلك انسان ، ووهب له ثلثمائة أوقية من الذهب

من كتاب آثار البلاد واخبار العباد

الزوجة الموافقة

حكى رجل قال : وجدنا بحضرموت سنبلة قمح ملأت طبقا من الفخار ، وكل حبة منها كبيضة دجاجة ، ووزناها ، فكانت رطلين ، ورأينا شيخا له خمسمائة سنة ، وله ولد له أربعمائة سنة ، وحفيد له ثلثمائة سنة . فذهبنا الى ابن الابن ، نسأله عن ذلك ، وقلنا انه اقرب الى الفهم والعقل ، فوجدناه لايعرف الخير من الشر ، فقلنا اذا كان هذا حال الحفيد فما حال الاب والجد ، فذهبنا الى صاحب الاربعمائة ، فوجدناه أقرب الى الفهم من ابنه ، فذهبنا الى الجد صاحب الخمسمائة ، فوجدناه أحسن حالا منهما ، سليم العقل والفهم ، فقلنا له : ماسبب فساد عقل حفيدك ؟ فقال : كانت له زوجة سيئة الخلق ، لاتوافقه فى شىء اصلا ، فأثر فيه ضيق خلقها ، ودوام الغم بمعايشتها ، وأما ابنى فكانت له زوجة توافقه مرة وتخالفه مرة ، ولهذا كان أحسن حالا واقرب فهما وتمييزا منه ، وأما أنا فلى زوجة موافقة فى جميع الامور ، فلذلك سلم فهمى وعقلى . فسألناه عن سنبلة القمح ، فقال : هذا زرع قوم من الامم الماضية كانت ملوكهم عادلة ، وعلماؤهم أمناء ، وعوامهم منصفة

صنم سومناة

لما غزا السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى بلاد الهند

سعى في فتح بلدة سومناة (فى شمالى الهند) ، حتى يزيل صنمها الذى يحج اليه الهنود من جميع ديارهم ، طمعا فى دخولهم فى الاسلام وانتشاره فى جميع بلادهم . فوصل اليها فى منتصف ذى القعدة سنة ست عشرة وأربعمائة ، فقاتل الهنود عنها أشد قتال ، وكانوا يدخلون على سومناة ويبكون ويتضرعون ، ثم يخرجون الى القتال فتحصدهم سيوف السلطان محمود وجنوده • واستولى على المدينة ، فرأى ازالة هذا الصنم الكبير ، وكان عجيبة من العجائب اذ كان قائما فى هيكل ، معلقا في فراغ قبة كبيرة ، لايمسكه شيء في الارض ولا فى السقف • فقال السلطان لاصحابه ومن حوله : ما تقولون في هذا الصنم وأمره ووقوفه فى الهواء بلاعماد ؟ فقال بعض السامعين انه علق بأسباب وعلائق ، أخفيت عن الانظار حتى لاتراها . فأمر السلطان شخصا يدور برمحه حول الصنم ومن اعلاه واسفله ففعل فلم يمنع الرمح شيء • وتأكدوا ان ليس هناك علائق ولا أسباب تصله بشيء مما حوله • فتقدم رجل عارف الى السلطان وقال له : انى أظن أن القبة من حجر المغناطيس والصنم من الحديد ، وقد بالغ الصانع فى تدقيق صنعته ، فراعى تكافؤ قوة المغناطيس من جميع الجوانب ، بحيث لاتزيد قوة جانب على جانب آخر ، فوقف الصنم فى وسط الفضاء وحفظ توازنه • فوافقه قوم وخالفه آخرون • فقال الرجل للسلطان: ائذن لى ان ارفع حجرين من راس القبة ليظهر ذلك فأذن له . فلما رفع الحجرين اعوج الصنم ومال الى أحد الجوانب ، ولم يزل الرجل يرفع الحجارة والصنم يهبط الى أسفل حتى سقط على الارض

بربا (هيكل) اخميم

من عجائب مصر البرابى (معابد وهياكل الفراعنة) وهى بيوت بها صور طير ونباتات وأشجار وعليها كتابات وطلسمات (الكتابة الهيروغليفية) • وبربا اخميم بيت فيه صور وتماثيل ثابتة ، وقد ذكر أنه لما أغرق الله تعالى فرعون وجنوده فى البحر خلت مصر من الرجال • وكانت امرأة من بيت الفراعنة تسمى دلوكة أرادت أن تصنع شيئا يمنع الممالك المجاورة من الاغارة على البلاد ، وكانت باخميم ، وكان بها ساحرة يشـــهد لها سحرة مصر بالتفوق فى علم السحر ، وكانت تسمى تدورة ، فقالت لها دلوكة : اننا نحتاج اليك فى شىء تصنعينه يكون حرزا لبلادنا ممن يرومها من الملوك ، نحن كما ترين بغير رجال! فأجابتها الى ما أرادت وصنعت لها بربا ، وهو بيت له أربعة أبواب الى أربع جهات ، وصورت فيه السفن والرجال والخيل والبغال والحمير ، وقالت لها قد عملت لك شـــيئا يغنيك عن الرجال والسلاح والحصون ، فان من أتاكم من البر يكون على الخيل والبغال والحمير ومن أتاكم من البحر يكون فى السفن • فحين يأتى أحد من البر أو البحر تحرك الصور التى على مثاله، فما يفعل بها يعيبه مثل ذلك فى أنفسه ورجاله • فكانوا بعد ذلك اذا أتاهم عدو تحركت الصور ، فقطعوا سيقان الدواب وفقئوا عيون الرجال وبقروا بطونهم ، فيصيبهم مثل ذلك

قال القزوينى : وهذه الحكاية تشبه الخرافات ، ولكنى وجدتها فى جميع كتب اخبار مصر • وهى خرافة لاريب فيها • ونجد فى كتابات مؤرخى العرب كثيرا من مثل هذه الخرافة التى لاتتفق وما كشفت عنه الآثار الفرعونية ، ويغلب أن يكونوا قد نقلوها من القصص الشعبى الذى كان يدور على الالسنة

عروس النيل

لما فتح المسلمون مصر جاء أهلها الى عمرو بن العاص حين دخل شهر بئونة (يونية) من أشهر القبط وقالوا : أيها الامير ان لبلدنا سنة (عادة) لايجرى النيل الا بها ، وذلك أنه اذا كان لاثنتى عشرة ليلة من هذا الشهر عمدنا الى فتاة ، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب افضل مايكون ، ثم القيناها فى النيل . فقال لهم عمرو : ان هذا لا يكون فى الاسلام ، وان الاسلام يهدم ماقبله ، فأقاموا اشهر بئونة وأبيب (يولية) ومسرى (أغسطس) والنيل لايجرى أبدا ،لاقليلاولاكثيرا حتى هم اهل مصر بالجلاء عنها ! . فلما رأى عمرو ذلك كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك فكتب عمر اليه : قد أصبت ان الاسلام يهدم ماقبله ، وقد بعثت اليك بطاقة (رسالة) فألقها فى داخل النيل ، واذا فيها : « من عبدالله أمير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأله أن يجربك » . فألقى عمرو بن العاص البطاقة فىالنيلوقدتهيأأهل مصر للجلاء ! لان مصالحهم لاتقوم الا بالنيل ، فأصبحوا وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة . وهى قصة لاتؤيدها حقائق التاريخ

قاض يخون الأمانة

«كرد فناخسرو » مدينة يضرب بقاضيها المثل فى الخيانة ، حكى أن بعض الناس أودعه مالا كثيرا ، فلما أراد أن يسترده جحده وانكره ، فاجتمع صاحب المال بعضد الدولة البويهى (٣٣٧ ــ ٣٧٢ هـ) منشىء المدينة وبانيها ، وقال له : أيها السلطان انى ابن فلان التاجر ، ورثت من أبى خمسين ألف

دينار ، وأودعت عشرين ألفا منها فى قمقم (وعاء) عند قاضيك الى وقت الحاجة ، وكنت أتصرف فيما معى ، فوقعت في بعض أسفارى فى أسر الروم ، وبقيت أربع سنين حتى تخلصت • فلما رجعت وطلبت الوديعة من القاضى جحدها ، واظهر انه لايعرفنى ولا يسمع بى • وكررت عليه الطلب ، فقال لى : انك رجل مجنون ،قد غلبتك السوداء ، فدع عنك هذا الجنون ، والا بعثت بك الى المارستان (مستشفى المجانين)وقيدتك فى السلسلة هناك • فتأثر عضد الدولة ، وقال له « أنا الذى ظلمتك بتوليتى مثل هذا القاضى » وأعطاه مائتى دينار ، وقال له : لاتذكر هذا القول ولا هذه القصة لاحد حتى يأتيك أمرى • وانتظر عضد الدولة شهرا ، ثم طلب القاضى يوما فى الظهيرة واختلى به وبالغ فى اكرامه ، ثم قال له : ايها القاضى ان لى سرا ما وجدت له في جميع مملكتى غيرك محلا له لما تمتاز به من كمال العلم ووفور العقل والدين ، وهو أن لى أولادا ذكورا واناثا ، أما الذكور فلست أهتم بأمرهم ، وأما الاناث فهن اللائى أخشى عليهن ، فأردت أن تتخذ فى دارك موضعا صالحا لوديعة لايعلم بها أحد غير الله ، تدفعها الى بناتى بعد موتى ، ودفع الى القاضى مائتى دينار وقال : اصرفها فى عمارة بناء صغير ببيتك يسع مائتين وأربعين قمقما • واذا تم لك ذلك أخبرنى حتى أبعث اليك القماقم على يد بعض من يستحق القتل ، ثم أقتله فلا يعلم أحد السر • فقال القاضى سمعا وطاعة ، وقام من عنده فرحا يحدث نفسه بأنه سيتمتع بهذا المال هو وأولاده وأحفاده ، فان عضد الدولة اذا مات لايوجد بعده من يطلب المال، اذ لا حجة ولا شاهد • واشتغل بعمل بناء صغير ، وبعث عضد الدولة الى الفتى المظلوم ، فلما أخبر القاضى عضد الدولة باتمام

البناء قال عضد الدولة للفتى : اذهب الى القاضى وطالبه بالوديعة وهدده برفع الامر الى . فذهب الفتى الى القاضى وقال له : أيها القاضى ساء حالى وطال ظلمى ، ولئن لم تدفع لى الوديعة لآخذن غدا بلجام عضد الدولة وأخبرنه القصة . فقام القاضى ، ودخل حجرة ، وطلب الفتى وعانقه ، وقال له : يابن أخى ان أباك كان صديقى ، وما حبست المال الا لمصلحتك ، لانى سمعت أنك أتلفت مالا كثيراً ، فأخرت وديعتك الى أن أعرف رشدك ، والآن عرفت رشدك ، فخذ حقك ، بارك الله لك فيه . وأخرج المال وسلمه اليه . فأخذه الفتى ومضى الى عضد الدولة به ، فأحضر القاضى ، وقال له : ايها الشيخ القاضى أنى أجريت عليك رزقك ، لتقطع طمعك عن أموال الناس ، ولولا انك شيخ لجعلتك عبرة لمن بعدك ، وقد ثبت عندى ان جميع مالك حرام من أموال الناس . وختم على جميع ماله وعزله ، وقال : الحمد لله الذى وفقنى لازالة ظلم هذا القاضى الظالم



العمل الصالح

انطلق ثلاثة نفر فى الزمن القديم ، حتى دخل عليهم الليل، بالقرب من البلقاء فى الشام ، فباتوا فى غار بجبل ، فلما أصبحوا وجدوا صخرة انحدرت من الجبل وسدت عليهم باب الغار ، فقالوا لاينجينا من هذه الصخرة الا أن ندعو الله بصالح اعمالنا ، فقال رجل منهم : اللهم انه كان لى أبوان كبيران ، فكنت اطعمهما اللبن صباحا ولا أقدم عليهما أهلا ولا ولدا ، وأخذهما النوم يوما ، ولما حلبت اللبن وجدتهما نائمين ، فمكثت بجانبهما والقدح فى يدى ، انتظر استيقاظهما حتى طلع النهار والصبية من حولى يتصايحون جوعا ، فاستيقظا وشربا اللبن ، اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، ففرج عنا مانحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه . فقال الثانى : اللهم انه كان لى ابنة عم احبها ، فألمت بنا سنة مجدبة فجاءتنى فأعطيتها مائة وعشرين دينارا ، وقد تعرضت لى وقالت : هيت لك ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس الى ، اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه ، فانفرجت الصخرة قليلا ، غير أنهم لايستطيعون الخروج منها . فقال الثالث : اللهم انك تعلم انى استأجرت أجراء (عمالا) فأعطيتهم اجرهم غير رجل واحد ، ترك الذى له وذهب ، فنمت اجرته فى تجارتى حتى كثرت وازدادت زيادة كبيرة ، فجاءنى بعد حين ، وقال : ياعبد الله هات أجرتى ، فقلت له : كل ماترى من الابل

والبقر والغنم والعبيد من أجرتك فقال : يا عبد الله لاتستهزىء
بى ، فقلت له : لاأستهزىء ، وانما هى الحقيقة • فاستاق ذلك
كله ، ولم يترك منه شيئا ، اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء
وجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة • وخرج من
الغار النفر الثلاثة لم يصبهم أذى

نبوءة منجمين

حكى ان المنجمين قالوا لسابور بن أردشير ملك الفرس :
أن الملك يزول عنك ، ثم يعود اليك ، فقال لهم : وما علامة
عودته ؟ قالوا : اذا أكلت خبزا من الذهب على مائدة من الحديد ،
فلما ذهب ملكه خرج وحده تخفضه أرض ، وترفعه أخرى ،
الى أن صار الى قرية أسفجين من قرى همذان ، فاستأجره شيخ
القرية ، على أن يزرع له أرضا نهارا ويطرد عنها الوحش ليلا •
فبقى على ذلك مدة ، فرأى شيخ القرية منه جلدا وأمانة ، فزوج
بنته منه • فلما انقضت أربع سنين اتفق أن كان فى القرية
عرس ، اجتمع فيه الرجال والنساء ، وكانت امرأته تحمل اليه
كل يوم طعامه ،فاشتغلت عنه فى ذلك اليوم الى ما بعد العصر•
ولما ذكرته عادت الى بيتها ، فلم تجد الا قرصـــين من الدخن
(حب أصــــفر يابس) فحملتهما اليه فوجدته يسقى الزرع
وبينها وبينه ساقية فمد المسحاة اليها ، فجعلت القرصين عليها
فقعد يأكلهما • وتذكر سابور قول المنجمين انه يأكل خبز
الذهب على مائدة من الحديد ، فعرف ان ايام بؤسه انقضت ،
فظهر للناس واجتمعت عليه الجنود ، وعاد الى ملكه • فقالوا له :
ما أشد شىء لقيته فى أيام بؤسك ؟ فقال : طرد الوحوش عن
الزرع ليلا ، فصادوا فى ذلك الموضع مالايحصى من حمرالوحش
وأمر أن يبنى من حوافرها منارة ، ارتفاعها خمسون ذراعا •

يقول القزوينى : والمنارة مشهورة فى هذه القرية الى زماننـــا

فرس كسرى ابرويز

كان لكسرى ابرويز فرس يسمى شبديز ، أهداه اليه ملك الهند ، وكان من أذكى الدواب ، واعظمها خلقا ، وأصبرها على طول الركض، فاتفق انه اعتل وزادت علته ، فقال كسرى : من أخبرنى بموته قتلته ، ومات فخاف صاحب خيله أن يسأله عنــه ، فيجيبه بموته ، فجاء الى مغنى كسرى ، وسأله أن يحتال عليه فى أثناء غنائه ، ويخبره بذلك ، فلما سمعه كسرى يذكره متحسرا عليه فى شىء من غنائه فطن لما صار اليه ، فقال له : ويحك مات شبديز ، فقال : الملك يقول ذلك ، فقـــال كسرى حسنا ، ما أحسن ماتخلصت وخلصت غيرك . وأمر فطرس بن سنمار بتصـــويره ، فصنع طاق بستان بجبـــل بيستون ، وهو ايوان فى الحجر وفى وسطه صورة فرس كسرى شبديز ، وكسرى راكب عليه ، وجعل على حيطان الايوان صورة شيرين وجواريها ومواليها . وقد زعم بعض النـــاس لدقة صنع تمثال شبديز ، انه ليس من عمل البشر لما فيه من الفكر اللطيف والنظر الدقيق ، وكذلك صورة شيرين فانها تظهر الحسن والملاحة فى وجهها ، حتى فتن بها بعض النـــاس، وعشق صورتها عشقا شديدا . ولما جاء كسرى وتأمل الطاق والتمثال قال لشد ما نعى هذا التمثال الينا أنفسنا ، وذكرنا مانصير اليه من موت جسدنا وطموس صورتنا

عاشق شيرين

عشق رجل حجار اســـمه فرهاد شـــيرين حظية كسرى ابرويز ، وكانت رائعة الحسن والجمال ، وتدله فى عشقها ، واشتهر ذلك بين الناس ، حتى عرفه أبرويز ، فقال لحاشيته :

ماذا ترونفى امر هذا الرجل ان تركته وما هو عليه قبح ذلك ، وان قتلته او حبسته عاقبت غير مجرم ؟ فأشار عليه بعض السامعين ان يشغله بفتح درب شاق فى جبال يصرف عمره فيه . فاستصوب ابرويز هذا الرأ ى، وامر باحضار الرجل ، فدخل عليه ، فرآه رجلا ضخما طويل القامة ، فأمر باكرامه ، وقال له : ان جبال بيستون تمنعنا من المرور الى ماوراءها ، ونريد ان نفتح فيها طريقا لسلوكنا فيها ، وقد عرفت دربتك وذكاءك ، فقـال الصانع : أفعـل ان وعدتنى بلقاء شيرين ، فتأذى كسرى ابرويز من قوله ، ولكنه قال فى نفسه : من يستطيع ان يقطع جبال بيستون ، ان هذا مستحيل ؟ فقال فى جواب الرجل : نفعل ماتريد ونقضى طلبك اذا فرغت من عملك · فخرج فرهاد من عنده ، وشرع فى قطع الجبـــال ، ورسم فيها دربا يسع عشرين فارسا عرضا ، ويسع سمكه أعلى الرايات والاعلام . فكان يقطع الصخور طول نهاره ، وينقلها طول ليله ، ويرصف من قطعها الكبار فى سفح الجبل ويسويها حتى يستقيم الطريق . ولما كاد ان يتمه ذكر ذلك لكسرى ابرويز ، فأخذه الهم ، فقال له بعض الحاضرين : انا اكفيك امره ، وبعث الى فرهاد من أخبره بموت شيرين ، فلمـا سمع ذلك أخرج زفرة حـــارة من كبده وضرب الفـــأس فى الصخرة ، ثم جعـــل يضرب رأســه على الفـــأس الى ان مات · فقـــال القزوينى : وتلك الآثار باقيـــة الى الآن لاريب فيهـــا ! وقد رأيت عند اجتيـــازى بالدرب شــــبه منارة عظيمة فتح فرهاد جوانبها وما قطعها بعد ، ورأيت قطعا كبيرة من الاحجار ، عليها آثار ضرب الفأس وفى كل قطعة حفرتان على جانبيها ، ليجعل يديه فيهما عند رفعها !

عدل كسرى انو شروان

حكى انه لما اراد كسرى انوشروان بناء قصره الابيض ، الذى وصف ايوانه البحترى فى قصيدته السينية ، امر بشراء كل ماحوله ، ورغب الناس فى البيع بالثمن الوافر . وكان من جملتهم عجوز لها بيت صغير ، فقالت : لست ابيع جوار كسرى بالدنيا كلها ، فاستحسن أنوشروان منها هذا القول ، وأمر بترك بيتها على حاله وبناء الايوان محيطا به ، واتخـــــذت على الايوان نقوش وصور بالتزاويق ، منها صورة مدينة انطاكية وانو شروان يحاصرها ويحارب اهلها راكبا على فرس أصفر ، وعليه ثياب خضر وبين يديه صفوف الفرس والروم . ولما تم البناء وسكن كسرى القصر شكا اليه غلمانه من أن العجوز تدخن فى بيتها ، ودخانها يفسد نقوش الايوان ، فقال : دعوها وكلما افسدت النقوش بدخانها اصلحوها . وكان للعجوز بقرة تأتيها آخر النهار لتحلبها وتأخذ لبنها ، فاذا وصلت الى الايوان طوى الغلمان فرشَه والبسط الممدودة امامه ، لتمشى البقرة الى باب العجوز . فاذا فرغت من حلبها رجعت وسويت البسط والسجاجيد !

الاسم الاعظم

كان أهل نجران (مدينة فى اليمن) اهل شرك وكان عندهم ساحر يعلم صبيانهم السحر ، فنزل بهم رجل صالح وابتنى خيمة بجنب قرية الساحر ، فكان يرى اهل نجران يرسلون باولادهم الى الساحر ليعلمهم سحره ، وكان فيهم غلام اسمه عبد الله ، فكان يمر معهم على الرجل الصالح ،وأعجبته عبادته، فكان يجلس اليه ويسمع منه أمور الدين ، فدخل الايمان فى قلبه واسلم ، وتعلم منه الشريعة والاسم الاعظم ، وقال له

الرجل الصالح : لقد عرفت الاسم الاعظم ، فاحفظه لنفسك .
وجعل عبد الله اذا راى شخصا من أصحاب العاهات يقول له:
ان دخلت فى دينى دعوت الله أن يعافيك ، فاذا أجابه دعا له
وشفى من عاهته ، ولم يزل على ذلك حتى شفى جميع أهل
نجران ولم يبق بينهم صاحب آفة . ورفع أمره الى الحاكم
فأحضره ، وقال له : افسدت على أهل مدينتى وخالفت دينى
ودين آبائى لامثلن بك ، فقال له عبد الله : انك لن تستطيع
ان تصيبنى بسوء • وجعل الحاكم يلقيه من شـــاهق فيقوم
كأن لم يمسسه ضر ، وأغرقه فى البحر فلم يصبه أذى .
فآمن بدينه ووحد ربه ، ودخل أهل نجران جميعا فى دين
عبد الله



أصحاب الكهف

افسوس مدينة مشهورة ، وهى مدينة ديقيانوس الجبار الذى هرب منه أصحاب الكهف ، وهو على بعد فرسخين من المدينة ، وهم سبعة نفر ماتوا وظلوا ثلثمائة سنة وازدادوا تسعا ، ثم عادوا الى الحياة ، ولم يلبثوا أن ماتوا بعد أن ظهرت معجزتهم الخارقة . قال القزوينى :

كان ملك مدينتهم ديقيانوس ارتد الى عبادة الاصنام،ورصد كل من خالفه ودعا الى التوحيد فعذبه بالقتل والصلب والحرق . واتفق أن بعض الفتيان من أولاد بعض البطارقة (الاشراف) خرجوا ذات يوم لينظروا الى المعذبين من الموحدين ، ففتح الله ابصارهم ، وهدى بصائرهم ، وكتب هدايتهم ، فكانوا يرون الموحدين اذا قتل احدهم هبطت اليه الملائكة من السماء وعرجوا بروحه . فآمنوا بربهم ، ومكثوا كذلك مدة ، حتى عرف أمرهم وسمع الملك بايمانهم ، فدعا آباءهم وعاتبهم على ما أقدم عليه ابناؤهم من ايمانهم بربهم ، فقالوا له : انا بريئون منهم ، واصنع بهم ماتريد ، فاحضرهم ، وقال لهم : انى ممهلكم ثلاثة ايام سأخرج فيها عن البلد ، فان عدت فى اليوم الرابع ووجدتكم مخالفين لطاعتى عذبتكم عذابا اليما . ولما كان اليوم الثالث صمم الفتية على الهرب ، ولما جنهم الليل حمل كل منهم شيئا من مال ابيه ، وخرجوا من المدينة يمشون ، فمروا براعى غنم لبعض آبائهم ، فعرفهم وقال

لهم : ما شأنكم ؟ فاظهروا أمرهم له ، ودعوه الى التوحيـــد ، فأجابهم ، فأخذوه معهم ، وتبع الراعى كلبه ، فساروا ليلتهم حتى وصلوا الى كهف ، فدخلوا فيه يختبئون ، وقالوا للراعى : خذ شيئا من الورق (النقود) وانطلق الى المدينة ، واشتر لنا طعاما ، فان القوم لاعلم لهم بخروجك معنا . فأخذ الدراهم ومضى نحو المدينة وتبعه كلبه ، وكان على باب المدينة صنم ، وكان لايدخلها أحد الا بدأ بالسجود لذلك الصنم قبل دخوله فيها ، فبقى الراعى برهة متحيرا مفكرا فى السجود للصنم . وبينما هو كذلك اذا الكلب يعدو بين يديه ، ومازال يعدو حتى دخل المدينة فعدا الراعى خلفه ، وهو يقول : امسكوه امسكوه حتى جاوز الصنم ولم يسجد له . ولما انتهى الى السوق ، واشترى بعض حوائجه سمع قائلا يقـــول : ان راعى فلان أيضا تبع الفتية . فلما سمع ذلك فزع وترك استكمال ماأراد شراءه ، وخرج من المدينة مبادرا حتى وافى أصحابه ، فأخبرهم بما كان من أمره ، فأكلوا طعامهم وأخذوا مضاجعهم ، فضرب الله على آذانهم . فلمـــا رجع الملك اخبروه بهربهم ، فخرج يقفو آثارهم ، حتى انتهى الى باب الكهف ، ووقف على أمرهم ، فقال : يكفيهم من العذاب أن ماتوا جوعا . فأهلك الله ديقيانوس وأنزل على باب الكهف صخرة ، وبعث الى الناس الانبياء ، فدعوهم الى التوحيد ، فأجابهم خلق كثير ، آمنوا بهم ، ومرت السنون ، فلما كانت السنة التى أراد الله فيهـا احياء الفتية ، انطلق رجل من أهل المدينة ، وأقام بالقرب من الكهف يرعى غنمه ، فأراد أن يتخذ لغنمه حظيرة ، فأمر أعوانه بتنحية الصخرة التى كانت على باب الكهف ، فعند ذلك قام الفتية كمن يبيت ليلة صافية هنيئة ، ورأوا كلبهم باسطا ذراعه

بالوصيد (فناء الكهف) وكان ذلك بعد ثلثمائة سنة بحساب الروم وزيادة تسع بحساب العرب ، لان سنى الروم شمسية وسنى العرب قمرية . وكان انتباههم آخر النهار ، ودخولهم فيه أول النهار ، فقال بعضهم لبعض : كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، لانهم رأوا الشمس غير غاربة ، فلما نظروا الى طول شعرهم واظافرهم قالوا : ربكم اعلم بما لبثتم ، وقالوا للراعى : انك اتيت البارحة بطعام قليل لم يكفنا ، فخذ شيئا من هذا الورق (النقد) ، وانطلق الى المدينة وأشتر لنا طعاما، فانطلق خائفا حتى أتى باب المدينة ، فرأى الصنم قد ازيل عنه ، لان أهلها اصبحوا موحدين . ثم دخل المدينة وجعل يتصفح وجوه الناس ، فلم يعرف منهم احدا ، وانتهى الى سوق الطعام ودفع الى بائع ما معه من الورق فرده عليه ، وقال : هذا عتيق لايروج اليوم ، فناوله كل مامعه ، وقال له : خذ حاجتك منه . ورأى صاحب الطعام يهمس الى جاره ويقول: احسب ان هذا قد وجد كنزا ، فلما رآهما يتهامسان ظن أنهما عرفاه ، فترك الدراهم وولى هاربا ، فصاح به الناس أن خذوه، فانه وجد كنزا . فأخذوه وانطلقوا به الى الملك ، فأخبروه ــ وكان موحدا ــ بأمره وبالنقود التى معه . فتركه الملك حتى سكن روعه ثم قال له : ما شأنك يافتى ؟ اخبرنى بأمرك ولا بأس عليك ، فقال الفتى : ما اسم هذه المدينة قالوا : افسوس، قال :وما فعل ديقيانوس ؟ قالوا : أهلكه اللهمنذثلثمائة سنة . فأخبرهم بقصته وقصة اصحابه ، فقال الملك : ارى فى عقل هذا الرجل نقصانا . قال الراعى : ان اردت تحقيق مااقول انطلق معى الى أصحابى لتراهم فى الكهف . فركب الملك وعامة أهل المدينة فقال الراعى : ان أصحابى اذا سمعوا جلبة الناس

خافوا فائذن لى ايها الملك حتى أتقدم وابشرهم ، فأذن له ، فتقدم حتى انتهى الى باب الكهف ، فدخل على أصحابه واخبرهم بهلاك ديقيانوس ، وظهور التوحيد ، وأن القوم فى ولاية ملك صالح ، وهاهو ذا قد اقبل اليكم ومعه عامة اهل المدينة ، فلما سمعوا ذلك كبروا وحمدوا الله . ووافاهم الملك وعامة اهل المدينة ، وسلم عليهم الملك وسأل عن رجل منهم ، وعانقهم وسلم عليهم الناس . فبادروا بذكر قصتهم حتى اذا فرغوا منها خروا ميتين

سحابة تهزم جيشا

ذكر اسماعيل بن احمد الساماني صاحب بخارى فى خراسان ، وكان ملكا عادلا غازيا ، انه غزا الترك فى بلادهم (التركستان) ذات مرة ، وكان فى عشرين الف فارس ، فخرج عليه منهم ستون الفا فى السلاح التام ، فاشتبك معهم اياما ، وبينما كان يوما يقاتلهم جاءه بعض مماليكه الاتراك وقالوا له : ان لنا فى معسكر الكفار قرابات ، وقد انذرونا بموافاة شخص منهم ، يحرك حجارة خاصة فتمطر السماء المطر والثلج والبرد ، وقد عزم أن يمطر علينا غدا ثلجا وبرداً عظيما لايصيب أحدا الا قتله ! فانتهرهم وقال لهم : ان هذا لايستطيعه احد من البشر .

ولما كان الغد وارتفع النهار نشأت سحابة عظيمة من وراء جبل كان مستندا اليه بعسكره ، ولم تزل تنتشر حتى اظلت جيشه ، قال اسماعيل السامانى : فهالنى سوادها ، وما رأيت فيها من الهول ، وماسمعت من الاصوات المزعجة ، فخشيت الفتنة ، فنزلت عن دابتى وصليت ركعتين والعسكر يموج بعضهم فى بعض ، ثم دعوت الله تعالى معفرا وجهى بالتراب ، وقلت : اللهم اغثنا ، فان عبادك يضعفون عن محنتك ، وانى أعلم ان

القدرة وأن النفع والضرر لايملكهما الا أنت . اللهم ان هـــذه السحابة ان أمطرت علينا كانت فتنة للمؤمنين ، وســــطوة للمشركين ، فاصرف عنــا شرها بحولك وقوتك ياذا الحول والقوة . قال : واكثرت من الدعاء رغبة ورهبة الى الله تعالى ووجهى على التراب . فبينــا انا كذلك اذ بادر الى الرجال يبشروننى بالسلامة واخذوا بعضدى ينهضوننى وكنت ثقيلا من عدة الحديد . فرفعت راسى ، فاذا السحابة قد زالت عن عسكرى ، وقصدت عسكر الترك وامطرت بردا عظيما ، فاذا هم يموجون وتنفر دوابهم . وما وقعت بردة على احد الا أوهنته أو قتلته ، فقال أصحابى : نحمل عليهم ، فقلت : لا ، فان عذاب الله أدهى وامر ، فمات منهم خلق كثير ، ولم يفلت الا القليل . فلما كان من الغد دخلنا معسكرهم فغنمنا مافيه من الغنائم الكثيرة ، وحمدنا الله تعالى على السلامة

مدينة النحاس

لما بلغ الوليد بن عبد الملك خبر مدينة النحاس ، وخبر مافيها من الكنوز ، وأنه الى جانبها بحيرة فيها جواهر واموال كثيرة عظيمة ، كتب الى موسى بن نصير عامله على المغرب والاندلس ، يأمره بالمسير اليها والحرص على دخولها وأن يعرفه حالها . ودفع الكتاب الى طالب بن مدرك فحمله الى موسى بن نصير وهو بالقيروان ، فلما قرأه تجهز وسار فى ألف فارس نحوها . فلما رجع كتب الى الوليد بن عبد الملك :

« بسم الله الرحمن الرحيم أصلح الله الامير صلاحا يبلغ به خير الدنيا والآخرة ، اخبرك يا أمير المؤمنين أنى تجهزت جهازا يكفينى اربعــة اشهر ، وسرت فى مغاور الاندلس ومعى الف رجل ، حتى أوغلت فى طرق قد انطمست ومناهل قد اندرست وانمحت فيها الآثار وانقطعت عنها الاخبار . فسرت ثلاثة واربعين يوما أحاول رؤية مدينة لم ير الراءون مثلها ، ولا سمع السامعون بنظيرها ، فلاح لنا بريق مشارفها من مسيرة ثلاثة ايام ، فأفزعنا منظرها الهائل من بعيد وامتلأت قلوبنا رعبا من عظمها وبعد أقطارها . ولما قربنا منها اذا أمرها عجيب فنزلنا عند ركنها الشرقى . ثم وجهت رجــلا من اصحابى فى مائة فارس ، وامرته أن يدور حول سورها ليعرف بابها ، فغاب عنى يومين ، ثم وافانا فى اليوم الثالث ، فأخبرنا انه ماوجد لها بابا ولا رأى اليها مسلكا . فجمعت امتعة أصحابى الى جانب

سورها وجعلت بعضها على بعض لانظر من يصعد اليها فيأتينى بخبر ما فيها ، فلم تبلغ امتعتنا ربع السور لارتفاعه . فأمرت عنـــد ذلك باتخاذ سلالم وشـــد بعضـــها الى بعض بالحبال ، ونصبتها على الحائط ، وجعلت لمن يصعد اليها ويأتينى بخبر ما فيها عشرة آلاف درهم . فانتدب رجل من اصحابى نفسه لذلك ، واخذ يتسنم السلالم ويقرأ ويتعوذ . فلما صار على سورها ، وأشرف على ما فيها قهقه ضاحكا ، وسقط فيها ، فناديناه ان اخبرنا بما فيها وبما رأيته فلم يجبنا . فجعلت لمن يصعد بعده ويأتينى بخبرها وخبر الرجـــل ألف دينار ، فانتدب رجل من حمير نفسه لذلك وأخذ الدنانير ، ثم صعد ، فلما استوى على السور قهقه ضاحكا ، ثم سقط فيها . وناديناه أن أخبرنا بما رأيت فلم يجبنا ، فصعد ثالث وكان حاله مثل حال صاحبيه ، فامتنع اصحابى بعد ذلك عن الصعود . فلما أيست منها رحلت نحو البحيرة التى بجانبها وسرت مع سور المدينة ، فانتهيت الى مكان من السور فيه كتابة بالحميرية ، ثم سرت حتى وافيت البحيرة عند غروب الشمس ، فاذا هى مقدار ميل فى ميل كثيرة الامواج ، واذا رجل قائم فوق الماء ، فناديناه من أنت ؟ فقـــال : أنا رجل من الجن حبسنى هـــــنا سليمان بن داود ، قلنا فما بالك قائما فوق الماء ؟ قال : سمعت صوتا فظننته صوت رجل يأتى هذه البحيرة مرة فى كل عام فيصلى على شاطئها اياما ويهلل لله ويمجده ، قلنا من تظنه ؟ قال : أظنه الخضر عليه السلام . وغاب عنا ، ولم ندر أين توجه . وكان معى عدة من الفواصين فأمرتهم أن يغوصوا فى الماء فغاصوا ورأوا قمقما من نحاس مختوما برصاص ، جلبوه معهم ، فأمرت به ففتح ، وخرج منه مارد من نحاس على فرس

وبيده رمح من نحاس ، فطار فى الهواء ، وهو يقول : يانبى الله لا أعود . ثم غاصوا ثانية وثالثة فأخرجوا قماقم مثل هذا القمقم . ولما يئست وضج الجيش خوفا من انقطـاع الزاد اخـذت الطريق التى سلكتها والحمد لله الذى حفظ لامير المؤمنين أموره وسلم له جنوده والسلام »

وهى خرافة لا شك فيها وقد استغلها القصاص فى كتاب الف ليلة وليلة ، واضافوا اليها من بنات افكارهم مادة خيالية وفيرة ، اخرجوها بها اخراجا قصصيا بديعا فى قصة بنفس العنوان هى قصة مدينة النحاس ، وفيها يظهر الخضر ، وتظهر القماقم والجن والسور العجيب

من كتاب عجائب المخلوقات

رجل من يأجوج وماجوج

ذكر احمد بن فضلان رسول الخليفة المقتدر الى صاحب البلغار ، انه لما وصل الى هذه البلاد سمع ان بهـا رجلا عظيم الخلقة جدا ، فلما اجتمع بالملك سأله عنـه ، فقال له : نعم ولكنه مات ولم يكن من أهل بلادنا ، ثم قال من خبرة :ان قوما خرجوا الى نهر اتل (الفولجا) وكان قد مد وفاض فوافونى ذات يوم وقالوا : أيها الملك خوفنا على المـاء رجل فى خلقـة عظيمة ، ان كان من امة تقرب منا فلا مقام لنا فى هذه الديار . قال الملك : فركبت معهم الى النهر ، فاذا برجل طوله اثنا عشر ذراعا وراسه كأكبر ما يكون من القدور وانفه اطول من شبر ، وله عينان عظيمتان ، وكل اصـبع من اصابعه طوله شبر . فأقبلنا نكلمه وهو لا يزيد على النظر الينا ، فحملته الى مكانى . وكتبت الى اهل ويسوا وبيننا وبينهم مسيرة ثلاثة اشهر ، اسألهم عنه فعرفونى ان هذا الرجل من يأجوج ومأجوج ، وهم

منهم على ثلاثة اشهر ، وهم قوم عراة كالبهائم يخـرج الله تعالى لهم فى كل يوم سمكة من البحر ، فيأتى الواحد منهم بمدية فيجتز منها بقدر ما يكفيه ، ويكفى عيـاله ، حتى اذا استكفوا انقلبت السمكة فى البحر .. ثم قال الملك : اقام هذا الرجل عنـدى مدة ثم أصـابته علة فمات منها . قال ابن فضلان : فخرجت اليه ، فرايت عظامه هائلة جدا

شجرة العنب

ذكروا ان «جمشيد» احد ملوك الفرس القدماء ، كان فى بعض متصيداته ، فتفرق منه اصحابه فى طلب الصيد ، فرأى نفر منهم فى بعض الجبال شجرة عنب ، عليها عناقيد ، فتعجبوا منها ، وقطعوها وحملوها الى الملك ، فتعجب منها ، وقال : أنا سمعنا ان الجبال تنبت فيها السموم ، فلعلها من سمومها . ثم امر بحفظها حتى يجربها فى بعض من يستحقون القتـل ، فتركوها فى شيء من رحالهم ، فتكسرت حباتها ، فعصروها ، وجعلوا ماءها فى وعاء ، حتى عاد الملك الى مستقره ، فأمر باحضار رجل يجب عليه القتل ، واحضر العصير وقد احتدت مرارته ، فسقوا الرجل منه ، فشرب ما أعطوه بمشقة شديدة ، فأيقنوا أنه سم ، وزادوا فى سقيه من العصير ، فقام الرجل يرقص ويصفق بيديه ، فقالوا : انها فرحة الوداع ، وزادوا فى سقيه ، فنام نوما ثقيلا ، لم يشكوا فى أنه سيجود بنفسه فى اثنائه ، وسرعان ما انتبه وقال لهم اسقونى ، فسقوه مرارا . وأمنوا فشرب غيره من العصير وذكر ما فيه من اللذة والطرب ، وشرب جمشيد ، وأمر بغرس تلك الشـجرة فى بلاد الفرس لتكثر ثمرتها فصدعوا بأمره

الليمون وسم الافاعى

ذكر ابو عبد الله الضبى ، وكان من اصحاب الضياع بالبصرة، أنه كان بجنب داره بستان له كثير الاشجار ، فظهرت فيه افعى كأنها جراب طولا وسعة وانتفاخا ، وكثرت جناياتها . قال : فطلبت حاويا يصيدها ، وبذلت على ذلك مالا ، فجاءنى حاو ، وبخر بدخنة فخرجت عليه ، فحين رآها هاله أمرها ، فنهشته ، فتلف فى الحال . فانتشر خبرها وامتنع الحواءون عن صيدها . وتركت البستان والدار حتى جاءنى رجل يوما وقال : بلغنى أمر الحية التى عندكم ، فجئت لتدلنى عليها ، فقلت له : ما أحب ان اعرضك لها ، فقد قتلت حواء عن قريب . فقال : كان ذلك الحواء اخى ، وانا جئت لآخذ بثأره . فأريته البستان ، فأخرج دهنا وطلى به جميع بدنه ، وجلست أنا فوق السطح انظر اليه ، فأخرج دخنة بخر بها ، فما كان اسرع ظهور الافعى ، وحين قربت منه هربت فتبعها الحواء فلحقها وقبض عليها ، فالتفتت وعضت يده وافلتت . فحملنا الرجل فمات فى ليلته . وترك الناس الضيعة وانتشر حديث الافعى ، ومضت على ذلك مدة من الزمان ، فاذا رجل جاءنى فى بعض الايام وسألنى ماسأله الحواء قبله ، وكان يشبهه فى صورته ، فمنعته ، فقال : ان الرجلين الذين قتلتهما كانا أخوى ، ولابد من الاخذبثأرهما أو اللحوق بهما ، فعينت لهالبستان ، وصعدت السطح ، فأخرج الدهن وطلا بهبدنه مرة بعد مرة حتى صار الدهن يتقاطر من جسده ، ثم بخر ، فخرجت الافعى ، فطلبها ، فأخذت تحاوره ، وما زال بها حتى تمكنت يده من قفاها ، فانثنت عليه وعضت ابهامه ، فبادر وخزم فاها وجعلها فى سلة واخرج سكينا كانت معه وقطع

ابهام نفسه ، واغلى زيتا وكواها به . فحملناه الى الضيعة فرأى ليمونة بيد صبى يلعب بها ، فقال : اهذا موجود عندكم ؟ قلت : نعم ، فقال : اغثنى بكل ما تقدر عليه ، فان هذا فى بلدنا يقوم مقام الترياق فقلت : وما هى بلدكم ؟ قال : عمان . فأتيته بشىء كثير من الليمون فاخذ ياكله ويسرع فى اكله ، وعصر ماءه ، وطلى به موضع اللدغة . واصبح من غد سالما وقال : ماخلصنى الله تعالى الا بالليمون ، واظن ان أخوى لو اتفق لهما ان شاهدا هذا الليمون ماتلفا . ثم استخرج الافعى وقطع راسها وذنبها ، وغلاها فى قدر واستخرج دهنها وجعله فى قوارير وانصرف

كيد ابليس

سمع عابد أن قوما يعبدون شجرة من دون الله ، فأخذ فأسا وذهب ليقطع الشجرة ، فلقيه ابليس فى صورة شيخ كبير ، فقال له : ماذا تريد ؟ قال : اريد قطع هذه الشجرة حتى تبطل عبادتها ، فقال له ابليس : لقد تركت عبادتك وتفرغت لهذا العمل الذى لن يجديك شيئا ، فانك ان قطعتها عبد القوم غيرها ، فقال العابد : لابد من قطعها ، فقال له ابليس : انا امنعك من قطعها وتصارعا فصرعه العابد وقعد على صدره ، فتوسل اليه ابليس ان يطلقه حتى يكلمه فأطلقه ، فقال له : ان الله تعالى أسقط عنك هذا الامر ، فان له فى الارض عبدا كثيرين ، ولو شاء لامرهم بقطعها فدعها وشأنها ، فأجاب العابد : لابد ان اقطعها ، ونابذه القتال فغلبه العابد مرة اخرى وصرعه . فقال له ابليس : هل لك ان تجعل بينى وبينك امرا هو خير لك من هذا ؟ فقال العابد : ما هو ؟ قال ابليس : انت رجل فقير ، ولعلك تحب أن تتفضل على اخوانك وجيرانك وتستغنى عن الناس ؟ قال العابد : نعم ، فقال له : ارجع عن ذلك ولك على ان أجعل تحت راسك كل ليلة دينارين تأخذهما وتنفقهما على عيالك وتتصدق منهما ، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة واستئصالها . ففكر العابد ، وقال له : صدقت ، وعاهده على ذلك واعطاه الايمان والمواثيق ، وعاد الى متعبده . فلما اصبح

رأى دينارين تحت رأسه ، فأخذهما ، وصنع به ذلك ابليس أيضا فى اليوم الثانى ، فلما كان اليوم الثالث وما بعده لم ير شيئا ، فغضب واخذ الفأس وذهب الى الشجرة ، فاستقبله ابليس فى صورته السالفة ، وقال له الى اين ؟ قال : اريد ان اقطع الشجرة ، فقال له : ليس لك الى ذلك سبيل . فأمسك به العابد ليصرعه كما صرعه قبل ذلك فقال له ابليس: هيهات ، واخذ العابد بيده وضرب به الارض كأنه عصفور ، وقال له : ان لم تنته عن هذا الامر ذبحتك ، فقال له العابد : خل عنى ، واخبرنى كيف غلبتنى وصرت الى ما انا عليه ، فقال له ابليس : لما غضبت لله تعالى سخرنى لك ، والآن غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك

عفريت يختطف فتاة

قال اعرابى من بنى الحارث : خرجت عاشر عشرة نريد الشام ، فتأخرت عن أصحابى حتى اختلط الظلام ، فرفعت لى نار ، فقصدتها ، فاذا خيمةامامها جارية جميلة ، فقلت لها : ما تصنعين فى هذا المكان وحدك ؟ فقالت : انا جارية من بنى فزارة اختطفنى عفريت ، وهو يغيب عنى بالليل ويأتينى بالنهار ، فقلت لها : امضى معى ، فقالت : اخاف على نفسى الهلاك . فألححت عليها واركبتها ناقتى ، وسرنا حتى طلع القمر ، والتفت فاذا ظليم (ذكر النعام) عظيم عليه راكب يسوقه ، فقالت : هاهوذا قد أتانا فماذا نصنع ؟ فأنخت راحتى وأنزلتها وخططت حولها آيات من القرآن ، وتعوذت بالله ، فتقدم ولم يلبث ان برز الى فى صورة رجل اسود ، فتصارعنا فلم يغلب احد منا صاحبه ، فقال لى : هل لك فى خصلة من ثلاث خصال ؟ قلت : ما هى ؟ قال : تجز ناصيتى وتترك

الجارية ، قلت : ناصيتك أهون شيء على ، قال : فتأخـذ ما تشاء من الابل احضرها اليك قلت : لا أبيع دينى بعرض من الدنيـا ، قال : فاخدمك ايام حياتك ، قلت : مالى الى خدمتك حاجة . فسرت بها الى أهلها فزوجونيها ولى منهـا أولاد

عراف

كان ببغداد عراف يتكهن بالغيب ، ويخبر بأشياء تقـع فى الغد ، فما يخطىء فى شيء منها ، فجاءه رجل وقال : ان لى مسألة ان أصبت فيها فلك كذا وكذا من الدراهم ، فقـال : سلها ، فقال : لا اطمئن الى جوابك عنها حتى تخبرنى بها أولا ، فمكث العراف يسيرا ثم قال : تريد أن تسألنى عن محبوس ، فقال الرجل : أصبت ، فأخبرنى عن حبسه أيدوم عليـه أو يتخلص منه عن قريب ؟ فقال العراف : الشرط أملك ، واذا وفيت بما وعدت اخبرتك بحاله ، فمضى الرجل الى بيتـه واخذ ما وعده به ، وأتاه وأعطاه اياه ، وقال : اخبرنى عن حبسه ، فقال له العراف : سيخرج صاحبك قريبا ويخلع عليه فلم تمض أيام حتى كان الامر كما قال العراف ، فأتاه الرجل وقال : اخبرنى عن كيفية معرفتك أمر هذا المحبوس، فقال له : اعلم انى اذا سئلت عن أمر انظر أمامى وعن يمينى ويسارى فان رايت شيئا يكون بينه وبين المسئول عنـه مناسبة أو مشابهة ، اجبت على وفق تلك المناسبة أو المشابهة ، وانت لما سألتنى اولا نظرت فرايت قربة فيها ماء مع بعض السقائين ، فقلت : السؤال عن محبوس ، ثم لما سألتنى ثانيا رايت تلك القربة بعينها قد افرغت ، والقاها السقاء على منكبه فقلت له سيخرج ويخلع عليه

خلق الانسان

قال بعض الحكماء : ان الله تعالى خلق الانسان على مثال مدينة بنيت من اشياء مختلفة ، كالحجارة والحصى والرماد والخشب والحديد وما شاكل ذلك ، فأحكم بناءها وحصن سورها وخط شوارعها وقسم محالها وزين منازلها وملأ خزائنهـا واجرى انهارها واقام سواقيها وضياعها واقعـد تجارها ودبر ملكها . فخلق تسعة جواهر مختلفة اشكالها هى ملاك بنيانها ، ثم الفها وركب بعضها فوق بعض عشر طبقات متصلات ، ثم أسندها بمائتين وثمانية وأربعين عمودا ، ثم انه سمرها ومد حبالها وشد أوصالها بسبعمائة وعشرين رباطا ممدودات ملتفات عليها ، ثم قدر ثبوتها وقسم حوانيتها . واودعها احدى عشرة خزانة مملوءة جواهر مختلفة ألوانها ، وخط شـــوارعها وانفذ طرقاتها وفتح أبوابها فجعلها ثلثمائة وثلاثين مسلكا لسكانها ، واستخرج منها عيونا وشق فيهـا انهارا جعلها ثلثمائة وستين جدولا مختلفات فى جريانهـا ، وفتح على سورها اثنى عشر بابا من درجات مسالك لجيرانها ، وقد احكم بناء هذه المدينة على ايدى ثمانية صناع متعاونين هم خدامها ، ووكل خمسة حراس لحفظ أركانها ، ثم رفع هذه المدينة فى الهواء على عمودين وحركها الى ست جهـات بجناحين ، ثم أسكن فيها ثلاث قبائل من الجن والانس والملائكة هى سكانها ، ثم جعل عليهم رئيسا واحدا وأمره بحفظهـا واوصاه بسياستها

تفسير ذلك : اما الجواهر التسعة فهى العظام والمخ والعصب والعروق والدم واللحم والجلد والظفر والشعر . وأما الطبقات العشر فهى الراس والرقبة والصدر والبطن والجوف والحقوان

(الحصران) والوركان والفخذان والساقان والقـــدمان . وأما الاعمدة فهى العظام وأما الرباطات فهى الاعصاب . واما الاحدى عشرة خزانة فهى الدماغ والنخـــاع والرئة والقلب والكبـــد والطحال والمرارة والمعدة والامعاء والكليتان والانثيان . وأما الشوارع والطرقات فهى العروق الضوارب ، وأما الانهـــار فالاوردة . وأما الابواب الاثنا عشر فهى العينـــان والاذنان والمنخران والثديان والسبيلان والفم والسرة ، وأما الصناع الثمانية فهى القوة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة والمصورة . واما الحراس فهم الحـــواس الخمس : الســـــمع والبصر والشـــم والذوق واللمس . وأما العمودان فالرجلان ، وأما الجناحان فاليدان ، والجهات الست معروفة . واما القبائل الثلاث فالنفوس الثلاث : الشـــهوانية والحيوانية والروحية ، وأما الرئيس الواحد فالعقل

من كتاب خريدة العجائب

المدينة المسحورة

حكى أن رجلا من صعيد مصر اتاه رجل آخر واعلمه انه يعـرف مدينة فى ارض الواحات ، بها كنوز عظيمة فتزودا وخرجا ، فسافرا فى الرمل الى الواحات ثلاثة ايام ، ثم اشرفا على مدينة عظيمة ، بها انهار واشجار ، وثمار وأطيار ، ودور وقصور ، وبها نهر محيط ، وعلى ضفة النهر شجرة عظيمة ، فأخذ رجل منهما من ورق الشجرة ، ولف ما أخذه على رجليه وساقيه بخيوط كانت معه ، وفعل برفيقه مثل مافعل بنفسه ، وخاضا النهر ، فلم يتعد الماء الورق ولم يجاوزه ، فصعدا الى المدينة ، فوجدا فيها من تلال الذهب مالا يوصف ، فأخـذا منه ما أطاقا حمله ، ورجعا سالمين . ودخل أحد الرجلين على بعض ولاة الصعيد ، وعرفه بالقصة ، واراه بعض ما جلبه من الذهب ، فوجه معه جماعة وزودهم بزاد كثير يكفيهم مـدة طويلة ، فجعلوا يطوفون فى تلك الصحارى ، ولا يجدون للمدينة اثراً ، وطال عليهم الامر فسئموا ورجعوا خائبين

براعة اهل الصين فى التصوير

كان من عادات ملوك الصين أن الملك منهم اذا سمع بنقاش أو مصور فى أقطار بلاده أرسل اليه بمالورغبه فى الشخوص اليه ، فاذا حضر عنده أجرى عليه المال والصلات . وأمره أن يصنع تمثالا أو نقشا وتصويرا مما يتقنه . ويبذل الصـانع فى ذلك غاية جهده ومقدرته، ويحضر ما صنعوصور الىالملك ،

فيعلقه بباب قصره ويتركه سنة كاملة ، والناس يهرعون اليه
فى تلك المدة للفرجة عليه ونقده وبيان مافيه من خطأ أو نقص ،
فاذا مضت السنة ولم يقف أحد من الناس على عيب به أو
خلل فى صنعه أحضر الملك الصانع وخلع عليه وجعله من
خواص الصناع وألحقه بدار الصناعة ، وأجرى عليه الاموال
الجزيلة . وحدث ان ملكا من ملوك الصين سمع بنقاش ماهر فى
النقش والتصوير ببلاد الروم ، فأرسل اليه رسولا ، طلب منه
أن يعمل شيئا مما يقدر عليه ، ليعلقه الملك بباب القصر على
العادة . فنقش له فى لوحة صورة سنبلة حنطة خضراء قائمة
وعليها عصفور ، وأتقن نقشها وتصويرها ، حتى اذا نظرها
شخص لم يشك فى انها عصفور حقيقى على سنبلة خضراء ،
لولا ماينقصها من النطق والحركة ، فأعجبت الصورة الملك وامر
بتعليقها ، وباجراء الرزق على صانعها مدة تعليقها ، فمضت
سنة الا بعض أيام ، ولم يتقدم أحد لاظهار عيب فيها ولاخلل ،
وبينما السنة تشرف على النهاية تقدم شيخ مسن ، ونظر الى
الصورة ، وقال : هذه الصورة مختلة ، وفيها عيب ، فأحضر
الى الملك ، وجاءوا بالصانع والصورة ، وقال له الملك : ما الذى
تراه فى الصورة من الخلل والعيب ، وضح ذلك بدليل ظاهر
والا حل بك الندم ، واستحققت العقوبة . فقال الشيخ : مثال
أى شيء هذه الصورة ؟ فقال الملك : مثال سنبلة من حنطة
قائمة على ساقها وفوقها عصفور ، فقال الشيخ : أما العصفور
فليس به خلل ، انما الخلل فى وضع السنبلة ، فقال الملك :
وما الخلل ؟ قال الشيخ : الخلل فى استقامة السنبلة ، لان
المعروف ان العصفور اذا سقط على سنبلة ووقف عليها
أمالها لثقله وضعف ساقها ، ولو كانت السنبلة مائلة ماعبت
الصورة . فاقتنعوا بكلامه وكافأه الملك على فطنته وحسن نقده

النيل ينبع من الجنة

حكى ان رجلا دخل مصر ورأى عجائبها ، فآلى على نفسه الا يفارق ساحل النيل الى منتهاه الا ان يموت ، فسار ثلاثين سنة فى العامر ، وثلاثين سنة أخرى فى الخراب ، حتى انتهى الى بحر أخضر ، فرأى النيل يشق ذلك البحر ، وركب دابة هناك سخرها الله له ، فمشت به زمانا طويلا ، حتى وقع فى أرض من حديد ، جبالها وأشجارها حديد ، ثم وقع فى أرض من نحاس ، جبالها واشجارها نحاس ، ثم وقع فى ارض من فضة ، جبالها وأشجارها فضة ، ثم وقع فى أرض من ذهب ، جبالها وأشجارها ذهب . ومازال يسير حتى انتهى الى سور مرتفع من ذهب ، ووراءه قبة عالية من ذهب ايضا ، ولها أربعة ابواب ، ورأى الماء ينحدر من ذلك السور ويستقر فى القبة ثم يخرج من الابواب الاربعة ،فتكون انهار النيل والفرات وسيحون وجيحون. وبينما الرجل يتأمل فى السور أتاه ملك حسن الهيئة ، فقال له : هل تدرى أى شىء تنظر ؟ فقال له : انى لا أدرى ، فقال له الملك : ان التى تنظر اليها هى الجنة ، وسيأتيك رزق منها فلا تؤثر عليه شيئا من ارزاق الدنيا ، ولم يلبث أن سقط عليه من حيث لا يعلم عنقود من عنب ، فيه ثلاثة الوان مجموعة ، لون كاللؤلؤ ولون كالزبرجد الاخضر ولون كالياقوت الاحمر . فأخذ الرجل العنقود ، وعزم على الرجوع ، فرجع فى نفس الطريق الذى سلكه ، فرأى شيخا تحت شجرة من تفاح ، فمكث غير

بعيد منه ، فحدثه هذا الشيخ وآنسه ، وقال له : الا تأكل من هذا التفاح ؟ فقال له : كلا انى معى طعام من الجنة ، وأنا مستغن به عن تفاحك وكل طعام فى الدنيا ، فقال الشيخ له : صدقت ، وهذا التفاح ايضا من الجنة ، ولم يزل به حتى طعم منــه . وبمجرد ان بدأ الرجل فى أكل التفاح تراءى له الملك وقال له : اتعرف هذا الشيخ ؟ قال : لا ، قال : هو والله ابليس الذى أخرج اباك آدم من الجنة ، ولو قنعت بالعنقود الذى معك لاكل منه أهل الدنيا جميعا ولم ينفد . فبكى الرجل وندم على ما كان من فعله ، وسار متجها مع النيل الى مصر حتى دخلها ، فحدث الناس بما رأى فى طريقه ومنابع النيل من العجائب

من رحلة ابن بطوطة

التحرز من الحرام

مر شيخ صالح يسمى «ادهم» ببساتين مدينة بخارى ، وتوضأ من بعض الانهار التى تتخللها ، فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال : هذه لا خطر لها ، فأكلها ، ثم وقع فى خاطره من ذلك وسواس ، فعزم على أن يستحل التفاحة من صاحب البستان ، فقرع باب البستان ، فخرجت اليه جارية ، فقال لها : ادعى لى صاحب المنزل ، فقالت : انه لامرأة فقال : استأذنى لى عليها ، ففعلت . فأخبر المرأة بخبر التفاحة ، فقالت له : ان هــذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان ، والسلطان يومئذ ببلخ ، وهى على مسيرة عشرة ايام من بخارى ، واحلته المــرأة من نصفها

وذهب الشيخ الى بلخ ، فاعترض السلطان فى موكبه، فأخبره الخبر واستحله ، فأمره أن يعود اليه من الغد . وكان للسلطان بنت بارعة الجمال ، قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت ، وحببت

اليها العبادة وحب الصالحين وهى تحب ان تتزوج من ورع زاهد فى الدنيا . فلما عاد السلطان الى منزله اخبر بنته بخبر الشيخ ادهم ، وقال فى حديثه لها : ما رايت اورع من هــذا الرجل ، يأتى من بخارى الى بلخ لاجل نصف تفاحة . فرغبت فى تزوجه . فلما اتاه من الغد قال له : لا احلك الا ان تتزوج ببنتى ، فانقاد لذلك بعد اباء وتمنـــــع ، فتزوج منهـــا ، فولدت له ابراهيم ، وشب على غرار أبيه من الزهاد الصالحين المتعبدين الورعين

حلواء صوفية

ومن قونية بالاناضول الشيخ الامام الصالح القطب جلال الدين الرومى ، وتنتمى اليه طائفة هناك تعرف بالجلالية . ويذكر انه كان فى ابتداء أمره فقيها مدرسا يجتمع اليه الطلبة بمدرسته فى قونية . فدخل يوما الى المدرسة رجل يبيع الحلواء وعلى راسه طبق منها ، وهى مقطعة قطعا يبيع القطعة منها بفلس (مليم) فلمـا أتى مجلس التــدريس قال الشـيخ : هات طبقك ، فأخذ الحلوانى قطعة منه وأعطاها الشيخ ، فأخــذها بيده وأكلها

وخرج الحلوانى ولم يطعم أحدا سوى الشيخ ، فخرج الشيخ فى اتباعه وترك التدريس ، وأبطأ على الطلبة ، وطال انتظارهم اياه ، فخرجوا فى طلبه ، فلم يعرفوا له مستقرا ، ثم انه عاد اليهم بعد اعوام وصار لا ينطق الا بالشعر الفارسى المـزدوج (ذى القافية الواحدة فى الشطرين) الذى لا يفهم . فـكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر ، وألفوا منه كتابا سموه المثنوى اى المزدوج . واهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعلمـون كلامه ويقرءونه بزواياهم فى ليـالى الجمعات

نساء الهندوس

وقال ابن بطوطة : « اتفق أثناء مقامى بالهند انى كنت وقتا بمدينة اكثر سكانها من الكفار واميرها مسلم ، وعلى مقربة منها جماعة من الكفار العصاة ، فقطعوا الطريق يوما ، وخرج الامير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار، ووقع بينهم وبين قطاع الطريق قتال شديد مات فيـه من رعية الامير سبعة من الكفار وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات ، فاتفقن على احراق انفسهن ، واحراق المراة لنفسها بعـد موت زوجها عندهم امر مندوب اليه غير واجب ، لكن من احرقت نفسها بعد زوجها احرز أهل بيتها شرفا بذلك ، ونسبوا الى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب ، واقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على احراق نفسها

ولما تعاهدت النسوة الثلاث على احراق انفسهن ! قمن قبل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب واكل وشرب ، كأنهن يودعن الدنيا ، وتزورهن النساء من كل جهة . وفى صبيحة اليـوم الرابع اتوا لكل واحـــدة منهن بفرس فركبته وهى متزينة متعطرة ، وفى يمينها جوزة نارجيل (جوزة هند) تلعب بهـا ، وفى يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ، واقاربها معها ، وبين يديها الطبول والابواق ، وكل كافر تمر به يقول لها : ابلغى السلام أبى او امى او أخى او صاحبى ، وهى تجيب : نعم ، وتضحك لهم

وسرت انا واصحابى معهن نحو ثلاثة اميال ، وانتهينا الى موضع مظلم كثير الميـاه والاشجار ، متكاثف الظلال ، وبين اشجاره اربع قباب ، فى كل قبة صنم من الحجارة ، وبين

القباب صهريج ماء ، تجمعت عليه الظلال وتزاحمت الاشجار . فلما وصلن الى تلك القباب نزلن الى الصهريج وانغمسن فيه ، وجردن ماعليهن من ثياب وحلى فتصدقن به ، واتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط ، فربط بعضه على وسطها ، وبعضه على راسها وكتفيها ، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض ، وصب عليها زيت ، فزاد فى اشتعالها ، وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار . وأهل الطبول والابواق وقوف ينتظرون مجىء المراة التى ستتقدم الى النار ، وقد حجبوها عنها بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم ، لئلا يدهشها النظر اليها

فرايت احداهن لما وصلت الى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف وقالت لهم وهى تضحك : أبالنار تخوفوننى ؟ انا أعلم انها نار محرقة ، ثم جمعت يديها على راسها خدمة للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الابواق والطبول ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون الخشب من فوقها لئلا تتحرك ، وارتفعت الاصوات وكثر الضجيج . وكذلك يفعل أهل الهند فى حرق انفسهم ، وفى الغرق اذ يغرقون انفسهم فى نهر الكنج ، وهو الذى اليه يحجون ، وفيه يرمون برماد هؤلاء المحرقين . وهم يقولون انه من الجنة ، واذا اتى احدهم ليغرق نفسه يقول للحاضرين الذين يشاهدونه : لا تظنوا انى اغرق نفسى لاجل شىء من أمور الدنيا أو لقلة مال انما قصدى التقرب الى الهى،ثم يغرق نفسه،فاذا مات أخرجوه واحرقوه ورموا برماده فى النهر المذكور »

السحرة الجوكية

فى الهند سحرة يسمون الجوكية ، وهم يتصورون فى صور الحيوانات المفترسة ، وتظهر منهم عجائب ، منها أن أحدهم يقيم اشهرا لايأكل ولايشرب ، والظاهر من حالهم انهم عودوا انفسهم الرياضة على ذلك. ومنهم من ينظر الى الانسان فيقع ميتا من نظرته ، وتقول العامة هناك : انه اذا قتل انسان بالنظر وشق عن صدره وجد بدون قلب ، والمرأة التى تفعل ذلك تسمى كفتار

ويحكى ابن بطوطة انه فى أثناء توليه القضاء فى الهند اتوه بامرأة من هؤلاء السحرة ، وقالوا انها كفتار وقد اكلت قلب صبى كان الى جانبها ، وأتوا بالصبى ميتا. فأمرهم أن يذهبوا بها الى نائب السلطان ، فأمر باختبارها ، وذلك بأن ملئوا اربع جرات بالماء ، وربطوها بيديها ورجليها ، وطرحوها مع الجرار فى النهر ، فلم تغرق ، فعلم انها كفتار ، ولو لم تطف على الماء ما كانت بكفتار ، فأمر باحراقها بالنار ، وأتوا بأهل البلد رجالا ونساء ، فأخذوا رمادها وزعموا ان من تبخر به امن فى تلك السنة من سحر أمثالها

قال ابن بطوطة : « وبعث السلطان الى يوما وأنا عنده بالحضرة ، فدخلت عليه وهو فى خلوة ، وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية ، وهم يلتحفون بالملاحف ، ويغطون

رءوسهم لانهم ينتفونها بالرماد ، فأمرني بالجلوس ، فجلست ، فقال لهما : ان هذا العزيز من بلاد بعيدة ، فأرياه مالم يره ، فقالا : نعم ، فتربع احدهما ، ثم ارتفع عن الارض حتى صار في الهواء فوقنا متربعا ، فعجبت منـــه ، وادركني الخوف فسقطت الى الارض ، فأمر السلطان ان اسقى دواء عنده ، فأفقت وقعدت وهو على حاله متربع . فأخذ صاحبه نعــلا وشكارة (زكيبة صغيرة) كانت معه ، فضرب بهـــا الارض كالمغتاظ ، فصعدت الى أن علت فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب في عنقه ، وهو ينزل قليلا قليلا ، حتى جلس معنا . فقال لي السلطان : ان المتربع هو تلميذ صاحب النعل . ثم قال : لولا أني أخاف على عقلك لامرتهم ان يأتوا بأعظم مما رايت . فانصرفت عنه ، واصابني الخفقان ومرضت ، حتى أمر لي بدواء اذهب ذلك عني »

الشيخ جلال الدين

قال ابن بطوطة : وكان قصدي بالمسير الى جبال بنجالة ، لقاء ولي من الاولياء بها ، وهو الشيخ جلال الدين التبريزي ، وهذا الشيخ له الكرامات الشهيرة ، وقد ظل اربعين سنة يسرد الصوم ويواصله ولا يفطر الا بعد مواصلة عشرة أيام ، وكانت له بقرة يفطر بعد العشرة على حليبها ، وكان يقوم الليل كله . ويستطرد ابن بطوطة فيقول :

« ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من اصحابهعلى مسيرة يومين من موضع سكناه ، فأخبروني أن الشيخ قال للفقراء الذين معه : قد جاءكم سائح المغرب ، فاستقبلوه ، وانهم اتوا لذلك بأمر الشيخ ، ولم يكن عنده علم بشيء من امري ، وانما أطلعه الله عليه . وسرت معهم الى الشـــيخ

فوصلت الى زاويته ، واهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ، ويأتون له بالهدايا والتحف ، فيأكل منهـــا الفقراء والواردون . ولما دخلت عليه قام الى وعانقنى وسألنى عن بلادى وأسفارى فاخبرته . ورأيت عليه فرجية (جبة كبيرة) فأعجبتنى ، وقلت فى نفسى : ليت الشيخ يعطينيها . فلمـــا دخلت عليه للوداع خلعها والبسنيها مع طاقية كانت على رأسه، ولبس مرقعة (ثوب الصوفية البالى) . فأخبرنى الفقراء انه ليس من عادته ان يلبس تلك الفرجية ، وانما لبسها عند قدومى وأنه قال لهم : هذه الفرجية يطلبها المغربى ، ويأخذها منه سلطان كافر ، ويعطيها أخانا برهان الدين الصاغرجى ، وهى له وبرسمه كانت ، ولما قال لى الفقراء ذلك قلت لهم : قـــد حصلت لى بركة الشيخ بأن كسانى لباسه

واتفق لى بعد مدة طويلة أنى دخلت بلاد الصين وانتهيت الى مدينة الخنسا ، وكانت الفرجية على ، فبينا أنا فى بعض الطرق اذ بالوزير فى موكب عظيم ، فوقع بصره على ، فاستدعانى وأخذ بيدى ، وسألنى عن مقدمى ، ولم يفارقنى حتى وصلت الى دار السلطان معه . فأردت الانفصال فمنعنى ، وادخلنى على السلطان ، فسألنى عن سلاطين الاسلام ، فأجبته . ونظر الى الفرجية فاستحسنها ، فقال لى الوزير : اخلعها ، فـــلم أستطع خلاف ذلك . فأخذها وأمر لى بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة . وتغير خاطرى لذلك ، ثم تذكرت قول الشيخ جلال الدين : انه يأخذها سلطان كافر فطال عجبى من ذلك

ولما كانت السنة الاخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق (بكين) فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجى ، فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها . فعجبت من ذلك وقبلتها

بيدى ، فقال لى : لم تفعل هذا وانت تعرفها ؟ فقلت له : نعم هى التى أخذها منى سلطان الخنسا ، فقال : هـذه الفرجية صنعها اخى جلال الدين برسمى ، وكتب الى ان الفرجيةتصلك على يد فلان . ثم أخرج لى الكتاب فقراته ، فعجبت من صدق يقين الشيخ ، وأعلمته بأول الحكاية ، فقال لى : أخى جلال الدين اكبر من ذلك كله ، وقد انتقل الى رحمة الله . ثم قال لى : بلغنى انه كان يصلى الصبح كل يوم بمكة،وكان يحج كل عام، لانه كان يغيب عن الناس يومى عرفة والعيد ! فلا يعرف اين ذهب »

شعوذة ساحر

حضر عند الامير قرطى ببلدة الخنسا (بالصين) فى احدى الليالى أحد المشعوذة ، فقال له : أرنا من عجائبك · قال ابن بطوطة : فأخذ كرة لها ثقب ، فيهاسيور طوال ، فرمىبها الى الهواء ، فارتفعت حتى غابت عن الابصار، ونحنفىوسطالمجلس أيامالحر الشديد ·فلما لم يبق منالسيرفى يده الا يسيرأمر تلميذ له فتعلق به وصعد فى الهواء الى أن غاب عن أبصارنا ، فدعاه ثلاث مرات ، فلم يجبه ، فأخذ سكينا بيده كالمغتاظ ، وتعلق بالسير الى أن غاب ايضا ، ثم رمى بيد الصبى الى الارض ، ثم رمى برجله ، ثم بيده الاخرى،ثم برجله الاخرى ، ثمبجسده، ثم برأسه . ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم ، فقبل الارض بين يدى الامير وكلمه بالصينى وامر له الامير بشىء . ثم انه أخذ أعضاء الصبى فألصق بعضها ببعض ، وركله برجله ، فقام سويا . فعجبت منه ، وأصابنى من خفقان القلب ما كان أصابنى عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك ، فسقونى دواء اذهب عنى ما وجدت . وكان بجانبى قاض مسـلم يسمى

فخر الدين فقال لى : والله ماكان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو ، وانما ذلك شعوذة

وتمتلىء رحلة ابن بطوطة بحكايات عجيبة مثل هذه الحكاية والحكايات السابقة ، وكثير منها لايعقل. ولعل مرجع ذلك انه كان سريع التصديق لكل ما يقال له ، وكانت له عينان تكبران ما يبصره وأذنان تضخمان مايسمعه ، فخرج بكثير مما قصه ورواه من باب الواقع المعقول الى باب الخيال والوهم

فهرس

فى عالم البحر

فى عالم البر

م الايداع: ١٦٧٣/ ٢٠٠٤
I.S.B.N
977-07-1021-0

هذا الكتاب

هذا نوع جديد من الأقاصيص الرائعة ، هى أشبه بقصص ألف ليلة وليلة، وعلى نمطها إلا أنها مكتوبة بأسلوب علمى .

وإذا كان كتاب ألف ليلة وليلة مستمدا من أصل فارسى ، فإن هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم من أصل عربى بحت، وضعه قصاصو العرب، ولعب فيه خيالهم الخصب دورا عظيما، فخرجت أساطير عجيبة، وأقاصيص رائعة .

وقد كان لكثير من الأمم طائفة من الأساطير، فلليونان أساطيرها وللهند أساطيرها ، وللفرس أساطيرها، وللفراعنة أساطيرها، ولقد ظلت هذه الأساطير من موردها ، ويفيدون منها وها هى ذى الأساطير العربية ، جمع شتاتها الدكتور شوقى ضيف وعلق عليها .

وستكشف هذه الأساطير العجيبة عن براعة العرب وسعة خيالهم فى تدوين قصصهم ، وقدرتهم العظيمة فى النسج القصصى البديع .

الثمن ١٢ جنيها